سلسلة
الجوائز
125

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إسحق باشيفيس سنجر

رواية

أعْدَاء (قِصَّةُ حبّ)

ترجمة : سمير أبو الفتوح

أعداء

(قصة حب)

رواية

تأليف: إسحق باشيفيس سنجر

ترجمة:

سمير أبو الفتوح



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٥

سنجر، إسحق باشيفيس، ١٩٠٢ - ......

اعداء: (قصة حب)/ رواية: تأليف إسحق باشيفيس سنجر؛ ترجمة: سمير أبو الفتوح. - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

٣٤٤ص؛ ٢٣ سم.

تدمك ٩ ٠٠٠٢ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص البولندية.

أ - أبو الفتوح، سمير (مترجم)

ب - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٦٢٦/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 0002 - 9

ديوى ٨٩١٫٨٥٣

• الكتاب: أعداء (قصة حب)

Enemies, Alove Story

• تأليف: إسحق باشيفيس سنجر.

Issac Bashevis Singer

• ترجمة: سمير أبوالفتوح.

• الطبعة الأولى 2014.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

www.gebo.gov.eg

email:info@gebo.gov.eg

مقدمة

إسحق باشيفيس سنجر

وُلد إسحق باشيفيس سنجر على الأرجح الآن فى ٢١ نوفمبر ١٩٠٢ ـ لا فى ١٤ يوليو ١٩٠٤ كما كان شائعًا من قبل ـ فى قرية ليونسين بالقرب من وارسو (عاصمة بولندا) التى صارت فيما بعد جزءًا من الامبراطورية الروسية، وبعد سنوات قلائل انتقلت الأسرة إلى بلدة رادزمين البولندية القريبة والتى كثيرًا ما تُذكر خطأ أنها مسقط رأسه.

وكان والد «إسحق» حاخامًا حسيديًا ووالدته ابنة حاخام، فتلقى تعليمًا دينيًا ملتزمًا، ومع ذلك فقد ظهر ميله إلى الأدب، منذ الصغر، وبدأ يكتب القصائد والقصص وهو فى الرابعة عشرة من عمره مما سبب الكدر والغم لوالديه كثيرًا، إذ كان الأدب فى نظرهما تخليًا عن العقيدة وسوء خلق.

وقد قضى «إسحق» ثلاث أو أربع سنوات فى أثناء فترة المراهقة فى قرية جده لأمه بيلجوراج، وقال فى حوار له عنها إنها «كانت

قرية قديمة الطراز لم تتغير أبدًا منذ عدة أجيال، إذ مازالت التقاليد فيها تحيا كما كانت منذ مئات السنين، ولايوجد بالقرب منها خط سكة حديد، لأنها تقع فى قلب الغابة»، وقد ألهمته تلك الفترة بعض أعماله القصصية والروائية.

ثم عاد إلى وارسو عام ١٩٢١ ليلتحق بكلية إعداد الحاخامات، ولكنه تركها بعد عام واحد فقط ليشتغل بالصحافة والأدب، وهو ما صنعه من قبل شقيقه الأكبر «إسرائيل» (١٨٩٣ ـ ١٩٤٤) الذى كاد يصبح واحدًا من أبرز كُتاب اليديية (أو اليدش)، وهى فى واقع الأمر لغة تطورت فى لهجة ألمانية قديمة وتُكتب بحروف عبرية ويتحدث بها يهود شرق أوربا منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث، وأنجزوا من خلالها ما يسمى بالأدب الليدى (أو اليديشى)، ومما تجدر الإشارة إليه أن أخته «إستركريتمان» (١٨٩١ ـ ١٩٥٤) كانت أول من كتب القصص فى العائلة.

وهاجر «إسحق» إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٥، إذ قر لديه أن غزو هتلر لبولندا أمر محتم بعد أن تولى السلطة فى ألمانيا، وترتب على هجرته فصله عن زوجته «رونيا» وابنه «إسرائيل زامير» (المولود عام ١٩٢٣) الذى رحل إلى موسكو ثم إلى فلسطين (حيث تقابلا عام ١٩٥٥)، وقد جاء استقراره فى بروكلين حيث عمل صحفيًا وصاحب عمود فى جريدة «نحو الأمام» وقد كتب كل رواياته وقصصه لهذه الصحيفة باليدية، فيما عدا أعماله المبكرة التى نشرها فى وارسو حتى غدا كاتب اليدية الأول فى مجال الرواية والقصة القصيرة والمقال، فقد جال بقلمه فى شتى الموضوعات التى تمس الحياة اليهودية مُكرسا حياته ـ كما يقول أحد النقاد للكتابة

عن عالم تحطم بطريقة وحشية وقاسية وأنجز عمله بلغة هى نفسها على وشك الانقراض والاندثار.

وقد التقى فى أثناء ذلك عام ١٩٣٨ «ألمافاسرمان» وهى لاجئة يهودية فى ميونخ، ثم تزوجها عام ١٩٤٠ وهو ماساعده على الاستقرار والكتابة بغزارة إذ عاشا سنوات عديدة فى بلنورد بمانهاتن.

راعى فى كتاباته الخطوط الأساسية لتقاليد الليبيدية ووجهات النظر الأخلاقية والاجتماعية السائدة لدى يهود بولندا، فضلاً عن الجوانب الفكرية لديهم وكيفية مواجهتهم لما يمر بهم من أحداث وأزمات، ولهذا فإنها أمور يجب على القارئ العربى الوقوف عليها خاصة وأنها انتقلت مع المهاجرين منهم إلى أمريكا وإن اصطبغت بصبغة أمريكية، وهو ما يقتضى ضرورة ترجمة كتابات المؤلف للوقوف على جانب من جذور ما ارتكبته دولة إسرائيل من جرائم فى حق الفلسطينيين وذلك منذ إنشائها حتى الآن.

كذلك تأثر «إسحق» بالكتابة الغربية تأثرًا شديدًا وخاصة ذلك النوع من الرواية المتسم بروح العائلة الذى لقى رواجًا وقبولاً فى أوربا فى القرن العشرين.

ومن أهم موضوعات رواياته أيضًا ما يعرف بالنزعة المضادة للبروميثية (أو الفاوستيتة) وهى تتبدى بوضوح فى روايته «الشيطان فى جوارى» (١٩٣٥)، إذ يستخدم البطل العارف بأسرار علم التصوف اليهودى (القبَّالاة) الصيغ المختلفة للسيطرة على الواقع، ولكنه يقع فى نهاية الأمر فى قبضة الشيطان تمامًا مثل «فاوستوس» الذى اشتهر فى الأدب والأسطورة بأنه رجل باع نفسه

للشيطان مقابل حصوله على الشباب والمعرفة والقوة، ويُلاحظ أن «إسحق» يربط بين العنصر الشيطانى البروميثى والجنس وهذا يعود إلى أثر علم التصوف اليهودى عليه.

والحقيقة أن «إسحق» قد اشتهر برواياته القصيرة على وجه الخصوص مثل «جميل الأبله» (١٩٩٧) التى تعد إحدى روائع الأدب البيدى (وقد قام المترجم بنقلها إلى العربية)، ومثل «إسبيثوزا شارع السوق» (١٩٦١) و«الجمعة القصيرة» (١٩٦٤)، وكل هذه الروايات خلفيتها الشتتل (أو المدينة اليهودية الصغيرة) التى عادة ما يزورها رُسل الشيطان، وهى تتناول تحليلات المرض النفسى والشر الإنسانى وافتقاد الإيمان.

وهو يعتبر «موباسان» و«تشيكوف» أعظم أساتذة القصة القصيرة فى العالم، وأن يطور من فنهما على نحو واضح سواء فى مجال الحس الدرامى أو القدرة على رسم الشخصيات فى مساحات صغيرة.

وعلاقة «إسحق» بالدين ـ كما تبدو من كتاباته ـ معقدة وغير تقليدية فهو يشك فى مبادئ الديانة اليهودية وينعزل عن الآخرين منكمشًا على نفسه وذلك رغم شعوره بعلاقته بجذوره الأرثوذكسية اليهودية، وفضلاً عن تطويره لوجهة نظره الدينية والفلسفية التى أسماها «صوفية خاصة».

وهو يؤثر أن يكون نباتيًا لا من باب الصحة ولكن من باب الإشفاق على الحيوان والمقارنة بين ما يصنعه الإنسان بأخيه الإنسان من سفك الدم.

وقد نشر «إسحق» ما لايقل عن ١٨ رواية و١٤ كتابًا للأطفال فضلاً عن مذكرات ومقالات. وقد تحولت بعض أعماله الروائية

ومنها رواية «أعداء» (قصة حب) إلى أفلام سينمائية، وذلك بالإضافة إلى اثنتى عشرة مجموعة قصصية.

وقد جاء فى حيثيات منح جائزة نوبل له عام ١٩٧٨ أن ذلك يرجع إلى فنه الروائى البليغ الذى يفيض بالعاطفة ويضرب بجذوره العميقة فى التقاليد الثقافية اليهودية البولندية، فيبعث إلى الوجود حالات إنسانية عامة الانتشار.

وعلى الرغم من حصوله على جائزة نوبل للأدب وحصوله من قبل على جائزة الكتاب القومى مرتين (الأولى عام ١٩٧٠ والأخرى عام ١٩٧٤) فقد خلت المكتبة العربية تمامًا من ترجمة لإحدى رواياته الطويلة عدا رواية «شوشا» التى قامت سلسلة الجوائز بالهيئة المصرية العامة للكتاب على نشر ترجمتها عام ٢٠٠٧ برقم (١٧) إيمانًا من رئيس تحريرها الدكتورة سهير المصادفة أن الفن الروائى يتيح لنا رؤية أعمق وأرحب لحقائق الحياة تهدينا إلى أقوم السبل فيها وإلى أشرف الغايات.

وتدور أحداث رواية «أعداء» (قصة حب) فى نيويورك حول أحد الناجين من الإبادة النازية، إذّ عاش فى مخزن تبن خلال الحرب، وقامت على العناية به خادمته غير اليهودية «يادفيجا» التى اتخذها زوجة له فيما بعد فى أمريكا، وفى تلك الأثناء كان على علاقة بامرأة تدعى «ماشا» قد نجت هى أيضًا من الإبادة، وكان هو بالنسبة إلى «يادفيجا» بائع كتب متجول مع أنه فى الحقيقة كاتب أجير لحاخام غير أمين، وهو يحيا فى جنون ارتياب مستمر ويأس دائم، وقد تعقدت الأمور أكثر حين جاءت إلى نيويورك زوجته الأولى فى بولندا تامارا التى كان يظن أنها ممن أبيدوا.

ويقول «إسحق» أنه قد استوحى هذه الرواية من اللاجئين الذين نجوا من هذه المحنة، وأنها ليست بحال من الأحوال قصة نموذجية للاجئ تتطابق مع حياته ونضاله كل التطابق، وأنها مثل معظم أعماله الروائية تقدم حالة استثنائية وأبطالاً استثنائيين وأحداثًا استثنائية، وأن شخصياتها ليسوا ضحايا النازى فحسب بل ضحايا شخصياتهم وما لها من خصائص سلوكية وعاطفية مميزة، وضحايا أقدارهم، وإذا كانت الصورة العامة تتسع لهم، فإن هذا مرده أن الاستثناء يضرب بجذوره فى القاعدة، وحقيقة الأمر فى الأدب أن الاستثناء هو القاعدة.

توفى «إسحق» عام ١٩٩١.

الفصل الأول

ـ ١ ـ

تقلب " هرمان " فى فراشه وهو يفتح عينًا، وتساءل وهو فيما يشبه الحلم أهو فى أمريكا أم فى تزيفكيف أم فى المعسكر الألمانى، بل تخيل نفسه أيضًا مختبئًا فى مخزن التبن فى ليبسك، وكانت كل هذه الأماكن تمتزج فى ذهنه أحيانًا، ومع أنه كان يدرك أنه فى بروكلين، فقد كان يسمع صياح النازيين وهم يخزون حراب بنادقهم محاولين إخراجه، فيضغط هو جسمه فى التبن أعمق فأعمق، ويلمس نصل حربة بندقية رأسه، وتطلب الصحو التام منه عزمًا، فقال لنفسه: "كفى" ، واستوى جالسًا. كان الوقت منتصف الصباح، وكانت "يادفيجا" قد ارتدت ملابسها قبل صحوه بوقت، ولمح نفسه فى المرآة الموضوعة على الحائط المقابل للسرير: وجه مُضْنًى، وشعر قليل متبق كان أحمر فيما مضى، أما الآن فأصبح مصفرًا يتوخَّطه اللون الرمادى، وعيون زرقاء ثاقبة على نحو لطيف تحت حواجب يعوزها التهذيب، وأنف ضيق، وخدود غائرة وشفاه رفيعة.

وكان "هرمان" يستيقظ دومًا وثيابه رثة ومجعدة، وكأنه قضى ليلته يتصارع، وفى هذا الصباح كذلك كان ثمة بقعة فى جبهته العالية يختلط فيها السواد بالزرقة، ولمس الكدمة، وسأل نفسه : "ما هذه ؟ هل سببتها حربة بندقية فى الحلم؟ "، وجعلته الفكرة يبتسم، فهو على الأرجح قد اصطدم بحافة الخزانة وهو فى طريقه إلى الحمام بالليل، ونادى بصوت ناعس: " يا دفيجا " ، فظهرت " يادفيجا " عند مدخل الباب، وهى امرأة بولندية ذات خدود وردية اللون وأنف أفطس وعيون فاتحة اللون وشعر فاتح كالكتان ومعقوص إلى الخلف فى كعكة صغيرة مستديرة ومثبتة فى موضعها بدبوس واحد، وذات عظم وجنى مرتفع وشفة سفلى ممتلئة، وقد أمسكت منفضة فى يد ومِرَشَّة صغيرة فى اليد الأخرى، وهى ترتدى فستانًا ذا مربعات خضراء وحمراء وذا تصميم غير مألوف فى هذا البلد، وفى قدميها شبشب للدهس فى المنزل. لقد قضت " يادفيجا " مع "هرمان" سنة فى المعسكر الألمانى بعد الحرب، ومع أنها عاشت معه ثلاث سنوات فى أمريكا حتى ذلك الوقت، فقد احتفظت بنضرة وخجل فتاة بولندية، فلم تستخدم مستحضرات التجميل، وتعلمت بضع كلمات انجليزية فقط، بل لقد خُيِلّ إلى " هرمان " أيضًا أنها تحمل معها روائح ليبسك، إذْ تفوح منها رائحة البابونج فى الفراش، وانبعث من المطبخ آنذاك شذا طبخ البنجر والبطاطس الطازجة والشّبت وشىء أرضى وصيفى آخر لم يستطع أن يسميه، فاستثار ذلك لديه ذكرى ليبسك، ونظرت إليه "يادفيجا" بلَوْم ينطوى على طيبة نفس، وهى تهز رأسها قائلة: "الوقت متأخر، غسلتُ الملابس فى المَغْسَلة واشتريت اللوازم، لقد تناولت إفطارى، بيد أنى مستعدة للأكل مرة أخرى ".

كانت "يادفيجا" تتكلم بولندية أهل الريف ، وكان "هرمان" يكلمها بالبولندية أو يكلمها أحيانًا باليدية التى لم تكن تفهمها، ويُلقى إليها ببضعة اقتباسات توراتية بلغة مُقدسة أو بعبارات من التلمود أيضًا حسبما تمليه عليه حالته النفسية ، وهى تنصت إليه دومًا، وسألها : أيتها الشكّسيّة(*)، ما الوقت الآن؟

العاشرة تقريبًا.

طيب ، سأرتدى ملابسى.

هل تود بعض الشاى ؟

كلا ، ليس ضروريًا.

لا تمشِ حافى القدمين ، سأحضر لك شبشبك ، لقد لَمَّعتُه.

لمعته من جديد؟ من يُلَمّع الشباشب؟

لقد جَفَّ تمامًا.

فهز " هرمان " كتفيه ، وقال :

بماذا لمعته ؟ بالقطران؟ أنت مازلت فلاحة من ليبسك.

وذهبت "يادفيجا" إلى خزانة الملابس، وأحضرت له رداءً منزليًا وشبشبًا، ورغم أنها زوجته وتناديها الجارات بـ "السيدة برودر"، فقد كانت تتصرف نحوه، وكأنها مازالت فى تزيفكيف، وكأنها مازالت خادمة فى منزل والده السيد "شموئيل رب بوردر" ، وإن أبيدت عائلته بأكملها فى المَحْرَقة، وبقى هو حيًا؛ لأن " يادفيجا " خبأته فى مخزن التبن فى قرية ليبسك مسقط رأسها، ولم تكن أمها تعرف مكان اختبائه، وبعد التحرير عام ١٩٤٥علم "هرمان" من

(*) الشكّسِيّة: فتاة غير يهودية.

شاهد عيان أن زوجته "تامارا" قد أطلق النازيون النار عليها بعد انتزاع طفليها منها لقتلهما ، وتوجه هو و"يادفيجا" إلى ألمانيا، حيث معسكر المُهَجَّرين، وعندما حصل على تأشيرة دخول أمريكا فيما بعد تزوجها بمراسم مدنية، وكانت هى على استعداد أن تعتنق العقيدة اليهودية، وإن بدا له أنه لا معنى من إثقالها بدين لم يعد هو نفسه يلتزم به، وقد أربكت "يادفيجا" الرحلة إلى ألمانيا، الرحلة المنطوية على الخطر والبطيئة، الرحلة البحرية على سفينة حربية إلى هاليفاكس ، فضلاً عن رحلة الأتوبيس إلى نيويورك إلى حد الخوف ـ إلى هذا اليوم ـ من الانتقال وحدها بالقطار النفقى، ولم تذهب قط إلى أبعد من يضع بنايات من المنزل الذى تسكنه، وإن لم تكن فى الحقيقة تحتاج إلى الذهاب إلى أى مكان، إذْ كان شارع مرميد يزودها بكل ما تحتاجه خبز، فاكهة، خضار، لحم شرعى (فلم يكن "هرمان" يأكل لحم خنزير) وحذاء، وفستان أحيانًا، وفى الأيام التى كان يمكثها "هرمان" فى المنزل كان يتمشى هو وهى معًا على الممشى الخشبى بجانب الشاطئ، ورغم أنه أخبرها تِكرارًا أنها لا تحتاج إلى التشبث به، وأنه ليس على وشك أن يفر منها، فقد كانت تمسك بذراعه بقوة، وكان الضجيج والصخب يصمان أذنيها، ويتذبذب كل شىء أمام عينيها، وكانت جاراتها تحثها على الذهاب معهن إلى الشاطئ، ولكنها كانت ترهب المحيط منذ انتقالها إلى أمريكا، وتبدأ معدتها فى الخضخضة من نظرة لاغير إلى الأمواج المتواثبة، وكان"هرمان" يأخذ "يادفيجا" أحيانًا إلى كافيتيريا عند شاطئ برايتون، ولكنها لم تعود نفسها على القطارات المندفعة على السكة الحديد المرتفعة بدويها الذى يصم الآذان، أو على السيارات الزاعقة التى تعدو مسرعة على هذا الطريق أو ذاك، أو على حشود

الناس فى الشوارع، وقد اشترى مُدَلاّة كى تلبسها، مُدَلاّة تحتوى على قصاصة ورث مكتوبًا عليها اسمها وعنوانها حال أن تضل الطريق، على أن ذلك لم يرحها؛ لأنها لم تكن تثق فى شىء به كتابة، ولقد بدا التغيير فى حياة "يادفيجا"من صنع العناية الإلهية، فقد اعتمد عليها "هرمان" تمامًا مدة ثلاث سنوات، إذ كانت تُحضر له الطعام والماء فى مخزن التبن، وتحمل غائطه وبوله، وكلما احتاجت أختها "ماريانا" أن تذهب إلى مخزن التبن كان "يادفيجا" تتسلق السلم، وتحَذر "هرمان" ليدفن نفسه على نحو أعمق فى الحيز الذى جوَّفه فى أغوار التبن، وعند تخزين التبن بعيدًا خلال فصل الصيف كانت تخفيه فى قبو البطاطس، وعَرَّضت أمها وأختها بذلك لخطر دائم، فلو اكتشف النازيون أن يهوديًا يختبئ فى مخزن أو قبو لأطلقوا الرصاص على النساء الثلاث جميعهن، وربما أحرقوا القرية أيضًا، أما الآن فهى تسكن فى الطابق العلوى فى مبنى مؤلف من وحدات مؤجرة فى بروكلين، ولديها غرفتان فاخرتان وبهو وحمام ومطبخ وثلاجة وفرن غاز وكهرباء، بل تليفون أيضًا يكالمها فيه "هرمان" عندما يكون بعيدًا فى رحلاته لبيع الكتب مما يجعل صوته قريبًا منها مع أن عمله قد يكون فى أماكن نائية، وحينما يكون رائعًا يغنى لها أغنيتها المفضلة عبر التليفون:

آه، لو رزقنا بصبى

لحمدنا الرب فى السماء!

فى أى مهد نرعى فرحتنا؟

ونحمد الرب فى السماء

فى الشارع تحت

يوجد حوض فى الثلج

فيه سيتمدد ابننا الصغير

ونحن نردد له أغنية مهد حلوة

آه لو رزقنا بصبى

لحمدنا رب الفقراء!

سنلفه بإحكام

فى إزارك بكامله

وفى لفاعى من الصوت.

وظلت الأغنية أغنية، فلم يحرص "هرمان" على أن تحمل "يادفيجا"، إذ لا حق للمرء فى عالم يُنتزَع فيه الأطفال من أمهاتهم ويُطلق عليهم الرصاص، أما بالنسبة لـ "يادفيجا" فلم تكن الشقة التى وَفَّرها لها "هرمان" صالحة لإنجاب أطفال، فهى تشبه القصر المسحور فى الحكايات التى اعتادت زوجات القرية العجائز أن يروينها وهن يغزلن الكتان أو ينزعن ريش الطيور، فأنت تضغطين على زر فى الحائط، فيضىء النور ، ويتدفق الماء الساخن والبارد من الحنفيات، وأنت تديرين مفتاحًا فيظهر اللهب الذى تطبخين عليه، ويوجد حوض للاستحمام اليومى يحفظك نظيفة وخالية من القمل والبراغيث، والراديو! فهرمان يضبط المؤشر على المحطة التى تذيع بالبولندية فى الصباح والمساء، فتمتلئ الغرفة بأغانٍ بولندية وموسيقى المازوركا والبولكا وعظة يلقيها كاهن فى يوم الأحد، فضلاً عن أنباء عن بولندا التى سقطت فى أيدى البلاشفة، ولم تكن "يادفيجا" تقرأ وتكتب، فكان "هرمان" يكتب لها الخطابات لأمها ولأختها، وتضع "ماريان" فى الظرف أحيانًا حبة قمح أو عودًا

صغيرًا يحمل ورقة من شجرة تفاح أو زهرة صغيرة ـ على سبيل التذكرة بلسبك فى أمريكا البعيدة جدًا، نعم ، إن "هرمان" فى هذا البلد البعيد زوجها وأخوها وأبوها وربها، بل لقد كانت تحبه أيضًا حين كانت خادمة فى منزل والده، وبالعيش معه فى بلاد أجنبية أدركت كم كانت مُحقة بشأن قَدْره وذكائه، فهو يعرف طريقه فى الحياة: يركب القطارات والأتوبيسات، ويقرأ الكتب والصحف، ويكسب النقود، وإذا احتاجت إلى شىء فى المنزل، فما عليها إلا أن تخبره به، فيحضره إليها بنفسه أو يسلمه إليها مِرسال سريع وتوقع باسمها، بثلاث دوائر علمها إياها هو، وذات مرة فى يوم ١٧ مايو ـ يوم تسميتها ـ أهدى إليها "هرمان" ببغاءين ـ أو بَرَكيتين، كما يطلقون عليهما ـ وكان الأصفر ذكرًا والأزرق أنثى، فأسمتهما "فويتس" و"ماريانا" على اسم والدها وأختها المحبوبين، فلم تكن "يادفيجا" على وفاق مع أمها؛ لأن أمها اتخذت زوجًا ثانيًا بعد وفاة والدها، وكان زوج أمها يضرب إخوتها وأخواتها من الوالد، وبسببه اضطرت هى إلى ترك المنزل والعمل خادمة عند اليهود، وكان إذا مكث "هرمان" فى المنزل وقتًا أطول أو نام فيه كل ليلة على الأقل اعتبرت "يادفيجا" حظها الطيب مكتملاً، فهو يسافر هنا وهناك لبيع الكتب من أجل كسب العيش، وعندما يكون بعيدًا عن المنزل يحكم إغلاق الباب بالسلسلة خوفًا من اللصوص، ولتتجنب جاراتها أيضًا، فقد كان النسوة العجائز اللائى يُقمن بالمبنى يتحدثن إليها بخليط من الروسية والإنجليزية واليدية ويتطفلن على حياتها، ويسألنها من أين جاءت وماذا يعمل زوجها؟ فنبهها زوجها أن تخبرهن بالقليل قدر المستطاع، وعلمها أن تقول بالإنجليزية:

"معذرة ليس لدىَ وقت".

ـ ٢ ـ

حَلَقَ "هرمان" بالموسى ريثما يمتلأ حوض الاستحمام بالماء، فقد نمت لحيته بسرعة، وصار وجهه شائكًا كالمبشرة، ووقف أمام مرآة خزانة حفظ الأدوية: رجل ذو بنية دقيقة، وأطول قامة بعض الشىء من المتوسط، وذو صدر مغطى بخصل شعر تشبه كتل "الحشو الصغيرة التى تبرز من الآرائك والكراسى القديمة، كان يأكل قدر ما يرغب، ولكنه ظل نحيفًا، وكات بوسع الناظر إليه أن يرى مجمل ضلوعه، والتجاويف العميقة الموجودة بين عنقه وكتفيه، وتفاحة آدم تتحرك صعودًا وهبوطًا كأنها تصنع ذلك من تلقاء نفسها، وأن يرى أن مظهره الخارجى بالكامل يتم عن قلق وضجر، وعند وقوفه هنالك بدأ ينسج خيوط حكاية من خياله الجامح، أن النازيين قد عادوا إلى سابق قوتهم واحتلوا نيويورك، فاختبأ هو فى هذا الحمام، وأن "يادفيجا" سدت الباب بجدار، وطلته لكى يشبه بقية امتداده، أين سأجلس؟ هنا على مقعد المرحاض، أستطيع أن أنام فى البانيو، كلا، إنه قصير جدًا، وفحص "هرمان" قرميد الأرضية ليرى ما إذا كان ثمة فراغ ليتمدد فيه، حتى لو استلقى على نحو مائل، فسيرفع ركبتيه إلى أعلى، حسنًا، سيحصل على الضوء والهواء هنا على الأقل؛ لأن الحمام له نافذة تفتح على فناء صغير، وشرع يحسب كمية الطعام التى تحتاج "يادفيجا" أن تحضرها له كل يوم ليبقى بقيد الحياة : ثمرتا بطاطس أو ثلاث، شريحة خبز، قطعة جبن، ملعقة زيت نباتى، قرص فيتامين من وقت لآخر، وهو ما سيكلفها دولارًا على الأقل فى الأسبوع أو دولارًا ونصف على أقصى تقدير، وسيكون عنده هو بعض الكتب وورق الكتابة، وهذا ترف بالقياس إلى مخزن التبن فى ليسبك، وسيحتفظ بمسدس محشو فى متناول يده، أو ربما بندقية، وحينما يكتشف النازيون

مخبأة، ويأتون للقبض عليه، فسيرحب بهم بوابل من الرصاص، ويترك رصاصة لنفسه، وفاض حوض الاستحمام تقريبًا، وامتلأ الحمام بالبخار، فأغلق "هرمان" صنابير المياه، وكان الاستغراق فى أحلام اليقظة هذه يأخذ شكل الوساوس، وتفتح "يادفيجا" الباب فور أن يكون فى حوض الاستحمام قائلة: إليك بعض الصابون.

مازال عندى قطعة متبقية.

صابون معطر، شم، الثلاث بدايْم(*).

وشمت "يادفيجا" قطعة الصابون، وناولتها له، وكانت يداها لا تزالان خشنتين كيدى فلاحة، فقد كانت تقوم بعمل رجل فى ليسبك، إذْ تبذر الحب وتزيل الحشائش والأعشاب الضارة وتحصد وتزرع البطاطس، بل تقطع الخشب وتنشره أيضًا، فأعطتها جاراتها فى بروكلين كل أنواع الزيوت لتطرية يديها، ولكنهما بقيتا صُلْبتين كيدى العامل، وكانت ربْلتا ساقيها ذكوريتين وجامدتين كالصخر، أما بقية أجزاء جسمها الأخرى فأنثوية وناعمة وصدرها ممتلئ وأبيض، ووركاها مستديران، وتبدو أصغر من عمرها البالغ ثلاثة وثلاثين عامًا، ولم تكن "يادفيجا" تستريح قط من وقت طلوع الشمس إلى أن تذهب للنوم، فقد كانت تجد دومًا عملاً تؤديه، ولم تكن الشقة بعيدة عن المحيط، على أن قدرًا كبيرًا من الغبار كان يدخل من خلال النوافذ المفتوحة، وتظل "يادفيجا" تغسا [illegible] ك وتحلِو وتلمَع، وتذكر "هرمان" كم كانت أمه تمتدحها على [illegible] بها فى العمل.

قالت " يادفيجا" : هيًا، سأدعك جسمك بالصابونة.

(*) الدَّايْم: عشرة سنتات أو عُشر دولار.

وودَّ هو فى الحقيقة أن يكون وحده، فلم يكن قد فرغ بعد من تصور كيفية إخفاء نفسه عن أعين النازيين هنا فى بروكلين، فمثلاً، كان عليه أن يحجب النافذة عن الأنظار لكى لا يراها الألمان، ولكن كيف ؟ وشرعت "يادفيجا" تدعك ظهره وذراعيه وخاصرتيه، فقد أحبط شوقها إلى إنجاب الأطفال، وحل هو محل الطفل لديها، فكانت تدللـه وتداعبه، وتخشى ألا يعود إلى المنزل فى كل مرة يذهب فيها بعيدًا - أن يضل طريقه فى اضطراب وانفساح أمريكا، ويخيل إليها أن عودته إلى المنزل فى كل مرة معجزة وقد علمت أن عليه أن يذهب فى هذا اليوم إلى فيلادلفيا، حيث سيقضى الليل كله وإن كان سيتناول طعام الافطار معها على الأقل، وانبعث فى المطبخ شذا القهوة ورائحة تسخين الخبز، وقد علمت "يادفيجا" نفسها كيف تصنع أرغفة من بذور الخشخاش كتلك التى تُصنَع فى تزيفكيف، وكانت تعد لـ "هرمان" كل صنوف الأطعمة الشهية أو المترفة، وتطبخ له أطباقه المفضلة : الزلابية، وكرمات المسَّه(*) مع حساء البُرْش(**)،

والدُّخْن(***) مع اللبن، والبُرغل مع مرق اللحم، ولديها جاهز له كل يوم قميص مكوى حديثًا ولِبْس داخلى وجورب، وتود أن تعمل له الكثير، على أنه كان يحتاج إلى القليل، فهو غالبًا فى سفر أكثر من البقاء فى المنزل، وكان لديها رغبة مُحرقة للتحدث معه، فسألته:

ما الوقت الذى يغادر فيه القطار ؟

(*) كريات المسَّه: كريات من خبز وفطير (غير مختمر) مطحون.

(**) البُرْش، حساء خضر روسى يُشكل البنجر عنصره الرئيسى.

(***) الدُخن: (أو الجاروَس أو الثُّمام): حَبٌ صغير من نبات من الفسيلة النجيلية يُصنع منه الخبز، وقد يؤكل كما يؤكل الأرز، كما يُقدم علفًا للحيوان وطعامًا للطير فى كثير من الأحيان.

ماذا؟ الساعة الثانية.

قلت أمس الساعة الثالثة.

الساعة الثانية ودقائق قليلة.

أين المدينة؟

تقصدين فيلادلفيا، فى أمريكا، أين يجب أن تكون؟

أهى بعيدة ؟

تعد بعيدة فى ليسبك، أما هنا فهى على بعد يستغرق ساعات قليلة بالقطار.

كيف تعرف من يرغب فى شراء الكتب؟

فقال "هرمان" مُفكرًا:

لا أدرى، أنا أحاول أن أجد مشترين.

لماذا لا تبيع الكتب هنا ؟ يوجد أُناس كثيرون جدًا هنا.

تقصدين جزيرة كوتى؟ إنهم يأتون إلى هنا لكى يأكلوا الفشار، لا ليقرأوا الكتب.

ما نوع هذه الكتب؟

أوه، أنواع مختلفة: كيف تبنى الجسور، كيف تقلل الوزن، كيف تدير الحكومة، وكتب الأغانى والقصص والمسرحيات وحياة هتلر... وصار وجه "يادفيجا" جادًا، وقالت :

أنهم يكتبون كتبًا عن تلك الخنازير؟

ـ إنهم يكتبون عن كل أنواع الخنازير.

ـ طيب.

ودخلت "يادفيجا" المطبخ، فتبعها "هرمان" بعد قليل، وفتحت باب قفص الطائرين، فحلق الببغاءان فى الغرفة، وجثم الببغاء الأصفر " فويتس" على كتف "هرمان"، لأنه كان يحلو له أن ينقر شحمه أذن الأخير، ويلتقط فتات الخبز من شفتيه أو من على طرف لسانه، وأدهش "يادفيجا" كيف ظهر "هرمان" بعد الحلاقة والاستحمام أصغر سنًا وأكثر انتعاشًا وسعادة، وقدمت له أرغفة أفرنجية صغيرة وخبزًا أسمر وعجة "أومليت" وقهوة بالقشدة، وجهدت أن تغذيه جيدًا، بيد أنه لم يأكل بصورة حسنة، وقضم قطعة من رغيف أفرنجى ونحاه جانبًا، وذاق العجة فحسب، فقد انكمشت معدته بالتأكيد فى أثناء الحرب، وتذكرت "يادفيجا" كيف كان يأكل دائمًا بإقلال، وكيف كانت أمة تتشاجر معه بهذا الشأن فى كل مرة يعود فيها إلى المنزل من وارسو حيث كان يدرس فى الجامعة، وهزت "يادفيجا" رأسها باهتمام، فقد كان "هرمان" يبتلع الطعام دون مضغ، ورغم أن كان ثمة متسع من الوقت قبل الساعة الثانية، فقد ظل ينظر إلى ساعة يده، وهو جالس على حافة كرسيه كأنه على وشك الانطلاق فى أي لحظة، وقد بدت عيناه وكأنهما تحدقان إلى ما وراء الجدار، وفجأة تخلص من حالته النفسية، وقال:

سأتناول العشاء فى فيلادلفيا.

ومع من ستأكل؟ وحدك؟

وبدأ يتحدث باليدية إلى "يادفيجا"، فقال:

وحدى، أهذا ما تفكرين فيه؟ سأتناول العشاء مع ملكه سبأ، أنا بائع بقدر ما أنتِ زوجة البابا! أنا مُزوِّر الحاخام الذى عملت لصالحه، ومازلت مع ذلك، ولو لم أعمل لصالحه لمتنا جوعًا، وأنتما وتلك الأنثى الموجودة فى برونكس جميعكم غامضون وملغزون كأبى

الهول، فما العمل فى ثلاثتكم ؟ إنها معجزة لاريب فيها أنى لم أُجَن، أُفٍّ .. لكم!

تكلم بطريقة أفهمها.

لماذا تودين أن تفهمى؟ يقول سفر الجامعة: "فى كثرة الحكمة كثرة الغَمِّ، والذى يزيد علمًا يزيد حزنًا"، ولسوف تعرف الحقيقة، ليس هنا وإنما فى الحياة الأخرى شريطة أن يبقى شىء من أرواحنا البائسة، فإذا لم يبق، فعلينا المضى بدون الحقيقة ...

قَهوةً إضافية؟

نعم، قهوة أخرى.

ماذا فى الصحيفة؟

أوه، عملوا هُدْنة، ولكنها لن تستمر، فسيبدءون القتال من جديد فى القريب العاجل هؤلاء الجواميس، فهم لا يشبعون منه أبدًا.

أين يحدث هذا ؟

فى كوريا و"الصين"، كما تسمينها.

قال الراديو إن هتلر مازال حيًا.

إذا مات هتلر واحد، فإن مليونًا على استعداد أن يحلوا محله.

وصمتت "يادفيجا" لحظة، واتكأت على مقشتها، ثم قالت:

الجار ذو الشعر الأبيض الذى يسكن فى الدور الأرضى قال إنى أستطيع أن أكسب خمسة وعشرين دولارًا فى الأسبوع من العمل فى مصنع.

أتودين الذهاب للعمل؟

إن قعودى فى المنزل بمفردى يشعرنى بالوحدة، ولكن المصانع بعيدة جدًا لو كانت أقرب لعملت.

لاشىء قريب فى نيويورك، عليك أن تركب قطارات الأنفاق وإلا التصقت حيث أنت.

أنا لا أعرف الإنجليزية.

يمكنك أن تأخذى مقررًا تعليميًا، فى وسعى إدراج اسمك فى مقرر إذا أحببت.

قالت النسوة العجائز إنهم لا يقبلون أحدًا لا يعرف الحروف الأبجدية .

سأُعلمك.

أين؟ أنت لست فى المنزل ألبتة.

كان "هرمان" يدرك أنها على حق، فمن الصعب عليها أن تتعلم وهى فى عمرها هذا، وعندما تضطر إلى التوقيع على أى شىء بدوائرها الصغيرات الثلاث يحمر وجهها وتعرق، ومن الصعب عليها - إلى ذلك - أن تنطق أبسط كلمة إنجليزية، وعلى العموم كان"هرمان" يفهم بولنديتها الريفية، ولكن حين تطغى عليها عاطفتها أحيانًا بالليل تتفوه بكلام قروى غير مفهوم لا يستطيع أن يتتبعه - كلمات وتعبيرات لم يسمعها من قبل، أهو كلام قبائل ريفية قديمة؟ وربما من عصور وثنية ؟ وكان "هرمان" يعى منذ وقت طويل أن العقل يحتوى على أكثر مما يجمعه على مدى العمر الواحد، ويبدو أن الجينات تتذكر عهودًا أخرى، بل إن "فويتس" و "ماريانا" لديهما لغة موروثة من أجيال الببغاوات، ومن الواضح أنهما يتحادثان، وأن الطريقة التى يطيران بها معًا فى اتجاه واحد فى

جزء من الثانية تدل على أن الواحد منهما يعرف أفكار الآخر، وفيما يتعلق به هو "هرمان" فهو لغز لدى نفسه، إذ إن الورطات التى أوقع نفسه فيها تنطوى على جنون، وهو مخادع وخارق للأعراف، منافق أيضًا، والمواعظ التى يكتبها للحاخام "لاميرت" زَيّف وعار، ونهض "هرمان" وتوجه إلى النافذة، وكان ثمة بنايات كبيرة وقليلة العدد عن بعد، والمحيط يعلو ويهبط على نحو إيقاعى، ومن الممشى الخشبى على الشاطئ وشارع سيرف أقبلت ضوضاء الصباح الصيفى من جزيرة كونى، ومع ذلك كان كل شىء هادئًا فى الشارع الصغير الواقع بين شارعى مرميد ونبتون، حيث يهب نسيم رقيق، وتنمو بضع شجرات، وتشقشق الطيور على الأغصان، وحمل المد القادم معه رائحة السمك، ورائحة شىء يتعذر تحديدها، رائحة تعفن أو نتن، وعندما أطل "هرمان" برأسه من النافذة رأى حطام السفن الغارقة القديمة التى تُركت فى الخليج، والتصقت بهياكلها الغروية القذرة كائنات مُدرعة، نصف حية ونصف غارقة فى يوم بدائى، وسمع "هرمان" "يادفيجا" وهى تقول لائمة: القهوة بردت، عد إلى المائدة.

ـ ٣ ـ

غادر "هرمان" الشقة، وهبط الدرج جريًا؛ لأنه إذا لم يختف بسرعة، فقد تدعوه "يادفيجا" إلى العودة، وفى كل مرة كان يسافر فيها تودعه كأن النازيين يحكمون أمريكا وحياته فى خطر، وتضع خدها على خده، وترجوه أن يحترس من السيارات، وألا ينسى وجباته، وأن يتذكر أن يكلمها بالتليفون، وتتعلق به بإخلاص كلب، وكثيرًا ما كابدها ووصفها بالسخيفة، وإن لم ينس قط التضحية التى قامت بها من أجله.

لقد كانت "يادفيجا" واضحة وصادقة فى حين كان هو مراوغًا، ومتورطًا فى الأكاذيب، ولم يستطع البقاء معها نهارًا وليلة. كان المنزل الذى يسكن فيه "هرمان" مع "يادفيجا" بناية قديمة، حيث استقر اللاجئون المسنون الذين يحتاجون إلى الهواء النقى لصحتهم، ويصلون فى الكنيس القريب، ويقرءون الصحف اليدية، ويخرجون الدكك والكراسى القابلة للطى إلى الشارع، ويجلسون على شكل دائرة، ويتآنسون بالحديث عن البلد الأم، وعن أولادهم وأحفادهم، وعن الانهيار المفاجئ فى وول ستريت عام ١٩٢٩ وفى العلاج بحمامات البخار والفيتامينات والمياه المعدنية من ينابيع ساراتوجا، وكانت لدى "هرمان" الرغبة أحيانًا أن يبدأ التعارف إلى أولئك اليهود وزوجاتهم، بيد أن تعقيدات حياته جعلت من الضرورى أن يتجنبهم، وأسرع هابطًا الدرجات المتداعية، واستدار إلى اليمين - قبل أن يوقفه أحدهم - إلى الشارع، فقد تأخر عن عمله عند الحاخام "لاميرت" وكان مكتب "هرمان" فى مبنى بشارع ثلاثة وعشرين القريب من الشارع الرابع وهو شارع عريض ومشجر، وكان بوسعه أن يصل إلى القطار النفقى بشارع ستليول، وهو شارع عريض ومشجر أيضًا، وذلك بالسير فى شوارع مرميد ونبتون وسيرف أو بالسير على الممشى الخشبى على الشاطئ، وكان لكل طريق من هذه الطرق جاذبيته، بيد أنه اختار فى هذا اليوم شارع مرميد حيث إن له نَكهة أوربية، ولا تزال مُلصقات العام الماضى معلقة على الحيطان، الملصقات التى تعلن عن المرتلين الرئيسيين والحاخامات وأسعار مقاعد الكنيس فى عيد الغفران، وتنبعث من المطاعم والكافيتيريات روائح مرق الدجاج والكاشا والكبد المُقطع، ويبيع الخبازون الكعك المكوَّر والقُرص بالبيض ومُعجنات السَّتردَل، والأرغفة بالبصل وتجمع نسوة أمام دكان طلبًا للمخلل المُنكَّه

بالشّبت الموضوع فى براميل، ومع أن "هرمان" لم تكن لديه شهية كبيرة للطعام، فقد تركت لديه سنوات الجوع التى عاناها بسبب النازيين إحساسًا بالإثارة عند رؤيته إياه، وسقط نور الشمس على الصناديق الكبيرة والسلال التى يُكال بها البرتقال والموز والكرز والفراولة، وهنا مسموح لليهود أن يحيوا بحرية! وفى الشارع الرئيسى والشوارع الجانبية ترفع المدارس العبرية لافتاتها، بل توجد أيضًا مدارس ييدية، وفى حين مضى "هرمان" فى سيره، أخذت عيناه تبحثان عن أماكن للاختباء فيها حال مجىء النازيين إلى نيويورك، هل من المستطاع حفر ملجأ مُحصن تحت الأرض فى مكان قريب ؟ هل من الممكن الاختباء فى برج كنيسة كاثوليكية ؟ إنه لم يكن قط مقاتلاً فى حرب عصابات، أما الآن فإنه يفكر كثيرًا فى الأوضاع التى يمكن اتخاذها لإطلاق الرصاص، وفى شارع ستلول انعطف " هرمان " يمينًا ولفحت الريح الحارة برائحة الفشار الحلوة، وحث المنادون الناس على دخول حدائق الملاهى والاستعراضات الجانبية، حيث توجد الاحتفالات الصاخبة المخمورة وأروقة الرمى(*)، والوسطاء الذين يستحضرون أرواح الموتى لقاء خمسين سنتًا، وعند مدخل القطار النفقى راح إيطالى ذو عيون متنفخة يخبط بشدة على قضيب حديدى بسكين طويل وهو يرد كلمة واحدة المرة تلو المرة بصوت أحدث ضجة كبيرة، إذ كان يبيع غَزْل البنات و"الجيلاتى" الرقيق الذى يذوب فور أن يوضع فى مخروط، وعلى الجانب الآخر من الممشى الخشبى تلألأ المحيط وراء حشد من الأجساد، وكان ثراء اللون والكثرة والتحرر فى كل مرة يثير استغراب "هرمان"، ويراها أشياء رخصية ومبتذلة ككل شىء غدت عليه حياته، ودخل القطار النفقى، وكان المسافرون فى

(*) أروقة الرمى:مفردها رواق الرمى، وهو موضع مُقفل للتمرين على إصابة الهدف.

الأغلب شبابًا يتدفقون من كل قطار، ولم ير "هرمان" فى أوربا وجوهًا وحشية كوجوه هؤلاء وإن سيطرت عليهم هنا الرغبة فى الاستمتاع أكثر من الرغبة فى إلحاق الأذى بالآخرين، وأخذ الصبية يجرون وهم يصرخون ويزعقون ويدفع الواحد منهم الآخر كالكباش، وكان كثير منهم ذوى عيون سوداء وجباه منخفضة وشعور مجعدة، وكان يوجد إيطاليون ويونانيون وبورتوريكوون، أما الفتيات الصغيرات ذوات الأوراك العريضة والصدور العالية فقد حملن حقائب الوجبات الخفيفة والبطاطين ليفرشنها على الرمل، كما حملن أيضًا الدهون والزيوت فضلاً عن المظلات لحمايتهن من لفح الشمس، وهن يضحكن ويمضغن اللبان، وصعد "هرمان" الدرج المؤدى إلى السكة الحديد العالية، ووصل قطار فى الحال، وعندما فُتِحت الأبواب أحس بهبوب الحرارة، فقد كانت مراوح التهوية تطنطن، والمصابيح المتوهجة المكشوفة تبهر العيون، وكانت الصحف وقشر الفول السودانى منثورة على الأرض الأسمنتية الحمراء، وطفق صبية سود نصف عراة يلمعون أحذية بعض المسافرين، وهم منكبون على أحذيتهم كعبدة الأوثان القدماء، واستقرت على مقعد صحيفة ييدية تركها أحدهم خلفه، فالتقطها "هرمان" وقرأ العناوين الرئيسية : أعلن "ستالين" فى حديث صحفى أن الشيوعية والرأسمالية يمكن أن يتعايشا، فى الصين تدور معارك بين الجيش الأحمر وجيش "شانج كاى شيك"، وفى الصفحات الداخل: اللاجئون يصفون أهوال ماجدانيك وتريبلينكا وأوشفَتر، شاهد عيان يُدلى ببيان عن معسكر عمل فى شمال شمال روسيا، حيث يحفر عن الذهب ويَموت من الجوع والعشى الليلى حاخامات واشتراكيون وليبراليون وقساوسة وصهاينة وتروتسكيون، ورأى "هرمان" أنه قد تعود على هذه الأهوال، وإن كانت كل إهانة

للإنسانية تصدمه، وانتهى المقال بوعد أن سيتأسس يومًا ما نظام قائم على المساواة والعدل من شأنه أن يشفى مرض العالم، "وماذا إذن؟ إنهم مازالوا يركزون على الشفاء"، وأسقط "هرمان" الصحيفة على الأرض وبدت له عبارات مثل : "عالم أفضل" و "غد مشرق"، بدت له استخفافًا بأشلاء المعذبين وبقاياهم، وكلما سمع العبارة المبتذلة القائلة إن هؤلاء الذين جرت التضحية بهم لم يموتوا عبثًا ازداد غضبه، "ولكن ماذا أصنع ؟ لقد أسهمت بحصته فى الشر"، وفتح "هرمان" محفظة أوراقه، وأخرج مسودة وقرأها وأبدى ملاحظاته عليها، إن كسب قوته غريب ككل شىء آخر حدث له، فقد صار كاتبًا شبحيًا لحاخام، حاخام يَعِد أيضًا بـ "عالم أفضل" فى جنة عدن، وعبس "هرمان"؛ فلقد كان الحاخام يبيع الإله مثلما تُباع الأصنام، وإن استطاع هو أن يجد مبررًا واحدًا فقط لنفسه: فمعظم الناس الذين يستمعون مواعظ الحاخام ويقرءون مقالاته ليسوا أمناءَ تمامًا أيضًا، وأن الديانة اليهودية الحديثة لها هدف وحيد: تقليد غير اليهود.

وكان "هرمان" يرفع بصره فى كل مرة تنفتح فيها الأبواب وتتعلق، لا ريب أنه يوجد نازيون يتجولون هنا وهناك فى نيويورك، فقد أعلن الحلفاء العفو العام عن ثلاثة أرباع مليون من "صغار النازيين"، وكانت الوعود بجلب القتلة إلى المحاكمة كاذبة فمن يحكم على من؟ إن عدالتهم خداع وتضليل، وعلى "هرمان" أن يغمض عينيه ويسد أذنيه ويغلق ذهنه ويحيا كالدودة، وكان على "هرمان" أن ينتقل من القطار السريع إلى قطار محلى عند ميدان يونيون، ثم ينزل عند شارع ثلاثة وعشرين، لكنه عندما نظر من النافذة رأى أن القطار قد وصل حينذاك إلى محطة شارع أربعة وثلاثين؛ فصعد السلم إلى الرصيف المقابل، حيث ركب قطارًا ذاهبًا إلى وسط المدينة،

ولكنه فات محطته من جديد، ومضى بعيدًا جدًا إلى شارع القناة، لقد سلّطت عليه أخطاؤه كاللعنة : أخطاؤه فى القطارات النفقية، وعاداته فى وضع الأشياء بعيدًا عن مواضعها، ولا يتذكر أين وضعها، والتيه فى شوارع خاطئة، فقد المسودات والكتب ودفاتر الملاحظات، وكان يفتش دومًا فى جيوبه عن شىء ضاع منه، فقد يفتقد قلمه الحبر أو نظارته الشمسية أو تختفى محفظة نقوده أو ينزلق رقم تليفونه الخاص من ذهنه، وقد يشترى مظلة ويتركها فى مكان ما خلال اليوم، وقد يلبس جرموقًا ويضيع منه خلال ساعات، ويتصور أحيانًا أن العفاريت الكبيرة والصغيرة تحتال عليه، وأخيرًا وصل إلى مكتبه الواقع فى إحدى البنايات المملوكة للحاخام.

ـ ٤ ـ

لم يكن الحاخام "ميلتون لامبرت" جماعة من المصلين، وكان ينشر مقالات فى الصحف ويسهم فى دوريات أنجلو يهودية فى أمريكا وإنجلترا، ويبرم عقود الكتب مع دور نشر عديدة، وكان مطلوبًا لإلقاء محاضرات فى المراكز الاجتماعية، بل فى الجامعات أيضًا، على أنه لم يكن لديه الوقت أو الصبر للدراسة أو الكتابة وقد جمع ثروة من العقارات، وكان يمتلك ست دور نقاهة، وبنى منازل مؤلفة من شقق للإيجار فى بوروبارك ووليمزنورج، وهو شريك فى شركة تتعاقد على مشروعات بناء قيمتها ملايين الدولارات، وكان لديه سكرتيرة كبيرة فى السن هى السيدة "ريجال" رغم أنها تهمل عملها، وقد انفصل عن زوجته، ولكنهما عادا للعيش معًا مرة أخرى، وأشار إلى أن ما يقوم به " هرمان " لصالحه "بحث"، والحقيقة أن الأخير هو الذى يؤلف للحاخام كتبه ويدبج له مقالاته وخطبه لقاء أجر، وذلك كله بالعبرية أو اليدية ثم يترجمها

شخص ما إلى الإنجليزية، ويحررها ثالث، وقد ظل "هرمان" يقوم بهذا العمل لصالح الحاخام "لامبرت" عدة سنوات، وكان الحاخام ذا صفات عديدة فى وقت واحد : قليل الإحساس وكريم وماكر وقاس وبسيط، وكان بوسعه أن يتذكر شروحًا "فى المائدة المرتبة"(*)، بيد أنه كان يرتكب أخطاءً فى الاستشهاد بإصحاح من الأسفار الخمسة، وكان يضارب فى البورصة ويقامر ويجمع النقود لكل الدوافع الخيرية، وتبلغ قامته ما يزيد على ست أقدام، وله كرش، ويزن مائتين وستين رطلاً، ويقوم بدور الـ"دونجوان"، ولكن سرعان ما بدا واضحًا أنه يفتقر إلى الحظ مع النساء، فقد ظل يبحث عن حبه الحقيقى، وذهب الأمر به بعيدًا إلى حد أن زوجًا فى فندق أتلانتيك سيتى لكمه فى أنفه ذات مرة، وكانت نفقاته أكبر بكثير من دخله فى أغلب الأحيان، وهذا ما يقر به فى بيان دخله لتقدير الضريبة على الأقل، وهو يذهب إلى الفراش فى الساعة الثانية ويستيقظ فى الساعة السابعة صباحًا ويأكل رطلين من شرائح اللحم أو السمك، ويدخن سيجار هافانا، ويحتسى الشمبانيا، وكان ضغط دمه يرتفع على نحو خطير، وحذره طبيبه من نوبة قلبية، ولم تفتر طاقته وهو فى الرابعة والستين، وقد عُرِف بـ "الحاخام المنعم بالقوة والنشاط"، وخدم فى أثناء الحرب كمقيم شعائر دينية فى الجيش، وكان يتفاخر أمام "هرمان" بأنه وصل إلى رتبة عقيد، وما إن جاوز " هرمان " عتبة باب مكتبه حتى رن التليفون، فرد عليه ومن الطرف الآخر بدأ الحاخام فى الحال يصيح فيه بصوته الجهير القوى: "تبًا، أين كنت؟، كان من المفروض

(*) المائدة المرتبة: (أو شولحان عاروخ) كتاب ألفه الحاخام يوسف كارو، وهو إيطالي عاش فى القرن السادس عشر، ويحتوى على أحكام التلمود مرتبة ترتيبًا أبجديًا دقيقًا، مع الاختصار وسهولة الحكم المراد.

أن تثبت وجودك أول شىء فى هذا الصباح! أين خطبتى لأتلانتيك سيتى، لقد نسيت أنت أنه مازال علىّ أن أراجعها بدقة بالإضافة إلى كل ما يجب علىَّ أن أفعله، وما الذى تقصده من وراء السكنى فى منزل ليس به تليفون؟ عندما يعمل شخص عندى، فإنه يجب علىَّ أن أكون قادرًا على الاتصال لا أن أجعله ملتصقًا بحجر كالفأر، أخ، أنت مازلت وافدًا جديدًا قليل الخبرة! هذه نيويورك وليست تزيفكيف ! أمريكا بلد حر، ولست مضطرًا إلى أن تخبئ نفسك هنا، هذا ما لم تكن تكسب نقودًا بطريقة غير قانونية أو تصنع شيئًا علمه عند الشيطان، إنى أقول لك للمرة الأخيرة ـ إحصل على تليفون حيث تسكن وإلا انفضّ عملنا، انتظر أنا قادم، فإن علىّ أن أتحدث إليك بشأن شىء ما، إبق حيث أنت.

وأعاد "لامبرت" سماعة التليفون، وبدأ "هرمان" بسرعة الكتابة بحروف صغيرة، عندما قابل الحاخام أول مرة خشى أن يعترف له بأنه متزوج من فلاحة بولندية، وقال إنه أرمل، وإنه استأجر غرفة زائدة عن حاجة صديق فقير من البلد الأم - خياط ليس لديه تليفون، وكان التليفون فى بروكلين مدرجًا باسم "يادفيجا براقش"، وقد طلب الحاخام "لامبرت" مرارًا من "هرمان" أن يزوره فى مسكن الخيّاط؛ لأنه يجد سعادة خاصة فى قيادة سيارته الكاديلاك فى شوارع المناطق المجاورة الفقيرة، ويستمتع أيضًا بالانطباع الذى يتركه جرمه الضخم، وملابسه الأنيقة، وهو يحب صنع المعروف كأن يجد أعمالاً للمحتاجين، وأن يكتب خطابات توصى بالإدخال إلى مؤسسات خيرية، وكان "هرمان" قادرًا إلى حد بعيد على إقناع الحاخام بألا يزوره، فقد أوضح له أن الخيّاط يخجل من الصحبة، وهو غير متزن بعض الشىء نتيجة حياته فى المعسكرات، وقد لا يسمح أيضًا للحاخام بدخول المنزل، كذلك قلل "هرمان" من اهتمام

الحاخام بهذا الأمر بأن ذكر له عرضًا أن زوجة الخيّاط عرجاء، وأنه ليس لهما أولاد، فقد كان الحاخام يفضل العائلات التى بها أبناء، وطلب الحاخام من "هرمان" مرارًا وتكرارًا أن ينتقل للسكنى فى منزل آخر، وذهب إلى ما هو أبعد من ذلك أن اقترح زيجة له، وعرض عليه شقة فى إحدى منازله الخاصة، فأوضح "هرمان" أن الخيّاط العجوز قد أنقذ حياته فى تزيفكيف، وأنه محتاج إلى نقود الإيجار التى يدفعها هو له، وهى بضعة دولارات وكذبة تجر كذبة، فقد كان الحاخام يلقى خطبًا وينشر مقالات تعارض الزواج المختلط، وكان على "هرمان" نفسه أن يتناول هذا الموضوع فى كتاباته للحاخام أكثر من مرة محذرًا من الاختلاط بـ "أعداء إسرائيل" كيف يجعل تصرفاته مقبولة عقلاً؟ لقد أخطأ فى حق الديانة اليهودية والقانون الأمريكى والأخلاق، وهو لم يخدع الحاخام فحسب، بل خدع ماشا أيضًا، وهو عاجز عن أن يتصرف على نحو مختلف، إن طيبة يادفيجا المتناهية تسئُمه، وحين يتحدث إليها يبدو وكأنه وحده، كذلك فإن ماشا جد معقدة وعنيدة ومتقلبة عاطفيًا إلى حد أنه لم يستطع أن يخبرها هى أيضًا بالحقيقة، وقد أقنعها أن يادفيجا باردة جنسيًا، وأقسم لها بشدة أن يتحرر منها فور طلاقها هى - أى ما شا - من زوجها "ليون تورتشينر وسمع "هرمان" خطى ثقيلة، وفتح الحاخام الباب ومر من المدخل بصعوبة: طويل القامة، عريض، رجل ضخم ذو وجه أحمر وشفاه غليظة وأنف معقوف وعيون سوداء جاحظة، ويرتدى بذلة فاتحة اللون وحذاء أصفر ورابطة عنق مطرزة بخيوط من الذهب، وبها دبوس لؤلؤى، وفى فمه سيجار طويل، وشعره الأسود الذى فشا فيه اللون الرمادى يبرز من قبعته البنامائية، تلألأ عند رسغيه زرازينة من

الياقوت، ولمع فى يده اليسرى خاتم منقوش من الماس، وتناول السيجار من فمه، ونفض رماده على الأرض، وصاح:

بدأت الكتابة الآن، كان يجب أن تكون جاهزًا منذ أيام، لا يمكن أن أنتظر على هذا النحو إلى الدقيقة الأخيرة، ما الذى "تُشخبطه" عندك ؟ إن ما تكتبه الآن أطول من اللازم، إن مؤتمر الحاخامات وليس زعماء تزيفكيف! هذه أمريكا لا بولندا، طيب، وماذا عن المقال المتعلق ببعل شيم(*) ؟ يجب الفراغ منه، فهناك فاصل لانتهاء العمل، إذا لم تفلح فى إنجازه، فمن فضلك أخبرنى، سأجد شخصًا آخر، أو سأملى أنا بالدكتافون وأترك السيدة ريجال تكتبه على الآلة الكاتبة.

سيكون كل شىء جاهزًا اليوم .

ناولنى الصفحات التى كتبتها، الآن ولآخرة مرة أعطنى عنوانك، أين تسكن فى جهنم ؟ فى قلعة أسموديس(**)؟ بدأت أظن أن لك زوجة فى مكان ما تخفيها عنى .

فأحس "هرمان" بجفاف فى حلقه وهو يقول :

أود لو أن لى زوجة .

إذا أردت واحدة، فلك ذلك، انتقيت لك امرأة ممتازة لن تلقى

(*) بَعَل شيم: ظهرت فى بولندا طائفة عُرفت باسم (بَعَلى شيم). ومفردها «بَعَل شيم» أى «ذو السمعة والصيت» أو «الوسيط المقرب من الرب» أو «الطبيب الشعبى» وقد عملت على علاج المرضى بالتمائم والأحجبة وطرد الشياطين وإظهار الكرامات الغريبة،

(**) أسموديس؛ روح شرير عند اليهود، أصبح ملكًا على الشياطين فى فترة لاحقة، فقد ورد ذكره بداية فى سفرطبت (وهو أحد الأسفار المرفوضة من اليهود المسماة بالأسفار غير القانونية أبَو كريفا».

مثلها، ما الذى تخاف منه، لن يجرك أحد إلى ظلة الزفاف بالقوة، والآن ما عنوانك؟

الحقيقة أن هذا ليس ضروريًا.

أنا مُصر على أن تعطيه لى، معى دفتر عناوين هنا، سليم. فأعطاه " هرمان " العنوان فى برونكس .

ما اسمك الريفى ؟

جو براتشه.

بروتش، اسم غير شائع، كيف تتهجاه ؟ سأجعلهم يضعون تليفونًا لك سأطلب منهم أن يرسلوا الفاتورة إلى هذا المكتب .

لا يمكن أن تركب تليفونًا بدون موافقته .

لماذا يهتم بهذا الأمر ؟

الرنين يخيفه، فهو يذكره بالمعسكر.

يوجد لاجئون آخرون، ولديهم تليفونات، فليوضع فى غرفتك، سيكون أفضل له أيضًا، إذا كان مريضًا فيمكنه استدعاء طبيب بالتليفون أو يحصل على المساعدة، مخابيل، أناس مجانين، هذا هو السبب فى أن لدينا حربًا كل بضع سنوات وفى ظهور الهتالرة، أنا مصمم على أن تقضى ست ساعات فى المكتب كل يوم، فهذا ما اتفقنا عليه، أنا أدفع إيجارًا لن أنقصه لأغراض ضريبية إذا كان المكتب مغلقًا دائمًا ـ فهو ـ إذن ـ ليس مكتبًا، إن لدىّ ما يكفى من العناء والقلق بدونك.

وتوقف الحاخام عن الكلام قليلاً، ثم قال :

أود أن نكون أصدقاء، ولكنَّ ثمة شيئًا يتعلق بك يجعل هذا

صعبًا، وأستطيع أن أساعدك كثيرًا، ولكنك تغلق على نفسك كالمحارة، ما تلك الأسرار التى تخفيها خلف تلك الأقفال السبعة الشهيرة؟

فلم يرد "هرمان" فورًا، ثم قال فى النهاية:

أى شخص يمر بما مررت به أنا لايعود جزءًا من العالم .

كلام مبتذل، كلام فارغ، أنت جزء من هذا العالم مثلما نحن جزء منه، ربما كنت على بعد خطوة من الموت مرات كثيرة، ولكن ما دمت حيًا وتأكل وتمشى وتذهب ـ عفوًا ـ إلى المرحاض، فأنت ـ إذن ـ لحم ودم كأى شخص آخر، أنا أعرف مئات الباقين بقيد الحياة فى معسكرات الاعتقال، وكان بعضهم فى طريقه إلى الأفران بالفعل إنهم هنا فى أمريكا حقيقة ويسوقون السيارات ويمارسون العمل والتجارة، إما أن تكون فى العالم الآخر أو فى هذا العالم، لا يمكنك أن تقف بقدم واحدة على الأرض وبالأخرى فى السماء، أنت تؤدى دورًا، هذا كل ما فى الأمر، ولكن لماذا؟ يجب أن تكون منفتحًا على كل الناس.

أنا .

ما الذى تعانى منه؟ هل أنت مريض؟

كلا، فى الحقيقة لا .

ربما تكون عنِّينًا، هذه كلها أعصاب، إنه ليس مرضًا عضويًا .

لست عنِّينًا .

ماذا إذن؟ طيب أنا لن أفرض صداقتى عليك، لقد اتصلت بهم اليوم وطلبت منهم تركيب تليفون.

انتظر بعض الوقت من فضلك.

لماذا؟ التليفون ليس نازيًا، ولا يأكل الناس، إذا كان لديك اضطراب عصبى، فاذهب لاستشارة طبيب، ربما تحتاج إلى محلل نفسى، لا تدع ذلك يفزعك، فهذا لا يعنى أنك مجنون، أفضل الناس يذهبون إلى المحللين بل لقد ذهبت أنا أيضًا إلى محلل مرة، ولدىّ صديق هو الطبيب بيرتشوفسكى من وارسو، إذا أرسلتُك إليه، فلن يشتط معك فى الأجر.

بصدق، لست مصابًا بشىء أيها الحاخام.

طيب، لا شىء، إن زوجتى تصر أيضًا على أنه ليس بها سوء مع أنها مريضة، إنها تشعل الموقد وتتركه لتذهب لشراء الحاجيات، وتترك الماء ينساب فى حوض الاستحمام وتترك الفوطة فيه فتسد الصرف، وأنا أجلس إلى مكتبى، فأرى فجأة بريكة ماء على السجادة، وأسألها عن سبب فعل هذه الأشياء، فتصبح هيستيرية، وتأخذ فى لعنى، وهذا هو السبب فى وجود الأطباء النفسيين ـ أن يساعدونا قبل أن يزداد مرضنا إلى حد التخلص من الحياة.

أجل، أجل.

طيب، كلام لا طائل من ورائه، فلنرَ ما كتبت.

■■■

الفصل الثانى

ـ ١ ـ

كلما تظاهر "هرمان" بأنه مسافر لبيع الكتب قضى الليالى مع " ماشا " فى برونكس ، إذ كان له غرفة فى شقتها ، وكانت قد صمدت سنوات فى حى اليهود (الجيتو) ومعسكرات الاعتقال، أما الآن فهى تعمل أمينة صندوق فى كافيتيريا بشارع ترمونت ، وكان والدها "مايربلوخ" ابناً لرجل ثرى هو السيد "مندل بلوخ" الذى كان يمتلك ثروة فى وارسو، وحظى بشرف الجلوس إلى مائدة الحاخام "ألكسندروفر" ، وقد صار "ماير" الذى كان يتكلم الألمانية كاتباً عبرياً وذا شهرة وراعياً للفنون، ثم فر من وارسو قبل أن يحتل النازيون البلد، ليموت بعد ذلك من سوء التغذية والدوسنتاريا فى كازاخستان، وكانت "ماشا" قد ذهبت إلى مدارس "بث ياكوف" بإلحاح من أمها الأرثوذكسية، ثم درست فيما بعد فى مدرسة ثانوية بولندية عبرية فى وارسو، وفى أثناء الحرب أرسلت أمها "شيفرابؤة" إلى حى يهودى "جيتو" وأرسلت هى إلى آخر ، ولم تر إحداهما

الأخرى مرة ثانية إلى أن التقتا فى لوبلين بعد التحرير عام ١٩٤٥ ومع أن "هرمان" نفسه قد أفلح فى أن يظل حيًا خلال كارثة "هتلر"، فلم يفهم كيف استطاعت هاتان المرأتان أن تنقذا نفسيهما، فقد قضى هو ثلاث سنوات مختبئاً فى مخزن تبن، وهى فَجْوة فى حياته لم يستطع أن يسدها، ففى الصيف الذى غزا فيه النازيون بولندا كان يزور والديه فى تزيفكيف فى حين ذهبت زوجته "تامارا" مع ولديها إلى عائلتها فى نالتشيف المنتجع المعدنى ، حيث يمتلك والدها فيلا، فاختبأ "هرمان" أولاً فى تزيفكيف، ثم عند "يادفيجا" فى ليبسك، ومن ثم تفادى العمل القسرى فى الحى اليهودى، ومعسكرات الاعتقال، وكان يسمع صيحات النازيين وأصوات بنادقهم، ولكنه أحجم عن رؤية وجوههم، ومرت أسابيع دون أن يرى ضوء النهار، وتعودت عيناه على العتمة تدريجيًا، وتخدَّرت يداه وقدماه من جراء الكف عن الاستعمال، ولسعته الحشرات وفئران الحقل والجرذان، وأصابته حمى شديدة ، فعالجته "يادفيجا" بالأعشاب التى جمعتها من الحقل وبالفودكا التى سرقتها من أمها، وكثيرًا ما خطر بباله أنه يشبه الحكيم التلمودى "تشونى هاماجول" الذى نام - طبقاً للأسطورة - سبعين عامًا، فلما استيقظ وجد أن العالم قد تغير إلى حد الدعاء على نفسه بالموت ، والتقى "هرمان""ماشا" و"شيفرابوْه "فى ألمانيا، وكانت "ماشا" متزوجة من الدكتور "ليون تورتشينر" ، وهو عالم يُقال إنه اكتشف أو ساعد على اكتشاف فيتامين جديد ، على أنه فى ألمانيا كان يقضى أنهراً بأكملها وأنصاف ليال فى لعب الورق مع عصابة من المهربين، وكان يتكلم البولندية المتأنقة ويُسقط أسماء أساتذة الجامعات التى يزعم أنه شاركهم ، ويدبر حاله من الناحية المالية بما تمنحه إياه "المنظمة"

والدخل الهزيل الذى تحققه "ماشا" من رفو الملابس وتعديلها، وقد سبق "هرمان" إلى أمريكا "ماشا" و "شيفرابؤه" و "ليون تورتشينر"، وعندما وصل "هرمان" إلى نيويورك التقى "ماشا" من جديد، وعمل معلمًا للتلمود ، ثم مُصححًا للتجارب فى محل صغير للطباعة، حيث التقى الحاخام "لامبرت" وفى ذلك الوقت انفصلت "ماشا" عن زوجها الذى تبين أنه لم يصل إلى أى اكتشاف أو أن له الحق فى حمل لقب دكتور، وكان آنذاك عشيقًا لامرأة عجوز ثرية، وهى أرملة مالك العقار، وأُولع "هرمان" و"ماشا" أحدهما بالآخر حين كانا لا يزالان فى ألمانيا، وأقسمت "ماشا" أن عرافًا غجريًا تنبأ بلقائها "هرمان" ، ووصفه لها وصفا دقيقًا، وحذرها من العذاب والمنغصات التى سوف يجلبها الحب عليهما، وفى أثناء التنبؤ بمستقبل "ماشا" اعترت الغجرى غشية وأغمى عليه لقد تربى "هرمان" و "تامارا" زوجته الأولى كلاهما فى بيت موسر ، إذْ كان والد " تامارا " السيد" شكينه لورا" تاجر خشب بناء وشريكًا لأخ زوجته فى تجارة الزجاج، وكان له بنتان: و"تامارا" و"شيفا"، وتوفيت الأخيرة فى معسكر اعتقال، أما "هرمان" فكان وحيد والديه، وكان والده السيد "شموئيل ليب بوردر" ـ وهو من أتباع الحاخام "هوشاتين" ـ رجلاً ثرياً يمتلك بضعة منازل فى تزيفكيف، وأستأجر حاخامًا ليلقن ابنه أصول اليهودية ، كذلك استأجر معلمًا خاصًا بولنديًا ليعلمه المواد الدراسية الدنيوية، إذْ كان السيد "شموئيل ليب" يأمل أن يصبح ابنه الوحيد حاخامًا عصريًا، أما والدة "هرمان" التى كانت قد ذهبت إلى مدرسة ألمانية ثانوية فى لمبرج ، فقد أرادت أن يصير ابنها دكتورًا، ولهذا ذهب إلى وارسو، وهو فى التاسعة عشرة من عمره، واجتازا امتحانات القبول بالجامعة،

وسجل اسمه فى كلية الفلسفة، إذ كان يبدى ميلاً ناحية الفلسفة حتى وهو صغير فى السن، وقرأ كل الكتب الفلسفية التى وجدها فى مكتبة تزيفكيف، وتزوج على غير رغبة والديه "تامارا"، وهى طالبة علم الأحياء فى wszchnica وناشطة فى الحركات اليسارية، ولم يكونا على وفاق تقريبًا منذ البداية ، فقد كان "هرمان" ، وهو مريد للفيلسوف شوبنهور عازفًا عن أن يتزوج، يريد ألا يجلب أجيالاً جديدة للعالم، وأخبرها عن عزمه، على أنها حملت منه، ورفضت أن تجرى عملية إجهاض، واستعانت بعائلتها لإجباره على الزواج منها، وولدت صبيًا، وكانت شيوعية متحمسة بعض الوقت، وعقدت العزم على العيش فى الاتحاد السوفيتى مع طفلها، ثم تخلت عن الشيوعية بعد ذلك وصارت عضوًا فى حزب صهيون العمالى، ولم يعد والدا "تامارا" أو والدا "هرمان" فى وضع يسمح لهما بالاستمرار فى دعم الزوجين الشابين ، فكسبا عيشهما عن طريق التعليم الخصوصى بعد ثلاث سنوات من زواجهما أنجبت "تامارا" بنتًا ـ كائنًا حيًا (طبقًا للفيلسوف "أوتوفاينجر") بلا " وعى عقلى أو ذاكرة أو حِسٍّ بالمسئولية الأخلاقية ، ليس سوى وعاء جنس، وفى سنوات الحرب والسنوات التالية لها كان لدى "هرمان" من الوقت ما يكفى للندم على سلوكه إزاء أسرته، وإن بقى كما هو من حيث الجوهر : بدون ثقة فى نفسه أو فى الجنس البشرى، مؤمنًا باللذة الجبرية ويحيا فى ظلمة مُنبِئة بانتحار، ومُكذبًا للأديان، ويرى أن الفلسفة مفلسة منذ البدء، وأن الوعود بالتقدم لا تزيد أن تكون بصقة على وجه شهداء كل الأجيال، وأن الزمن إذا كان شكلاً من أشكال الإدراك أو مقولة من مقولات العقل فحسب، فإن الماضى حاضر كاليوم ، وعليه يستمر قابيل فى قتل أخيه هابيل، ويظل

نبوخذ نصر يذبح أبناء صدِقيًّا(*) ويفقأ عينيه، ولن تتوقف المذابح فى كشينيف البتة، ولسوف يُحرق اليهود فى أوشفيتنر إلى الأبد، وليس أمام الذين لا يملكون الشجاعة سوى مخرج واحد فقط: أن يُميتوا وعيهم ، ويخنقوا ذاكرتهم ويطفئوا البقية الأخيرة من الأمل.

ـ ٢ ـ

عندما غادر "هرمان" مكتب الحاخام استقل القطار النفقى فى برونكس وكان الناس يسرعون ويندفعون فى حر ذلك اليوم الصيفى، وشغل الركاب كل المقاعد فى قطار برونكس السريع، فأمسك " هرمان" بطوق جلد ، وطفقت المروحة أعلاه تطن ، ولم يكن الهواء الذى تحركه باردًا، ولم يكن قد اشترى صحيفة بعد الظهر، فجعل يقرأ الإعلانات، عن جوارب نسائية، شيكولاتة صابون معلب ، دفنات وجنازات "مُشرِفة"، وانطلق القطار داخل نفق ضيق، ولم تحجب أنوار العربة الساطعة الظلمة الحجرية الصلدة، وفى كل محطة كانت مجموعات من الركاب تتخذ طريقها إلى داخل القطار، وكانت رائحة العطر تختلط برائحة العرق فى الجو ، وساح " المكياج " على وجوه النساء ، وفسدت "المَسْكَرة"، وقل الزحام تدريجيًا، وانطلق آنذاك أعلى الأرض على السكة الحديد المرتفعة، فرأى "هرمان" من خلال نوافذ مصنع نسوة سودًا وبيضًا يتنقلن حول الماكينات بهمة ونشاط ورأى فى صالة مغطاة بسقف معدنى منخفض شباناً نصف عراة يلعبون بلياردو الجيب (*)، ورأى فتاة

(*) صدقيًا آخر ملك على مملكة يهوذا اليهودية القديمة، استغرقت مدة حكمه من ٥٩٧ إلي ٥٨٧ ق. م، وانتهت بالنفى إلى بابل، حسبما ورد فى سفر الملوك الثانى (١٧ : ٢٤ / ٢٠) وذلك على يد نبوخذ نصر الثانى.

مرتدية لباس بحر تتمدد على سرير صغير مثنى على سقف مسطح، وهى تأخذ حمام شمس فى المغيب، وحلّق طائر عبر سماء شاحبة الزرقة، ورغم أن المبانى لم تكن قديمة، فقد حومت حولها طلائع القدم والبلى، إذ حوم حول كل شىء سديمٌ ترابى بلونى الذهب والنار، وكأن الأرض دخلها مذنب ممتد، وتوقف القطار، فخرج "هرمان" من باب العربة ، وهبط الدرج الحديدى جريًا، ودخل حديقة عامة، حيث ينمو الشجر والعشب مثلما فى وسط الحقل تمامًا، وتتقافز الطيور وتشقشق على الأغصان، وتمتلئ المقاعد الطويلة فى المساء، وإن شغلها آنذاك قلة من كبار السن، وكان رجل كبير فى السن يقرأ جريدة ييدية من خلال نظارة زرقاء وعدسة مكبرة، وشمر آخر عن ساقه المصابة بالروماتيزم ليدفنها، كذلك كانت امرأة عجوز تحيك بالإبرة سترة من صوف رمادى خشن، وانعطف "هرمان" إلى اليسار إلى الشارع الذى تسكنه "ماشا "مع " شيفرابؤه"، حيث به منازل قليلة يفصلها عن بعضها البعض قطعٌ من الأرض الفضاء مكسوة بالعشب البرى، ويوجد مستودع قديم ذو نوافذ مسدودة بالآجر وبوابة مغلقة دائمًا، وفى منزل مُتهدم يصنع نجار أثاثًا "غير مُشطب" ، وعُلِقت لافتة "للبيع" على منزل خال، تداعت نوافذه، وخُيِّل إلى "هرمان" أن الشارع لم يقرر بعد هل يبقى جزءًا من المنطقة المجاورة أم يتوقف عن ذلك ويتوارى، وكانت " شيفرابؤه " و"ماشا" تسكنان فى الدور الثالث من منزل ذى مدخل مسقوف متصدع، وذى دور أرضى خالِ نوافذه مغطاة بألواح خشب وصفيح ، وتؤدى إلى مدخله بوابة مقوسة متداعية ، وصعد

(*) بلياردو الجيب: لعبة البلياردو تُلعب على طاولة لها جيوب وبكرات مرقَّمة عددها (١٥).

"هرمان" مجموعتين من الدرج وتوقف، لا لأنه تعب ، بل لأنه احتاج إلى وقت لاستكمال تخيله، ماذا لو انشقت الأرض إلى نصفين تمامًا بين برونكس وبروكلين؟ سيبقى هو هنا، أما النصف الذى به "يادفيجا" فيجذبه نجم آخر ـ غير الشمس ـ داخل كوكبة مغايرة ، ترى ما الذى سيحدث حينذاك؟ وإذا كانت فكرة "نيتشه" عن "العود الأبدى أو المتكرر" (*) صحيحة، فربما يكون هذا قد حدث بالفعل منذ كَدْريليون سنة، وقد كتب "إسبينوزا" فى موضع ما أن الله يفعل كل ما هو قادر على أن يفعله، وقرع "هرمان" باب المطبخ، ففتحته "ماشا" فى الحال ، ومع أنها لم تكن طويلة القامة، فقد كانت رشاقتها والطريقة التى تضبط بها رأسها توحى بغير ذلك، وكان شعرها أسود ضاربًا إلى الحمرة ويحلو لـ "هرمان" أن يقول إنه نار وسواد حالك ، وكانت بشرتها بيضاء مبهرة للنظر وعيناها خفيفتى الزرقة تخالطهماُ رقِش خضر، كذلك كان أنفها رفيعاً وذقنها مدببًا وعظم وجنتيها بارزًا من أعلى وخداها غائرين، وتتدلى سيجارة من بين شفتيها الممتلئتين، ويعكس وجهها قوة أولئك الذين عاشوا بعد التعرض لخطر عظيم، وكان وزنها آنذاك مائة وعشرة أرطال أما فى زمن التحرير فكان اثنين وسبعين رطلاً، وسألها "هرمان" :

أين أمك ؟

فى غرفتها ، ستخرج حالاً، اجلس.

فناولها لفة قائلاً :

(*) العود الأبدى أو المتكرر: فكرة قال بها الفيلسوف الألمانى "فريدريك نيتشه" مؤداها أن الزمن يعود كما سار من قبل، فتتكرر كل حوادث العالم مثلما تتكرر فصول السنة بعد دورتها تكرارًا لا نهاية له.

إليك هذه، اشتريت لك هدية.

هدية؟ إياك أن تحضر لى هدايا دومًا، ما هى؟

إنها صندوق لحفظ الطوابع.

طوابع؟ قد يُستفاد منه، أتوجد طوابع بداخله؟ توجد طوابع، إن لدىّ مائة خطاب علىَّ أن أكتبها، والأيام تمر، ويبدو لى أنى لن ألتقط قلمًا، والعذر الذى أبديه لنفسى أنه لا توجد طوابع فى المنزل، ولم يبق لى عذر، شكرًا يا عزيزى، شكرًا، كان يجب ألا تنفق نقودًا، طيب، فلنأكل ، لقد طبخت لك شيئًا تحبه ـ لحمًا مطهوًّا على نار خفيفة، وبُرغلاً خشنًا.

وعدتنى ألا تطبخى اللحم بعد ذلك.

وعاهدت أنا أيضًا نفسى على ذلك، ولكن بدون اللحم لا يوجد شىء يقبل الطبخ، الإله نفسه يأكل اللحم ـ اللحم البشرى، لا يوجد نباتيون البته، لا أحد، لو أنك رأيت ما رأيتُه أنا لعلمت أن الإله يرتضى الذبح.

ليس عليك أن تفعلى كل ما يريد الإله.

أنت تنفذ هذا، أنت تنفذه.

وانفتح باب الغرفة الأخرى، وأقبلت "شيفرابوْه" وهى أطول قامة من "ماشا" وسمراء ذات عيون سوداء، وشعر أسود فشا فيه اللون الرمادى تجعله على هيئة كعكة فى مؤخر رأسها، وذات أنف حاد، وحاجبين مقرونين وشامة على شفتها العليا وشعرات نامية على ذقنها، وكان ثمة أثر جرح على خدها الأيسر أحدثه "سونكى" بندقية نازى فى الأسابيع الأولى من الغزو الهتلرى، وكان من

اليسير رؤية أنها كانت امرأة جذابة فيما مضى، فقد أحبها "مايربلوخ" وكتب لها أغانى عبرية، بيد أن المعسكرات والمرض أتلفا صحتها ، وكانت ترتدى دومًا السواد، إذْ كانت لا تزال حزينة على زوجها ووالديها وأخواتها وإخوتها، فقد أبيدوا جميعًا فى الأحياء اليهودية والمعسكرات، وهى تضيق عينيها الآن كمن يخرج فجأة من الظلام إلى النور ورفعت يديها الصغيرتين ذواتَى الأصابع الطويلة وكأنها تُملّس شعرها، وقالت:

أوه يا هرمان، إنى أميزك بصعوبة، لقد تعودت أن أجلس فأغفو، أما الليل فأنا أتمدد صاحية تمامًا حتى الصباح أفكر، إن عينى تشتاقان إلى النوم فى النهار، هل نمت طويلاً؟

فقالت "ماشا":

من يدرى ؟ أنا لا أدرى إن كنت تنامين أم لا. إنها تتجول حول المنزل كالفأر؟ توجد فئران حقيقية هنا، أنا لم أعد أعرف الفرق، إنها تتجول طول الليل ولاتكلف نفسها إضاءة النور، لسوف تسقطين يوماً فى الظلام وتتكسر ساقك، انتبهى إلى كلامى.

ها قد بدأت مرة أخرى، أنا فى الحقيقة لا أنام، يُخيِّل إلىّ أن ستارة تسقط على وجهى ويفرغ ذهنى، أتمنى ألا يحدث لك هذا، ماذا أشم؟ أثمة شىء يحترق؟

لا شىء يحترق يا أمى، لا شىء يحترق. إن لدى أمى عادة غريبة: إن كل ما تعمله هى نفسها تلومنى عليه، فهى تحرق كل ما تطبخه ، وفور أنْ أصنع أنا شيئًا تشمه هى يحترق، وإذا سكبت هى زجاجة لبن تترك اللبن يسيل، وتنبهنى أنا إلى أن أحترس، ولابد أن هذا مرض هتلرى، وفى معسكرنا كانت امرأة تبلغ عن الآخرين

وتتهمهم بكل الأشياء عينها التى تقوم هى بها، إنها حالة مرضية غريبة، لا يوجد أناس مجانين ، الهائج غضبًا فقط يتظاهر بأنه مجنون.

ودمدمت "شيفرابؤة" : الجميع معافون سليمو العقل، وأمك فقط هى المجنونة.

أنا لا أقصد هذا يا أمى، لا تُقوِّلينى ما لم أقله، اجلسى، لقد أحضر لى صندوقًا صغيرًا لحفظ الطوابع، وعلىَّ الآن أن أكتب خطابات، وعلىَّ أن أنظف غرفتك اليوم يا هرمان، ولكنى مشغولة بألف شىء آخر، لقد قلت لك : كن نزيلاً مثل كل النزلاء الآخرين، إذا لم تطلب أن تبقى غرفتك مرتبة ونظيفة ، فلسوف تعيش فى القذارة ، لقد أجبرنى النازيون على عمل أشياء لمدة طويلة إلى حد أنى لا أستطيع أن أعمل شيئاً منها الآن بإرادتى الحرة ، وإذا أردت أن أعمل فعلىَّ أن أتخيل ألمانيًا يراقبنى بانتباه، لقد توصلت هنا فى أمريكا إلى أن العبودية ليست مأساة كبيرة برغم كل شىء - لا شىء أفضل من السَّوط لإنجاز الأعمال.

وقالت "شيفرابؤه" متذمرة :

استمع إلى حماقتها، اسألها عما تتكلم، إنها تقول شيئًا متناقضًا، هذا كل ما فى الأمر، لقد ورثت هذا من عائلة والدها، فلينعم فى جنة عَدْن، كلهم يحبون الجدل، قال والدى - رحمة الله عليه - مرة، إن مجادلاتهم التلمودية رائعة، ولكنها تنتهى على نحو ما إلى إثبات أنه مباح للمرء أن يأكل الخبز فى عيد الفصح.

ما دخل الخبز فى عيد الفصح بهذا ؟ هلا صنعتِ فىَّ معروفًا يا أمى وجلست، لا أستطيع أن أتحمل رؤيتك واقفة هكذا: إنها

متوعكة الصحة إلى حد الوقوع فى أي دقيقة إنها تقع بالفعل، فما من يوم يمر دون أن تقع.

ما الجديد فيما قلت؟ لقد كنت أرقد فى مستشفى بلوبلين والموت على الباب أنا فى أمان أخيرًا وفجأة ظهرت هى لى، ودعتنى للعودة من العالم الآخر ما حاجتك إلىَّ إذا كنت تلفقين لى التهم والأكاذيب، من الخير أن أموت، الموت متعة ، من ذاق الموت لا حاجة به إلى الحياة ، ظننت أنها ميتة أيضًا وفجأة اكتشفت أنها بقيد الحياة وجاءت للبحث عنى، وعثرت علىّ ذات يوم وفى اليوم التالى أخذت ترد علىَّ بفظاظة وقلة احترام وتخزنى بألف إبرة ، ولو قلت ما حدث كله لظن من يسمعنى أنى فقدت عقلى.

أنت أمى، أنت أمى ، إنى أحتاج إلى برميل حبر لأصف الحالة التى كانت عليها حين أخرجتها من بولندا، على أن ثمة شيئًا أقوله بضمير مرتاح، إنه لم يُعذَب أحد قط بالكيفية التى عُذبت هى بها.

ماذا فعلت بك يا بنيتى حتى تتكلمى بهذه الطريقة ؟ لقد كنتِ متمتعة بالصحة والعافية ـ أبعد الله عنك شر الحسد ـ وكنت أنا ميتة ، لقد قلت لها بصراحة إنى لا أريد أن أعيش بعد الآن، فقد عشت ما فيه الكفاية، ولكن الحياة شدتنى بعنف ، يمكنك أن تحطم شخصًا بالغصب ويمكنك أن تعيده إلى الحياة به أيضًا، لماذا تحتاجيننى؟ إنه يناسب هواها أن يكون لها أم، هذا كل ما فى الآمر، لم يرقنى منذ البداية زوجها المدعو "ليون" ، لقد ألقيت عليه نظرة واحدة، وقلت له: "بنيتى ، إنه دجَّال"، إن كل شىء مكتوب على جبين الإنسان إذا عرفتَ كيفية قراءته كما يقولون، إن ابنتى تقرأ أصعب

الكتب ، ولكنها حين تأتى إلى الناس لا تعرف يديها من قدميها فقد تركها تجلس هنا زوجة مهجورة، إمرأة تخلى عنها زوجها إلى الأبد.

إذا أردت الزواج، فلن أنتظر طلاقًا.

ماذا؟ ما زلنا يهوذا، ولسنا أخيارًا، ماذا حدث للحم؟ كم من الوقت يجب أن يوضع اللحم على النار؟ اللحم سيذوب، دعنى أنظر إليه فحسب، أوه ، يا إلهى!، لا توجد نقطة ماء فى الإناء، أوه، لا يمكن أن تعتمد عليها! إنى أشمه يحترق، لقد جعلوا منى معلولة هؤلاء الطواغيت ، ولكن ما زالت لدىَّ حاسة الشم، أين عيناك؟ أنت تقرئين كثيرًا جدًا من الكتب الهزلية ، فليرأف الله بك!

ـ ٣ ـ

راحت "ماشا" تدخن وهى تأكل ، وتراوح بين اللقمة ونفثة السيجارة، وتذوقت قليلاً من كل طبق وجعلت تدفعه بعيدًا عنها، على أنها ظلت تمرر الطعام إلى "هرمان" وتحثه على الأكل قائلة : تخيل أنك فى مخزن التبن فى ليبسك، وفَلاَّحتك تقدم إليك قطعة من لحم الخنزير، كيف نعرف ما سيحمله الغد لنا؟ قد يحدث من جديد ما حدث لنا من قبل، إذْ إن ذبح اليهود جزء من الطبيعة، ولا بد من ذبحهم، فهذا ما يريده الإله.

بنيتى إنك تقطعين قلبى.

إنها الحقيقة، كان أبى يقول دومًا إن كل شىء يأتى من الإله، وأنت تقولين ذلك يا أمى، إذا كان الإله قد أباح أن يُقتَل يهود أوربا، فما الذى يجعلنا نظنه سيحول دون إبادة يهود أمريكا؟ إن الإله لا يهتم، ذلك شأنه، صح يا هرمان؟

من يدرى؟

لديك الجواب نفسه على كل شيء: من يدرى؟ يجب أن يدرى شخص ما! إذا كان الإله قادرًا على كل شيء وسلطته مطلقة، فينبغى له أن يدافع عن شعبه المختار، أما إذا جلس فى السماء وبقى ساكنًا، فهذا معناه وجوب إقلاقه مثلما أُقلِق فى صقيع العام الماضى.

بُنيتى، هل ستتركين هرمان فى أمان أم لا؟ أولاً أنت أحرقت اللحم، ثم تزعجينه بالأسئلة وهو يحاول أن يأكل.

فقال "هرمان":

لا يهم، ليتنى أعرف الجواب، من المحتمل أن تكون هذه المعاناة صفًا للإلة، إذا وافق الشخص على أن كل شيء هو الإله ـ فنحن، إذن ، الإله أيضًا، وإذا ضربتك فهذا معناه أن الإله ضُرِب.

لماذا يُضرب الإله نفسه؟ كُل ولا تبق شيئًا من الطعام فى طبقك، أهذه فلسفتك؟ إذا كان اليهودى إلهًا والنازى إلهًا، فلا يوجد ـ إذن ـ ما تتكلم بشأنه، صنعت أمى كعكة كَوْشَن ، سأحضر لك قطعة منها.

يجب أن يأكل الكومبوت أولاً.

ما الفرق فيما يأكله أولاً، سيختلط كله فى المعدة على أي حال، أنت ديكتاتورة يا أمى، هذه حالك، طيب، أحضرى له الكومبوت.

أرجوكما لا تتعاركا بسببى، لا أهمية لما آكله أولاً، إذا لم تكونا قادرتين على العيش معًا فى سلام، فكيف يكون هنالك سلام؟ سيقتل الأخيران من الناس على الأرض أحدهما الآخر.

فقالت "ماشا" متسائلة:

هل تشك فى ذلك؟ أنا لا أشك، لسوف يقف أحدهما فى مواجهة الآخر بقنابل ذرية ويموت جوعًا لأنه لن يعطيه فرصة لكى يأكل، وإذا هم أحدهما بالأكل ألقى الآخر عليه القنبلة، كان أبى يأخذنى دومًا إلى أفلام السينما، وكانت أمى تكرهها.

وأضافت وهى تومئ برأسها ناحية أمها:

ولكن أبى كان شغوفًا بها، وتعود أن يقول إنه ينسى كل متاعبه، حين يحضرها ، أنا لم أعد أهتم بها الآن، وإن أحببتها حينذاك مثله، تعودت أن أجلس معه، وكان يتركنى أمسك عصاه، وحين ترك وارسو أشار إليها فى ذلك اليوم حين عبر كل الرجال جسر براغ، وقال: ما دمت أملك هذه ، فأنا لست ضائعًا، لماذا أذكر هذا الآن؟ أوه، نعم! فى أحد الأفلام أظهروا ذكرين من الظباء يتصارعان على أنثى، وقد التحمت قرونهما وراحا يتخبطان ويتلونان إلى أن سقط أحدهما ميتًا، وكان الباقى بقيد الحياة نصف ميت، ووقفت الأنثى طول الوقت بأكمله تلوك العشب وكأن الأمر لايتعلق بها ألبتة، وكنت أنا فتاة فى السنة الثانية بالمدرسة الثانوية، وقلت لنفسى حينذاك إنه أمل هناك إذا كان الإله قد غرس هذا العنف الشديد فى الحيوانات البريئة، وكثيرًا ما فكرتُ فى هذا الفيلم وأنا فى المعسكرات، وهو ما جعلنى أكره الإله.

بُنيتى، يجب ألا تتكلمى بهذه الطريقة.

إنى أفعل أشياء كثيرة يجب علىَّ ألا أفعَلها، أحضرى الكومبوت. ومضت "شيفرابؤه" إلى الموقد وهى تقول:

كيف نستطيع أن نفهم الإله؟

فقال " هرمان " لـ "ماشا" بهدوء:

في الحقيقة يجب ألا تتجادلى معها كثيرًا هكذا، ماذا تحققين من وراء ذلك؟ لو كانت أمى بقيد الحياة الآن ما رددت عليها.

أتعلمنى كيف أتصرف؟ علىَّ أن أعيش معها لا أنت، أنت تمكث مع فلاحتك خمسة ايام فى الأسبوع، وعندما تأتى إلى هنا أخيرًا، تأخذ فى وعظى، إنها تغيظنى بتقواها وتعصبها، لماذا تثير كل هذه الجلبة التى لا داعى لها من أجل صابونة غير جاهزة فور أن تريدها، إذا أردت رأيى فهى أكثر إخلاصًا للأمور المادية من الملحد، أولاً، لأنها حثتنى على أن أتزوج من ليون تورتشينر، فقد تعود أن يُخضر لها كعكًا صغيرًا، وفيما بعد أخذت تبحث عن نقائصه، وما الفرق عندى إن كان من تزوجته كذلك أم لا؟ وعلى أي حال فلسوف أنهى علاقتى به، ما أهمية ذلك؟ ولكن خبرنى كيف حال فلأحتك الصغيرة ، هل أخبرتها من جديد أنك مسافر فى رحلة لبيع الكتب.

وماذا أيضًا؟

وأين أنت اليوم؟

فى فيلادلفيا.

ماذا يحدث لو اكتشفت أمرنا؟

لن تكتشف ذلك أبدًا.

ثمة احتمال دائماً.

فلتتأكدى أنها لن تفرق بيننا أبدًا.

لست متأكدة تمامًا، إذا كنت تقضى وقتًا طويلاً هكذا مع إوزة أُمِّيَّة، فأنت بالتاكيد، إذن، لا تحتاج إلى شىء أفضل، وما معنى أن تؤدى عملاً قذرًا لحاخام نصاب، على الأقل كن أنت حاخامًا وانصب باسمك.

لا أستطيع أن أصنع هذا.

أنت ما زلت مختبئًا فى مخزنك، مخزن التبن، هذه هى الحقيقة.

نعم، إنها الحقيقة، ثمة جنود يمكنهم أن يسقطوا قنبلة على المدينة، ويقتلوا ألفًا من الناس، ولكن لا تطاوعهم أنفسهم على قتل دجاجة، وما دمت لا أرى القارئ الذى أخدعه، وهو لا يرانى، فإن بوسعى أن أحتمل الأمر، فضلاً عن أن ما أكتبه للحاخام لا يسبب ضررًا، بل على العكس.

هل معنى ذلك أنك لست غشاشًا.

أنا غشاش ، ولنتوقف عن الكلام فى هذا الموضوع.

وعادت "شيفرابؤه" : ها هو الكومبوت، انتظر دعه يبرد، ماذا قلت عنى يا ابنتى؟ ماذا قالت؟ أنت تظن أنى أسوأ عدو لها من الطريقة التى تتكلم بها.

أماه، أنت تعرفين المثل القائل: "اللهم احمنى من أصدقائى، أما أعدائى فأنا كفيل بهم".

لقد رأيت كيف تحمين نفسك منهم، طيب، بما أنى ما زلت حية بعد ذبح عائلتى وشعبى، فأنت على حق، أنت وحدك يا ماشا المسئولة سأظل هادئة الآن إذا كان ذلك من أجلك.

ـ ٤ ـ

بعد طعام العشاء ذهب "هرمان" إلى غرفته. كانت غرفة صغيرة جدًا بها نافذة واحدة تطل على فناء صغير، وتحت كان يوجد عشب نام وشجرة معقوفة ، وكان الفراش مجعدًا ومثنيًا، واستقرت الكتب ومخطوطات اليد وقصاصات الورق المغطاة بخرابيش "هرمان" مبعثرة هنا وهناك ، وكما كانت "ماشا" تمسك دومًا سيجارة بين أصابعها كان "هرمان" يمسك قلم حبر أو رصاص أيضًا، بل كان يكتب ويدون الملاحظات فى مخزن الحبوب فى لسبك، وكان يفعل ذلك كلما وجد ما يكفى من الضوء القادم من الصدوع فى السقف، كذلك مارس فن الخط المنمق، ورسم صورًا لمخلوقات غريبة بآذان بارزة ومناقير طويلة وعيون مستديرة وأحاطها بأبواق وقرون وأفاعٍ، بل دون أيضًا على ورق علته الصفرة للحاخام "راشى" ، وهو مجموعة من الحكايات الأسطورية والتجليات القَبالية والاكتشافات العلمية، وكان يستيقظ أحياناً ولديه تقبض فى رسغه من كثرة الكتابة الزائدة عن الحد وكانت غرفة "هرمان" تحت السقف، وكانت حارة فى الصيف دومًا فيما عدا الصباح الباكر قبل شروق الشمس، وكان السخام الثقيل يَنّفُذ من خلال النافذة المفتوحة ومع أن "ماشا " كانت تُغّير الملاءات وأكياس المخدات باستمرار، فقد كانت تبدو مكسوة بالسخام دومًا، وكان ثمة حفر فى الأرضية، ويسمع "هرمان" خمش الفئران من أسفل، ونصبت "ماشا" مصيدة عدة مرات على أن صوت المخلوقات المحبوسة فى المصيدة وهى تتعذب كان يفوق احتماله ، وود لو نهض فى منتصف الليل وأطلق سراحها، وكان يتمدد على الفراش فور أن يدخل الغرفة؛ إِذْ يجهد الوجع جسمه، فقد كان يعانى من الروماتيزم وعِرق النّسا ، ويظن أحيانًا أنه يتجول

بورم فَقَارى، ولم يكن لديه الصبر للذهاب إلى الأطباء أو الثقة بهم، وأورثته سنوات الهتلرية وَهَنًا لم يتخلص منه أبدًا فيما عدا مجامعته لـ "ماشا" ، وكانت معدته توجعه بعد الأكل وتسد أذنه كل مسودة صغيرة يحظها، ويلتهب حلقه ويبح صوته فى أحيان كثيرة ، وكان ثمة شىء ما فى أذنه يؤلمه: خراج، ورم ؟ وذات مساء والسماء لا تزال منيرة تألقت نجمة وحيدة، زرقاء وخضراء، قريبة وبعيدة، وحيّره تألقها وجوهرها ، ومن عليائها أوصلت خطًا مستقيمًا إلى عينى "هرمان" وتلألأ هذا الجسم السماوى (إن كان جسمًا) ، وطفق يسخر من الضآلة الروحية والمادية لكائن يمتلك موهبة المعاناة فحسب، وانفتح الباب، ودخلت "ماشا" ، وبدا وجهها فسيفساءً من الظلال ، وبدت عيناها تولدان ضوءهما الخاص، وهى تضع سيجارة بين شفتيها، وقد حذرها "هرمان" مرارًا أنها سوف تشعل حريقًا بسجائرها يومًا ما، فترد دومًا: "عاجلاً أو آجلاً سأشغله " ووقفت آنذاك قُرب الباب، وهى تنفث دخان سيجارتها، وجعل وهج السيجارة وجهها يبدو ناريًا وخياليًا للحظة، ثم رفعت كتاباً ومجلة من على كرسى، وجلست قائلة: "يا إلهى الجو حار كالجحيم هنا"، وما كانت "ماشا" لتخلع ملابسها وأمها صاحية رغم حرارة الجو، ومن أجل الحفاظ على المظهر وضعت كُسْوَة للأريكة فى غرفة الجلوس، ومع أن "مايريلوخ" والد "ماشا" كان يعتبر نفسه مُلحدًا ، فقد ظلت " شيفرابؤه" ورعة ومحافظة على المطبخ الشرعى على نحو دقيق، بل إنها كانت أيضًا تضع باروكة فى أيام الأعياد الكبيرة المقدسة حين تذهب للصلاة، وتصر فى يوم السبت على أن يؤدى "مايريلوخ " الطقوس المقدسة وأن ينشد تراتيل هذا اليوم ، وإن كان يغلق الباب على نفسه فى مكتبه بعد تناول الوجبة

ويكتب الشعر بالعبرية، وقد زعزع تقاليد الأم والابنة كلتيهما الحى اليهودى (الجيتو) ومعسكرات الاعتقال ومعسكرات المُهَجَّرين، إذْ كان الأزواج يتجامعون علانية فى المعسكرات الألمانية، حيث عاشتا معًا بعد الحرب، وعندما تزوجت "ماشا" من "ليون تورتشينر" كانت "شيفرابؤه" تنام معهما فى غرفة واحدة، وكانت تقول إن الروح كالجسد يمكن أن تتلقى ضربات عديدة، ثم تتوقف عن الإحساس بالألم، وفى أمريكا اشتد تقاها ، فكانت تصلى ثلاث مرات فى اليوم، وكثيرًا ما تجولت وعلى رأسها قطعة قماش تغطى شعرها، وفرضت على نفسها قيودًا لم تكن تلتزم بها فى وارسو، واستمرت تحيا فى حزن مع أولئك الذين قضوا نحبهم بالغاز أو عُذبوا، وأضاءت كئوسًا مملوءة بزيت البارافين ـ شموعًا تذكُارية للأصدقاء والأقارب ، ولم تكن تقرأ فى الصحف اليدية سوى حكايات عن أولئك الذين بقوا بقيد الحياة فى الأحياء اليهودية ومعسكرات الاعتقال، وكانت توفر نقودًا من ميزانية الطعام لتشترى كُتبًا عن ماجدانك وتريبيلنكا وأوشفَتز، وقد تعود اللاجئون الآخرون أن يقولوا إن المرء مع مرور الوقت ينسى، على أن "شيفرابؤه" أو "ماشا" ما كانتا لتنسيا أبدًا، بل العكس، فكلما بَعُد العهد بهما عن المذبحة استشعرتا قرب وقوعهما أكثر، ومع أن "ماشا" كانت تهاجم أمها لما تبديه كثيرًا من حزن على الضحايا الميتين ، فقد كانت تتولى هذا حينما تلتزم أمها الصمت وتجرى إلى الميزوزا(*) المعلقة على عضد الباب، وتبصق عليها حين تتكلم عن فظائع الألمان، فتقرص "

(*) الميزوزا: قطعة من جلد حيوان نظيف طبقًا للتعاليم الدينية اليهودية، مدون عليها آيات من سفر التثنية وعلى الوجه الآخر "شدّاى" ـ من أسماء الله عند اليهود، يضعها اليهودى فى حرز ويعلقها على عضد باب منزله.

شيفرابؤه" خديها قائلة: "تبصقين يا بنتى، تجدفين بحق الإله! إن لدينا كارثة واحدة هنا، ولسوف يكون لدينا كارثة أخرى هناك".

وتشير "شيفرا" إلى السماء.

وكان انفصال "ماشا" عن " ليون تورتشينر" ، واستمرارها فى علاقة غرامية مع "هرمان برودر" زوج المرأة غير اليهودية، كان معناه لدى "شيفرابؤه " مواصلة الفظائع التى بدأت عام ١٩٣٩ التى خُيِّل إليها أنها لن تتوقف، ومع ذلك فقد كانت تحس فى نفسها قربًا إلى "هرمان" وتدعوه ابنها إذْ تأثرت بمعرفته بالديانة اليهودية، وكانت تضرع إلى الله فى صلواتها كل يوم أن يجعل " ليون تورتشينر" يوافق على الطلاق من "ماشا"، وأن ينفصل "هرمان" عن زوجته غير اليهودية، وأن يمد فى عمرها لكى تنعم بفرحة اصطحاب ابنتها إلى ظُلة الزفاف، ولكن يظهر أن هذه الإثابات لم تكن من نصيبها، ولامت نفسها ، فقد تمردت على والديها، وعاملت "ماير" بطريقة سيئة، وأولت "ماشا" وهى تنمو قليلاً من رعايتها وهى تكبر، عندما كان من المستطاع أن تغرس فيها الخشية من الله، وأكبر خطيئة ارتكبتها أن بقيت حية حينما استشهد أبرياء كثيرون من الرجال والنسوة، وكانت "شيفرابؤه" فى المطبخ تغسل الأطباق وتغمغم لنفسها، وكأنها تجادل شخصًا غير مرئى ، وأطفأت النور، ثم أضاءته من جديد، وتلت الدعاء الذى يُقال قبل أن تخلد إلى الفراش، وتناولت حبة مُنومة، وملأت زجاجة بماء ساخن، وكانت تعانى من القلب والكبد والكُلية ومن مرض خفيف فى الصدر، وتعتريها غيبوبة كل بضعة شهور ، ويقطع الأطباء الأمل فى شفائها، بيد أنها كانت تتعافى تدريجيًا فى كل مرة وكانت "ماشا" تنصت إلى

كل حركة تصدر من أمها، وفى حالة تأهب دائمًا لتقديم العون لها، وكانت الأم والابنة إحداهما الأخرى، وإن علقت به ضغائن أو شكايات لا تحصى، شكايات ترجع إلى الوقت الذى كان فيه "مايرلوخ" لا يزال حيًا، إذْ انغمس على نحو مشكوك فى صحته فى علاقة غرامية أفلاطونية بشاعرة عبرية كانت معلمة لـ "ماشا"، فقد قالت الأخيرة لأمها بمزاح إن هذه العلاقة بدأت بمناقشة قاعدة نحو عبرى، ولم تذهب إلى أبعد من ذلك ألبتة، ولكن "شيفرابؤه" لم تغتفر لـ "ماير" هذه الهفوة من عدم الإخلاص أبدًا .

كانت غرفة "شيفرابؤه" مظلمة حينذاك، و "ماشا" لا تزال جالسة على الكرسى فى غرفة "هرمان" وهى تدخن السيجارة تلو السيجارة، وكان "هرمان" يدرك أنها تعد قصة حب غير عادية لمسرحية حبهما، إذْ شبهت نفسها بـ "شهرزاد" ، وكان التقبيل والتدليل ومطارحة الحب المشبوب مصحوبًا دومًا بحكايات عن الأخبار اليهودية الفقيرة والمعسكرات، وعن تنقل "ماشا" عبر خرائب بولندا، حيث طاردها الرحال خلالها كلها، وفى الملاجئ الواقية من الغارات، وفى الغابة، وفى المستشفى الذى عملت بها كممرضة، وكانت "ماشا" تحتفظ بعدد كبير من المغامرات، والتى يبدو أحيانًا أنها لا بد تلفقها، ولكن "هرمان" كان يدرك أنها غير كاذبة وأن معظم تجاربها المعقدة قد جاءت بعد التحرير، وأن المغزى الكامن وراء حكاياتها كلها أنه إذا كان الغرض من اضطهاد هتلر أن يُحسِّن حال شعبه المختار؛ فقد أخفق، لأن الأخير استأصل اليهود المتدينين تقريبًا، ولم يتعلم اليهود الذين أفلحوا فى الهروب شيئًا من كل الرعب فيما عدا استثناءات قليلة، وكانت "ماشا" تتباهى فى الوقت نفسه، وكان "هرمان" يحذرها من التدخين فى الفراش، بيد أنها

كانت تقبله، وتنفث حلقات الدخان فى وجهه، ويستقر شرر من سيجارتها على الملاءة، وتمضغ اللبان، وتلوك الشيكولاتة بصوت مسموع ، وتشرب الكوكاكولا ، وتحضر الطعام لـ "هرمان" من المطبخ ولم تكن مطارحة الهوى بينهما مسألة رجل وامرأة يتخالطان جسديًا فقط، بل طقسًا يستمر حتى بزوغ الفجر فى كثير من الأحيان، وهو ما ذكَّر "هرمان" بالقدماء الذين كانوا يحكون معجزة الخروج من مصر حتى بزوغ نجمة الصباح، وكان كثير من الأبطال والبطلات الذين يعمرون مآسى "ماشا" يُقتَلون ويموتون فى الأوبئة أو يسقطون فى شِراك بالاتحاد السوفيتى، ويستقر آخرون فى كندا وإسرائيل ونيويورك ، وقد ذهبت "ماشا" مرة إلى مخبز لتشترى كعكة ، فتبين لها أن الخباز زعيم عصابة إجرامية سابق، وكذلك تعرف إليها لاجئون فى الكافيتيريا بشارع ترمونت، حيث تعمل أمينة صندوق، وصار البعض أثرياء فى أمريكا، إذْ فتحوا مصانع وفنادق وأسواقًا فائقة (سوبر ماركتات) واتخذ الأرامل من الرجال زوجات جديدات، كما اتخذت الأرامل من النساء أيضًا أزواجاً جُددًا، أما النساء اللائى فقدن أطفالهن وكن لا يزلن صغيرات فى السن فقد أنجبن أطفالاً آخَرين من الزيجات الجديدة وأما الرجال الذين كانوا يعملون مُهربين فى ألمانيا النازية ويتعاملون فى بضائع السوق السوداء فقد تزوجوا فتيات ألمانيات وتزوجوا أحياناً بنات وأخوات النازيين، ولم يندم أحد على خطاياه، لا المعتدى ولا الضحية، ولنأخذ "ليون تورتشينر" مثلاً ، ولم تتعب "ماشا" من الكلام عنه أو عن حيله وألاعيبه، فقد كان كل شىء فى آن معًا كان كاذبًا على نحو مرضى، وسكيرًا ومتبجحًا، ومهووسًا جنسيًا، ومقامرًا يرهن القميص الذى يستتر به، ودعا عشيقته إلى مأدبة

الزفاف التى دفعت "ماشا" وأمها آخر ما معهما من نقد ألمانى، وكان يصبغ شعره ، وينتحل لقب دكتور لا حق له فيه، وقد أُتهم بالانتحال، وكان ينتمى فى وقت واحد إلى الحزب الصهيونى المُعدل والحزب الشيوعى معًا، ومع أن قاضى نيويورك الذى منح "ماشا" انفصالاً قانونيًا قرر لها نفقة شرعية قدرها خمسة وعشرين دولارًا، فلم يدفع "ليون ثورتشينر" سنتًا واحدًا، بل العكس، فقد استخدم كل حيله لانتزاع النقود منها، واستمر يكالمها تليفونيًا ويكتب لها الرسائل ويتوسل إليها أن تعود، ووعد "هرمان" "ماشا" أكثر من مرة ألا يسهرا إلى وقت متأخر، لأن كلاً منهما يحتاج إلى النهوض فى الصباح لكى يذهب إلى عمله، ولكن "ماشا" لم تكن تنام بسهولة، وكانت تغفو ثم تصحو بعد بضع دقائق منتعشة، رغم أن أحلامهما تزعجها، فهى أحيانًا تصيح فى نومها بالألمانية والروسية والبولندية ويظهر لها الموتى أنفسهم ، وتستعمل "ماشا" المشعل الكهربى، وتُرى "هرمان" الآثار الباقية التى خلفها الموتى على ذراعيها وثدييها وفخذيها، وقد ظهر لها والدها فى حلم وقرأ لها أبيات شعر كتبها فى العالم الآخر، وتلت لـ "هرمان" مقطعًا شعريًا علق بذهنها، ورغم أن "ماشا" كانت لها علاقاتها الغرامية فى الماضى ، فلم تغتفر لـ"هرمان" علاقاته السابقة بالنساء حتى اللائى توفين، هل أحب تامارا أم أولاده؟ وهل كان جسمها أكثر جاذبية من جسم ماشا؟ وعلى أى نحو؟ طيب، وماذا عن طالبة اللغات الرومانسية، الفتاة ذات الضفائر الطويلة؟ ويادفيجا؟ وهل هى باردة حقًا، كما يقول عنها؟ وماذا لو ماتت يادفيجا فجأة، إذا قررت الانتحار؟ وإذا قُدِّر لـ"ماشا" أن تموت، فإلى متى يظل يذكرها؟ وكم من الوقت سينتظر قبل أن يجد واحدة أخرى؟ وليته يخلص لها ولو مرة واحدة فقط!

Twitter: @alqareah

فسألها "هرمان": وكم تنتظرين أنت؟

لن أتخذ واحدًا آخر مرة أخرى أبدًا.

هل هذه هى الحقيقة؟

أجل، أيها الشيطان، إنها حقيقة مقدسة .

وقبلته بعاطفة ملتهبة طويلاً ، وساد السكون فى الغرفة إلى حد سماع خمش الفأر تحت أرضية الغرفة.

كانت "ماشا" تمتلك ليونة لاعبة أكروبات، وكانت تثير فيه رغبات وقوى لم يكن يعلم أنها لديه، وكان بوسعها أن توقف النزف مؤقتاً فى أثناء دورتها الشهرية، ورغم أن "ماشا" و"هرمان" لم يكونا منحرفين، فقد كان أحدهما يكلم الآخر بلا انقطاع عن السلوك الجنسى الشاذ والانحرافات، هل تستمتع بتعذيب قاتل نازى؟ هل تقيم علاقة مع نساء إذا لم يبق رجال على الأرض؟ هل يمكن أن يتحول هرمان إلى لوطّى؟ هل يمكن أن يتصل جنسيًا بحيوان إذا هلك كل الآدميين؟ ومنذ أن بدأ "هرمان" علاقته بـ "ماشا" بدأ يدرك فقط لماذا سبب الأهمية البالغة للاتحاد أو الاتصال بين الذكر والأنثى فى القبالة(*)، وفى اللحظات التى يتخيل فيها "هرمان" فلسفة أو ديانة جديدة فإنه يقيم كل شىء فيها على انجذاب أحد الجنسين نحو الآخر، ففى البدء كانت الرغبة و...........

ـ ٥ ـ

اليوم لدى "ماشا" ساعات صباح فى الكافيتيريا، وقد نام

(*) القَبالة: علم التصوف اليهودى، ويحدد خطوط فلسفتها الرئيسية كتاب "الزوهار"، وقد اكتسبت طابعًا عمليًا على يد "يتسحاق لوريا" فى القرن السادس عشر.

"هـرمـان" مـتـأخـرًا وكـانـت الـسـاعـة الـحـاديـة عـشـرة إلا الـربـع حـيـنـمـا استيقظ ، والشمس مشـرقـة، وجـاءه من خـلال الـنـافـذة المفتوحة صوت الطيور وقعقعة عربة تسليم بضاعـة، وفى الغرفة الأخرى كانت "شيفرابؤه" تقرأ الصحيفة الييدية وتطلق من حين لآخر تنهدة عميقة لمحن اليهود وقسوة البشر عمومًا، ودخل "هـرمـان" الحمام وحلق واستحم، وكانت ملابسه فى شقة جزيرة كُونِى ، أما هنا فى برونكس فيحتفظ ببعض القمصان والمناديل والملابس الداخلية، وقـد غسلت لـه "شيفرابؤه" قميصًا وكوته، إذْ كانت تتصرف إزاءه كحماة، وبدأت تعد له عجة البيض "الأومْلَت" قبل أن يلبس، وقد اشترت لـه خصيصًا فراولة، وكان "هـرمـان" يحس أنه ملتزم بالإنفاق ويرتبك فى الوقت نفسه عندما يتناول طعام الإفطار مع "شيفرابؤه" إذْ كانت تصر على أن يغسل يديه من الإبريق طبقًا للشعيرة الأرثوذكسية، أما الآن وليست "ماشا" فى المنزل فقد أعطته قبعته ليلبسها وهو يتلو الدعاء عند غسل اليدين، ويتلو دعاء البركة فيما بعد، وجلست هى قبالته إلى المائدة تومئ برأسها وتغمغم ، أدرك "هرمان" ما تفكر فيه: فى المعسكرات، حيث لايسمح للمرء بأكثر من تخيل وليمة كهذه، وقد يخاطر الإنسان بحياته من أجل قطعة خبز أو ثمرة بطاطس، وتنـاولـت "شيفرابؤه" شـريحة خبـز وكأنـهـا تلمس شيئًا مقدسًا، وقضمتها بحرص، وأطل الإحساس بالذنب من عينيها السوداوين، أتسمح لنفسها بالاستمتاع بهبة الله السخية فى حين يموت كثير جدًا من أتقياء اليهود؟، وقد أكدت فى أحيان كثيرة أن الله قد أذن لها بالبقاء حية بسبب ذنوبها، أما اليهود الأتقياء ذوو الأرواح المباركة فقد اختارهم الله إلى جواره، وقالت لـ "هـرمـان" كُلْ كُلَّ شىء يا هـرمـان ، فـإنه محرم ترك أى شىء.

شكرًا، الأوملت كان ممتازًا.

كيف يكون رديئًا؟، البيض طازج والزبدة طازجة ، إن أمريكا (أطال الله ازدهارها) مليئة بالأشياء الطيبة ، أتمنى ألا نفقدها بسبب المعاصى، انتظر سأحضرلك القهوة.

وفى المطبخ كسرت "شيفرابؤه" قدحًا وهى تصب القهوة ، وكان كسر الأطباق إحدى نقاط الضعف عندها ، وكثيرًا ما وبختها "ماشا" بسبب ذلك وكانت "شيفرابؤه " تخجل من ضعفها ، ولم تكن حاسة النظر لديها كما يجب، وأكدت لـ "هرمان" أنها لم تكن تكسر شيئًا البتة فى الماضى، ولكنها خرجت من المعسكرات حزمة أعصاب، ويعلم الله وحده كم عانت، وكم عذبتها الكوابيس، وهل يمكن لواحدة أن تبقى حية وتتذكر ما تتذكره هى؟ لقد رأت - بأم عينيها فى هذه اللحظة بالذات وهى تقف بجانب الموقد - فتاة يهودية صغيرة منزوعة الثياب تتمايل على كتلة خشب تعلو حفرة غائط، وحولها من كل جانب وقف جماعات من الألمان والأوكرانيين والليتوانيين شبه سكارى وهم يتراهنون على مدة بقائها هنالك، وينهالون عليها وعلى اليهود بالشتائم، ويراقبون هذه الحسناء ذات الثمانية عشر ربيعًا، ابنة الحاخامات واليهود المحترمين إلى أن زلت قدماها وسقطت فى الحفرة. لقد ذكرت "شيفرابؤه" مائة حادثة كهذه لـ "هرمان" من قبل، ولعل تذكر مثلها هو ما تسبب فى إسقاط القدح، وذهب "هرمان" لمساعدتها فى جمع القطع المكسورة، على أنها لم تدعه، فقد يجرح - لا سمح الله - أصابعه، وجمعت هى شظايا القدح بالفرشاة وجاروف الكناسة، ثم حملت إليه قهوته، وكثيراً ما استشعر أن كل ما تلمسه يصبح مقدسًا، واحتسى قهوته

وأكل قطعة من الكعكة التى صنعتها له خصيصًا (قد فرض الطبيب عليها حِمية صارمة) ، وغرق فى أفكار قديمة ومألوفة لم يعد يعبر عنها بالكلام، ولم يكن "هرمان" مضطرًا إلى الذهاب إلى المكتب، وكان عمل "ماشا" ينتهى وقت الظهر، فذهب إلى الكافيتيريا لملاقاتها، وكانت فى طريقها للحصول على أول إجازة لها ـ أسبوع واحد، وكانت متلهفة إلى الذهاب معه إلى مكان ما، ولكن إلى أين ؟ وسار فى شارع ترمونت متوجهًا إلى الكافيتيريا، ومر بالمتاجر التى تبيع الطُرف وملابس السيدات وأدوات الكتابة، وقد جلس البائعون والبائعات فى انتظار الزبائن كما هو الشأن فى تزيفكيف، ودفعت المتاجر السلسلية كثيرًا من المتاجر الصغيرة إلى الإفلاس، ولهذا عُلِقت هنا وهناك على الباب لافتة "للايجار" ، إذْ يوجد دائمًا شخص ما على استعداد أن يجرب حظه من جديد ودخل "هرمان" الكافيتيريا من خلال الباب الدوار، فرأى "ماشا" إبنة "مايربلوخ" و"شيفرابؤه" هناك وهى تتلقى الفواتير وتبتسم وتعد النقود وتبيع اللبان والسجائر فلمحته ، فابتسمت له، وطبقًا لساعة الكافيتيريا كان أمام "ماشا" ثلث الساعة للفراغ من عملها ، ولهذا جلس إلى منضدة وكان يفضل أن تكون لصق الحائط أو فى ركن بين حائطين لكيلا لايفاجئه أحد من خلفه، ورغم الوجبة الكبيرة التى تناولها منذ وقت قصير، فقد ابتاع قدح قهوة وأرزًا باللبن من على النُّضد، وبدا مستحيلاً له أن ينقص من وزنه كما لو أن نارًا بداخله تأتى على كل شىء، وراقب "ماشا" من مسافة ، ومع أن الشمس كانت ترسل ضوءها من خلال النوافذ فقد كانت المصابيح الكهربية مضاءة ، وكان الرجال الجالسون إلى المناضد المجاورة يقرءون الصحف اليدية بحرية دون أن يحتاجوا إلى التخفى من أحد، وكان

ذلك يبدو دومًا معجزة لـ"هرمان" وكأنه يسأل نفسه إلى متى يستمر هذا؟ وكان أحد الزبائن يقرأ صحيفة شيوعية وهو على الأرجح ساخط على أمريكا، ويأمل أن تقوم ثورة، وأن تملأ الجماهير الشوارع وتكسر واجهات المتاجر التى مر بها "هرمان" منذ قليل ، وتجر الباعة إلى السجن أو إلى معسكرات العمل الشاق ، وجلس "هرمان" بهدوء، وهو مشغول بتعقيدات وضعه، فقد بقى فى برونكس ثلاثة أيام ، وقد كلم "يادفيجا" تليفونيًا ، وأخبرها أنه مضطر إلى مواصلة طريقه من فيلادلفيا إلى بلتيمور، ووعدها أن يعود فى المساء ، وإن لم يتاكد أن "ماشا" ستسمح له بذلك ، فقد تحدثا بشأن الذهاب إلى فيلم معًا واستخدمت هى كل حيلة لإبقائه معها ، وصعَّبت عليه الأمور قد ما تستطيع ، فقد بلغت كراهيتها لـ" يادفيجا" حدًا غير معقول ، وكانت إذا وجدت بقعة على ملابسه أو زرًا مفقودًا فى معطفه تتهم "يادفيجا" بأنها غير مكترثة به أو تحيا معه فحسب لأنه يُنفق عليها ، إن "ماشا" أفضل دليل يعرفه "هرمان" من فرضيه" شوبنهور" القائلة بأن الذكاء لا يزيد على كونه خادمًا للإرادة العمياء(*)، وفرغت "ماشا" فى عملها على ماكينة تسجيل النقود، فأعطت النقود والفواتير لأمينة الصندوق التى حلت محلها فى العمل، وذهبت إلى منضدة "هرمان"، وهى تحمل غداءها على الصينية، ولم يبد عليها تعب رغم أنها نامت قليلاً جدًا فى الليلة الفائتة واستيقظت مبكرة ، وتدلت السيجارة المعتادة من بين شفتيها ، وقد تناولت عددًا وافرًا من أقداح القهوة حتى ذلك الوقت، وكانت تحب الطعام كثير التوابل: كرنب الكَرْوَت، والمخلل

(*) يرى الفيلسوف الألمانى "شوبنهور" (١٧٨٨ - ١٨٦٠) أن جوهر الوجود قوة عمياء، تظهر فى الأفراد على صورة إرادة الحياة .

المنكه والشبت والخردل (المُستردة)، وتضيف الملح والفلفل إلى كل شىء تأكله، وتحتسى القهوة السوداء بدون سكر، وتأخذ رشفة من القهوة، وتسحب نفسًا عميقًا من السيجارة وتترك ثلاثة أرباع الوجبة دون أن تأكلها، وتسال "هرمان":

طيب، كيف حال أمى؟

على ما يرام.

على ما يرام، علىّ أن أصحبها إلى الطبيب غدًا.

متى إجازتك؟

لست متأكدة بعد، هيا نخرج من هنا ! لقد وعدتنى أن تأخذنى إلى حديقة الحيوان.

وكان "هرمان" و "ماشا" كلاهما يتمشيان أميالاً، وتتوقف "ماشا" فى كثير من الأحيان أمام واجهات الدكاكين، وكانت تقلل من شأن الكماليات الأمريكية، وتهتم اهتمامًا بالغًا بالصفقات، إذْ تبيع المحلات التجارية التى على وشك أن تغلق أبوابها بضائعها بتخفيضات هائلة، بأقل من نصف السعر أحيانًا، فكانت تشترى ببنسات فضلات الأقمشة التى تصنع منها الملابس بنفسها ولأمها، وكانت تخيط أغطية السرير والستائر وأغطية الأثاث أيضًا، ولكن من ذا الذى يأتى لزيارتها؟ وإلى أين تذهب هى؟ لقد ابتعدت عن أصدقائها اللاجئين، أولاً: كى تتجنب ليون تورتشينر الذى ينتمى إلى عالمهم، وثانيًا: بسبب حياتها مع هرمان، وكان ثمة خطر دائمًا ان تلتقى شخصًا ما يعرفه فى جزيرة كونى، وتوقف "هرمان" و"ماشا" عند الحدائق النباتية للنظر إلى الزهور وأشجار النخيل

والصَّبار ونباتات لا تُحصى نامية فى جو الصوبات وخطرت ببال "هرمان" أن الشعب اليهودى ثمرة صوبة ـ فقد بقى فى بيئة أجنبية غريبة بقتات على الإيمان بعودةِ المسيح والأمل فى العدالة المقبلة ووعود التوراة، الكتاب الذى نوَّمهم مغناطيسيًا إلى الأبد، وبعد قليل واصل "هرمان" و "ماشا" السير إلى حديقة حيوان برونكس التى بلغتهما شهرتها حتى وارسو، حيث غفا دبان قطبيان فى ظل نتوء صخرى مُعلق بجانب بركة ماء، وهما يحلمان ولا ريب بالثلج وجبال الجليد، وكان كل حيوان وطائر ينقل شيئًا ما بلغته الخالية من الكلمات، حكاية متوارثة من عصور ما قبل التاريخ، وكلاهما يكشف أنماط الخلق المستمرة، وقد نام الأسد وهو يفتح عينيه الذهبيتين بتكاسل من وقت لآخر، عينيه اللتين كانتا تعبران عن كآبة أولئك الذين لا يُسمح لهم بالعيش أو الموت، أو يبُعدِ بذيله القوى الذباب، وراح الذئب يزرع المكان جيئة وذهابًا ويدور حول حَنَقه وهَوَجه، وتشمم النمر الأرض باحثًا عن بقعة يرقد فيها، ووقف جملان ثابتين فخورين، أميران شرقيان، وكثيرًا ما شبه "هرمان" حديقة الحيوان بمعسكرات اعتقال، وكان الجو مفعمًا بالشوق إلى الصحارى والتلال والوديان والأوكار والعُرن والعائلات، وكانت الحيوانات مثل اليهود هنا مجرورة من كل أنحاء العالم ومحكومًا عليها بالعزل والملل، ويصرخ بعضها بما يلقاه من كرب وبلاء ، ويبقى البعض الآخر أخرس، وتطالب الببغاوات بحقوقها بصراخ أجش وتلفت يمنة ويسرة طائر ذو منقار يشبه الموزة، وكأنه يبحث عن المتهم الذى دبر له هذا المقلب، مصادفة؟ داروينية؟ كلا، فإن ثمة خطة، أو على الأقل لعبة تمارسها قوى واعية، وتذكر "هرمان" كلام "ماشا" عن النازيين فى السماء، ألا يحتمل أن "هتلر" يترأس

اجتماعًا فى السماء، ويفرض المعاناة على الأرواح المحبوسة ، لقد زود الإله الحيوانات باللحم والدم والأسنان والمخالب والقرون والغضب وعليها أن ترتكب الشر وإلا هلكت ، وألقت "ماشا" سيجارتها بعيدًا، وقالت:

- ما الذى تفكر فيه؟ أيهما جاء أولاً، الدجاجة أم البيضة ؟ تعال نشترى جيلاتى.

■■■

الفصل الثالث

ـ ١ ـ

قضى "هرمان" يومين مع "يادفيجا"، وقد حرص على أن يخبرها سلفًا عن اضطراره إلى القيام برحلة إلى شيكاغو البعيدة، إذ اعتزم السفر مع "ماشا" ليشاركها قضاء عطلتها الأسبوعية، ولكى يعوض "يادفيجا" عن ذلك مُقدمًا أخذها إلى نزهة يوم واحد، فسارا معًا إلى الممشى الخشبى على الشاطئ بعد الإفطار مباشرة، ودفع ثمن ركوبهما دُوَّامة الحيوانات، وصرخت "يادفيجا" تقريبًا عندما أجلسها "هرمان" على أسد، امتطى هو نمرًا، وأمسكت بيد عُفرة الأسد وباليد الأخرى قرطاس الجيلاتى، وركبا بعد ذلك العجلة العجيبة والعربة الصغيرة التى اندفعت بهما جيئة وذهابًا، ومالت هى عليه بشدة ضاحكة فى الخوف والبهجة، وبعد أن تناولا وجبة الغداء من فطائر الكَنبش المحشوة بالدَّرْم(*) والقهوة تمشيًا إلى خليج شَبْسَهْد، حيث ركبا قاربًا إلى بريزى بوينت، وخشيت

(*) الدَّرْم: معى بقرى محشو بالدقيق والبصل وبعض التوابل .

"يادفيجا" دُوار البحر، بيد أن الماء ظل ساكنًا والأمواج ـ وهى خليط من اللونين الأخضر والذهبى ـ تتحرك بالكاد، شعَّث النسيم شعر "يادفيجا" فعصبته بمنديل، وكانت الموسيقى تعزف عند الرصيف الممتد فى البحر، حيث توقف القارب، واحتست "يادفيجا" ليمونادة وفى المساء بعد العشاء صحبها "هرمان" إلى فيلم موسيقى ملآن بالرقص والغناء والنسوة الجميلات والقصور الفخمة، وكان يترجم لها لكى تعرف ما يحدث، فأدْنَت نفسها منه، وأمسكت يده، وأخذت ترفعها إلى شفتيها من وقت إلى آخر، وتهمس له: "أنا سعيدة .. محظوظة جدًا، لقد أرسلك الله إلىَّ " وفى تلك الليلة وبعد ساعات قليلة من النوم صحت "يادفيجا"، وهى ممتلئة بالرغبة، ورجته مثلما فعلت مرات كثيرة من قبل أن يمنحها طفلاً، وأن يرتب لاعتناقها الديانة اليهودية، فوعدها بكل ما طلبته، وفى الصباح كلمت "ماشا" "هرمان" بالتليفون لتقول له إن عطلتها قد أُجِلت أيامًا قليلة؛ لأن أمينة الصندوق التى كانت ستحل محلها مريضة؛ فأخبر "هرمان" "يادفيجا" أن رحلة شيكاغو التى كان يأمل أن يبيع فيها قدرًا كبيرًا من الكتب قد أرجئت، وأنه ذاهب إلى ترنتون القريبة بدلاً من ذلك، وتوقف قليلاً عند مكتب الحاخام فى الشارع الثالث والعشرين، ثم استقل القطار النفقى إلى منزل "ماشا"، وكان عليه أن يقنع بما لديه، بيد أن توجسه كارثة بقى يعذبه، ترى ماذا تكون؟ هل سيمرض؟ هل ستحل بماشا أو يادفيجا ـ لا سمح الله ـ مصيبة ما؟ هل سيُقبض عليه أم سيُرحل لإخفاقه فى دفع الضرائب؟ الحقيقة أنه ربما لم يكسب ما فيه الكفاية، ولكن ما زال عليه أن يمل أنموذج الضريبة ومن المحتمل أن يكون مدينًا للحكومة الفيدرالية أو حكومة الولاية ببضعة دولارات، وكان "هرمان" يعلم أن بعض أبناء بلده من

تزيفكيف يعرفون أنه فى أمريكا، ويبذلون جهودًا للاتصال به، ولكنه يؤثر الابتعاد عنهم، فكل اتصال إنسانى خطر محتمل له، بل إنه يعرف أن له أقارب بعيدين فى مكان ما فى أمريكا، على أنه لم يسأل، ولم يُرد أن يعرف على وجه التحديد، وقضى ذلك المساء مع "ماشا" وتشاجرا وتصالحا وتشاجرا من جديد، وكان حديثهما كالعادة زاخرًا بعهود لن يحافظا عليها وبأوهام مسرات لن تتحقق وبأسئلة تحفز إلى الإثارة المتبادلة، وتساءلت "ماشا" عما إذا كانت ستسمح له أن ينام مع أختها إن كان لها أخت؟ وعما إذا كان ليسمح لها أن تنام مع أخيه إن كان له أخ؟ وماذا كان لتصنع لو أن أباها كان لا يزال حيًا وأظهر رغبة فى غشيانها وهى المحرمة عليه؟ وهل سيظل راغبًا فيها إذا قررت العودة إلى ليون تورتشينر أو تزوجت ثريًا من أجل ماله؟ وإذا ماتت أمها هل ستنتقل للعيش معه هو ويادفيجا؟ وهل ستهجره إذا أصبح عنينًا؟ وكثيرًا ما اخُتتِمت أحاديثهما بالكلام عن الموت، وكان كلاهما يعتقد أنه سيموت صغيرًا فى السن، وقد حثت "ماشا" "هرمان" المرة تلو المرة على أن يحصل على قطعة أرض جبانة لكى يُدفنا فيها معًا هما الاثنان، وفى غمرة انفعالها كانت تؤكد له أنها سوف تزوره فى قبره ويمارسان الحب معًا، وإذا كان بوسعهما أن يقولا غير ذلك؟

كان على "ماشا" أن تتوجه إلى الكافيتيريا فى الصباح الباكر، وظل "هرمان" فى الفراش، وكان متأخرًا فى عمله الذى يؤديه للحاخام "لامبرت" كالمعتاد، وإن عزم على الانتهاء من المخطوط الذى تعهد به، كان قد أعطى الحاخام عنوانًا زائفًا، العنوان المراد تركيب التليفون فيه، ولكن يبدو أن الحاخام قد نسى كل شىء عن الأمر، شكرًا لله، إذ إن الحاخام من كثرة انشغاله بعمله الخاص لا

يكاد يتذكر شيئًا، فهو يدون الملحوظات، ولا يرجع بعد ذلك إليها أبدًا، ولم يتنبأ أحد من الفلاسفة أو المفكرين بفترة كهذه: هتلر المنطلق، العمل بعجلة، الأكل بعجلة، الكلام بعجلة، بل والموت بعجلة أيضًا، وربما كان الإله ...... واستغرق "هرمان" فى النوم من جديد، وكانت أحلامه متسارعة للغاية ـ متلاحقة، تمحو قانون الذاتية، وتبطل مقولات العقل، وحلم أنه فى أثناء مضاجعة "ماشا" انفصل الجزء العلوى عن الجزء السفلى منها، وقد وقفا أمام مرآة، وهى توبخه وتلفت نظره إلى أنه يجامع نصف امرأة فحسب، وفتح عينيه كانت الساعة العاشرة والربع، وكانت "شيفرابؤه" تتلو ببطء أدعيتها الصباحية فى الغرفة الأخرى ـ المقطع تلو المقطع، فارتدى هو ملابسه ودخل المطبخ، حيث جهزت له "شيفرابؤه" طعام الإفطار كالعادة دومًا، واستقرت صحيفة بيدية على المائدة، فتصفحها وهو يحتسى قهوته، وفجأة رأى اسمه، كان فى باب "مسائل شخصية" على هذا النحو: " السيد هرمان برودر من تزيفكيف من فضلك اتصل بالسيد "إبراهيم نيسن باروسلافر" وكان ثمة عنوان على إست بوردواى ورقم تليفون، وجلس "هرمان" متصلبًا. كان محض صدفة أن رأى الإعلان، فقد كان يكتفى عمومًا بإلقاء نظرة عجلى على العناوين الرئيسية فى صدر الصحيفة، وكان يعرف من هو السيد "إبراهيم نيسن"، فهو عم "تامارا" زوجته المتوفاة وعالم وحسيدى من أتباع ألكساندروفر، وعندما وصل " هرمان " إلى أمريكا أول مرة زاره، ووعده بالمجىء ثانية، ومع أن "تامارا" لم تعد بقيد الحياة، فقد أراد "إبراهيم نيسن" أن يساعد "هرمان"، على أن الأخير تحاشاه، لأنه لم يرد أن يعرف أنه تزوج من امرأة غير يهودية، وها هوذا "إبراهيم نيسن" يبحث عنه عن طريق الصحيفة!،

وسأل "هرمان" نفسه: "ما معنى هذا؟ " وكان يخشى ذلك الرجل الذى له علاقة بأهل تزيفكيف، بلدياته، وقرر أن يتظاهر بعدم رؤيته، بيد أنه جلس وقتًا طويلاً يحدق إلى الإعلان، ورن جرس التليفون، فردت عليه "شيفرابؤه"، وقالت: "إنه لك يا هرمان، إنها "ماشا"، وتكلمت "ماشا" لتقول له إنها مضطرة إلى العمل ساعة إضافية، وإنها ستلقاه فى الرابعة، وبينما هما يتحادثان التقطت " "شيفرابؤه" الصحيفة، فرأت اسمه، وأدارت رأسها نحوه فى دهشة، وهى تشير إلى الصحيفة بأصبعها، وفور أن أنها "هرمان" المكالمة قالت: "إنهم يبحثون عنك عن طريق الصحيفة هنا، فقال:

نعم رأيت ذلك.

كالمه، فقد أعطوك رقم التليفون، من تراه؟

من يدرى؟ ربما شخص من البلد الأم.

كالمهم، إذا كانوا قد نشروا هذا فى الصحيفة، فلا بد أن الأمر مهم.

ليس بالنسبة إلىَّ.

فرفعت "شيفرابؤه" حاجبيها، وبقى "هرمان" جالسًا إلى المائدة، وبعد قليل قطع الإعلان، وأراها أن ليس ثمة شىء خلفه إلا إعلان آخر ولا يوجد نص يتعين عليه تركه وتود هى قراءته، ثم قال:

إنهم يودون أن يجرونى إلى حياة الفلاحين، ولا يوجد لدىّ الوقت أو الصبر لذلك.

قد يكون قريبًا لك يبحث عنك.

لم يبق لى أحد.

إذا جرى البحث عن شخص فى هذه الأيام، فهذا ليس مسألة هينة.

وكان "هرمان" قد عزم من قبل أن يعود إلى غرفته، ويقضى ساعات قليلة فى العمل، ولكنه بدلاً من ذلك حيًّا "شيفرابؤه" وخرج ن وسار بخطى بطيئة ناحية شارع ترمونت، وفكر فى الذهاب إلى المتنزه العام، وجلس على دكة وراجع المخطوط ، على أن ساقيه حملتاه إلى كابينة تليفون، وأحس بالاكتئاب، وأدرك أن الهاجس الذى ألمَّ به فى الأيام القليلة الماضية لا بد أن له علاقة بالإعلان، وهذا ما يشبه التخاطر، أو الاستبصار، أو أيًا ما قد يُسمَى ثم انعطف ودخل شارع ترمونت، ثم دخل صيدلية (دريجستور)، وأدار رقم التليفون المعطى فى الصحيفة، وفكر:

"لقد أوقعت نفسى فى ورطة"، وسمع رنين التليفون، ولكنه لم يتلق ردًا، وقرر: "طيب، هذا أفضل، لن أطلب الرقم ثانية "، وفى تلك اللحظة سمع صوت السيد "إبراهيم نيسن" يسأله من الطالب؟ أهلاً، وبدا الصوت عجوزًا وأجشً مألوفًا، وذلك بالرغم من أن "هرمان" تحدث إلى الرجل فيما مضى، ولم يكلمه بعدها فى التليفون، وتنحنح "هرمان" وقال: أنا هرمان بوردر، هرمان بوردر، وكان ثمة صمت، وكأن السيد "إبراهيم نيسن" قد بُوغت، وبدا أنه استجمع نفسه بعد لحظة، فأصبح صوته أعلى واوضح، وقال:

هرمان؟، أرأيت الإعلان فى الصحيفة؟ عندى أخبار لك، ولكن لا تخف فهى أخبار ـ لاسمح الله ـ ليست سيئة، بل العكس، لا تقلق.

ما هى ؟

لدىّ معلومات عن تامارا راشيل ـ تامارا، إنها بقيد الحياة.

فلم يرد "هرمان"، وكان من الواضح أنه أفسح موضعًا فى ذهنه لاحتمال أن يحدث هذا؛ لأنه لم يكن مدهوشًا بالقدر المتوقع، وسأل:

والأطفال؟

الأطفال ماتوا.

ولم يقل "هرمان" شيئًا وقتًا طويلاً، وإن كانت خصائص مصيره من شدة الغرابة بحيث لم يعد يدهشه شىء، وسمع نفسه يقول:

كيف هذا؟ ثمة شاهد عيان رآهم يطلقون عليها الرصاص، ما اسمه، أنا لا أتصور هذا.

نعم، هذا حقيقى، لقد أطُلِق عليها الرصاص، بيد أنها بقيت حية، لقد هربت إلى منزل صديق غير يهودى، ثم اتخذت طريقها إلى روسيا بعد ذلك.

أين هى الآن؟

فى منزلى هنا.

ثم طال الصمت بين الاثنين من جديد، ثم سأله "هرمان" متى وصلت؟

إنها هنا منذ يوم الجمعة، إنها طرقت الباب فحسب، ودخلت لقد بحثنا عنك فى كل أنحاء نيويورك، دقيقة واحدة فقط، سأدعوها إلى التليفون.

كلا، سأحضر فورًا.

ماذا؟ طيب .....

فكرر "هرمان" : سأحضر فورًا.

وحاول أن يعيد السماعة، ولكنها سقطت منه وتدلت من نهاية السلك، وبدا له أنه يسمع صوت السيد "إبراهيم نيسن" لا يزال يأتيه منها، وفتح كابينة التليفون، وحدق إلى النضد المواجه له، حيث جلست امرأة على مقعد بلا ظهر أو يدين تحتسى مشروبًا من خلال "شَلَمونة" بينما يقدم رجل بعض القُرص، وهى تعابثه وكل التجاعيد فى وجهها المطلى باللون الأحمر تبتسم باستعطاف مصحوب بضعة أولئك اللائى لم يعدن يطالبن بل يتوسلن فحسب، وأعاد "هرمان" السماعة إلى موضعها، وغادر الكابينة، وسار إلى الباب كانت "ماشا" تتهمه بأنه رجل آلى"، وكان متفقًا معها فى الرأى فى تلك اللحظة، إذْ كانت إنفعالاته مكبوتة، وكان ذهنه يجرى حساباته بطريقة باردة، وكان عليه أن يلتقى "ماشا" فى الساعة الرابعة، وكان قد وعد "يادفيجا" أن يكون فى المنزل فى المساء، وكان عليه أن يفرغ من مخطوط الحاخام وبينما هو واقف عند مدخل الصيدلية كان الزبائن الداخلون والخارجون يصطدمون به، وتذكر تعريف الفيلسوف "أسبينوزا" للمعجزة " حين يكون الذهن بدون حركة؛ لأن تصور هذا الأمر الاستثنائى لا علاقة له بباق ......"، وبدأ "هرمان" فى السير، على أنه لم يتذكر الاتجاه الذى تقع فيه الكافيتيريا، وتوقف أمام صندوق بريد، وقال بصوت عالٍ: "تامارا حية" هذه المرأة المصابة بنوبات عصبية، المرأة التى عذبته وكان على وشك أن يطلقها عند قيام الحرب قد بعثت من بين الأموات، وأراد أن يضحك، إن مُمازحة الغبى يدبر له "مقلبًا" مميتًا، كان " هرمان " يدرك أن كل دقيقة ثمينة، على أنه لم يكن قادرًا على التحرك، واتكأ على صندوق بريد، وأسقطت امرأة خطابًا فى الصندوق،

ورمقته بارتياب، أيهرب؟ إلى أين؟ ومع من؟ لم تكن "ماشا" تستطيع أن تترك أمها، ولم يكن معه نقود، وقد فك أمس ورثة من فئة عشرة دولارات، ولم يتبق معه سوى أربعة دولارات وبعض الفكة الى أن يعطيه الحاخام شيكًا، ماذا يقول لماشا؟ ستخبرها أمها بالتاكيد بشأن الإعلان، وركز بصره على ساعة يده، كان العقرب الصغير يشير إلى الحادية عشرة، والعقرب الكبير إلى الثالثة، بيد أن معناهما معًا لم يكن مفهومًا لديه، واستغرق فى النظر إلى وجه الساعة كما لو كان بعض الجهد العقلى مطلوبًا منه لقراءة الوقت، ليتنى كنت مرتديًا بذلتى الجديدة، ولأول مرة أحس بالمَطْمَح الشائع لدى اللاجئين: أن يُظهر درجة النجاح التى حققها فى امريكا، وسخر شىء ما بداخله فى الوقت نفسه لهذه الرغبة المبتذلة.

ـ ٢ ـ

سار "هرمان" إلى السكة الحديد المرتفعة، وصعد الدرج، وفيما عدا وَقْع الصدمة لم تغير عودة "تامارا" شيئًا، فقد كان المسافرون يقرءون صحفهم ويمضغون اللبان كالعادة دومًا، وتحدث المراوح صوت القرقعة نفسها، والتقط "هرمان" من على الأرض صحيفة مرمية، وحاول أن يقرأها كانت صفحة سبق الخيل، وقلب الصفحة، وقرأ نكتة وابتسم، ومع ذاتية المظاهر توجد موضوعية باطنة، وخفض "هرمان" حافة قبعته إلى أسفل توقيًا للضوء المُسلط على جفونه، الزواج من امرأتين فى وقت واحد؟ نعم، الزواج من امرأتين، وإلى حد ما يمكن أن يتهم بتعدد الزوجات، وقد حاول هو أن يتذكر صفاتها الحسنة خلال السنوات التى اعتقد فيها أنها ميتة، لقد كانت تحبه، وهى فى الحقيقة روحانية، وكثيرًا ما تحدث إلى روحها

وطلب منها العفو، بيد أنه يدرك أن موتها جنَّبه الشقاء فى الوقت نفسه، بل إن السنوات التى أضاعها فى مخزن التبن فى لسبك تبدو أحيانًا فترة راحة حين تُقَارَن بالعناء الذى سببته له "تامارا" خلال سنوات عيشهما معًا، ولم يعد "هرمان" يتذكر سبب شجاره معها بكثرة، ثم هجره لها وإهماله أولادهما. لقد كان الصراع بينهما لجَاجًا مستمرًا لا يقدر فيه طرف على إقناع الطرف الآخر بوجهة نظره، وكانت هى تتكلم باستمرار عن خلاص الإنسانية ومحنة اليهود ودور المرأة فى المجتمع، تمتدح الكتب التى كان يعتبرها أفضل قليلاً من لُبّ الثمرة، وتتحمس للمسرحيات التى تثير اشمئزازه، وتردد الأغنية الذائعة التى تطابق الذوق، وتحضر محاضرات كل زعماء الدهماء، وعندما كانت شيوعية كانت ترتدى سترة الشيكا(*) الجلدية، ولما أصبحت صهيونية وضعت نجمة داوود، وشاركت فى الاحتفالات وعارضت ووقعت العرائض وجمعت الأموال لكل أغراض الحزب، وفى أواخر الثلاثينيات حين زار زعماء الحزب النازى بولندا، وأشبع الطلبة القوميون اليهود ضربًا وأجبروا الطلبة اليهود على الوقوف خلال إلقاء المحاضرات فى الجامعة، انصرفت ـ " تامارا " شأن الكثيرين إلى الدين، وبدأت تضىء الشموع فى ليلة الجمعة، وتحرص على طعام البيت الشرعى، وبدأ لـ "هرمان" أنها رمز للجماهير التى تتبع قائدًا ما، وتنوِّمها الشعارات، ولا يكون لها فى حقيقة الأمر رأى يخصها، وفى غمرة سخطه عليها أغفل الانتباه إلى إخلاصها له ولأولاده، والحقيقة أنها كانت هنالك دومًا تساعده وتساعد الآخرين، وعندما هجر منزله

(*) الشيكا: لجنة سابقة بالاتحاد السوفيتى، كانت تعمل بوصفها شرطة سرية، وعُهِد إليها بالتصدى للثورة المضادة.

وسكن فى غرفة مفروشة كانت تأتى وتنظفها له وتحضر له الطعام، وتعنى به حين مرضه وتصلح له ملابسه وتغسل البياضات، بل تكتب له أيضًا مقالاته وبحوثه، مع أن ما يكتبه فى رأيها مناف للإنسانية وضد الحركة النسائية وضد الحركة النسائية ويوقع الكآبة فى النفس، وسأل "هرمان" نفسه:

أتراها هدأت؟ فلنرَ، كم عمرها؟ " ولم يقرر عمرها بالضبط وإن كانت هى أكبر سنًا منه، وحاول أن يرتب الأحداث ويستكمل ما قد وقع، لقد انتزع الأولاد منها، وأطلقوا عليها الرصاص، فاستقرت رصاصة فى جسمها، ووجدت ملاذًا فى منزل غير يهودى، وشفى جرحها، ثم هُرِبت إلى روسيا ولا بد أن ذلك قد وقع قبل عام ١٩٤١، طيب، أين كانت كل هذه السنوات ؟ لماذا لم يسمع عنها منذ عام ١٩٤٥ الحقيقة أنه لم يبحث عنها، ولم يفحص قط القوائم التى تُنشر فى الصحف اليدية، تلك القوائم المتعلقة بمن يبحثون عن أقاربهم المفقودين، وسأل "هرمان" نفسه: "هل مر أحد يمثل هذه المحنة؟ "، كلا، لا بد أن تمر تريليونات وكَدْريليونات من السنوات قبل أن تتكرر هذه المجموعة المؤتلفة من الظروف عينها، وود "هرمان" أن يضحك فقد تجرى دائرة استخبارات سماوية تجارب عليه كتلك التى أجراها الألمان على اليهود، وتوقف القطار، فاندفع "هرمان" خارجًا منه، وصعد المدرج قفزًا - شارع أربعة عشر، وانعطف شرقًا، وسار إلى محطة الأتوبيس لكى ينتظر الأتوبيس المتجه إلى الشرق، وكان الصباح معتدل البرودة، احتر الجو فى تلك اللحظة، والتصق القميص بظهر "هرمان"، وثمة قطعة ملابس جعلته غير مرتاح، أهى ياقة القميص أم النطاق المطاطى لملبسه الداخلى أم تراه الحذاء؟ ومر بمرآة، ورأى صورته المنعكسة: مائلة وهزيلة ومحنية قليلاً، وتضع قبعة بالية وترتدى بنطلونًا متجعدًا،

وتضع رباط عنق ملتويًا، لقد حلق منذ ساعات قليلة، ولكن لحيته تصنع ظلاً على وجهه، فقال لنفسه محذرًا: "لايمكن أن تذهب إلى هناك على هذا النحو"، وبَطَّأ خطوه، ونظر فى واجهات المحلات، فربما استطاع أن يلتقط قميصًا رخيصًا، ربما وجد كواءً قريبًا يكون عنده بذلته، أو أن يُلمِّع حذاءه على الأقل، ووقف "هرمان" عند موضع تلميع الأحذية. وشرع صبى أسود صغير فى السن يضع الدهان على الحذاء بأصابعه ويدغدغ أصابع قدمى "هرمان" من خلال الجلد، وامتلأ الجو الحار بالغبار وأدخنة البنزين وروائح الأسفلت والعرق، وتساءل: "كم من الوقت تتحمل الرئتان هذا؟ وكم من الوقت تدوم هذه الحضارة المنتحرة؟ سيختنقون جميعًا ـ سيجنون أولاً، ثم يختنقون"، وبدأ الصبى الأسود يقول شيئًا عن حذاء "هرمان" على أن الأخير لم يفهم إنجليزيته، إذْ كان يصل إلى اذنيه المقطع الأول من كل كلمة فقط، وكان الصبى نصف عارٍ، وكان رأسه ذو الشكل المربع ينز عرقًا، وسأله "هرمان" وهو يحاول أن يحادثه:

كيف حال العمل؟

طيب إلى حد ما؟

ـ ٣ ـ

جلس "هرمان" فى الأوتوبيس المتجه من ميدان يونيون إلى إست بوردواى ونظر من النافذة: لقد تغيرت المنطقة المجاورة منذ وصوله إلى أمريكا، الآن يسكنها البورتوريكويون، ومجموعات مبانٍ بأكملها تهدمت، وما زال المرء ـ مع ذلك ـ يرى لافتة بيدية، ويرى أحيانًا هنا وهناك كنيسًا ومعهدًا دينيًا يهوديًا ودارًا للمسنين، وفى مكان ما من الناحية رأى مقر جمعية أهل تزيفكيف، وكان حريصًا على تفادية،

ومر الأتوبيس بمطاعم الأكل الشرعى اليهودى، ودار سينما بيدية، وصالة تُؤجَر لحفلات الزفاف أو حفلات بلوغ السن الشرعية، وبيت تجنيز يهودى، ورأى "هرمان" صبية صغارًا ذوى خصلات أذن أطول من أى خصل رآها فى وارسو، ورءوسهم مغطاة بقبعات مخملية عريضة الحافة، وفى هذه الناحية وعلى الجانب الآخر من جسر ولّيَمزْبرج استقر الحسيديون المجريون أتباع الحاخامات "ساتشه" و "بيلز" و "بوبو"، وهم مستمرون فى خصوماتهم القديمة، بل إن بعض غُلاة الحسيديين رفضوا الاعتراف بأرض إسرائيل، وفى إيست بوردواى لمح "هرمان" ـ وهو ينزل من الأتوبيس من خلال نافذة فى الدور الأرضى ـ مجموعة رجال ذوى لحى بيضاء يدرسون التلمود، وتحت حواجب كثيفة عبرت عيونهم عن مضَاَء سعة المعرفة، وذكرت "هرمان" التجاعيد المحفورة على جباههم العالية السطور الحاكمة على لفائف الرَّق التى ترشد الكتبة عند كتابتهم، وقد عكست وجوه الرجال المتقدمين فى السن حُزنًا مُقيمًا وقديمًا قدم الكتب التى يدرسونها، وداعبته لحظة فكرة الانضمام إليهم، كم من الوقت سيمضى عليه قبل أن تصير لحيته رمادية؟

وتذكر "هرمان" ما عرفه ريفى عن ظروف مجىء السيد "إبراهيم نيسن ياروسلاف" إلى أمريكا قبل غزو "هتلر" لبولندا ببضعة أسابيع، فقد كان يمتلك مؤسسة صغيرة لنشر الكتب الدينية النادرة فى لوبلين، وسافر إلى أوكسفورد لنسخ مخطوط قديم تم اكتشافه هناك، ثم جاء إلى نيويورك عام ١٩٣٩ لطلب العون من أجل طباعة المخطوط، وحال الغزو النازى دون عودته، وفقد زوجته، بيد أنه تزوج من أرملة حاخام، وتخلى عن هدفه: أن ينشر مخطوط أوكسفورد، وبدلاً من هذا بدأ العمل فى مجموعة من كتابات

الحاخامات الذين هلكوا على أيدى النازيين، وساعدته زوجته الحالية "شيفا هاداس" على ذلك، وأخذ كلاهما على عاتقه أن يقيما حدادًا يومًا واحدًا فى الأسبوع على الشهداء فى أوربا ـ يوم الاثنين، وكانا يصومان هذا اليوم، ويجلسان بأقدام مجوربة على كرسيين بلا ظهر أو يد، ويراعيان كل أحكام أيام الحداد السبعة، واقترب من المنزل القائم فى إست بوردواى، وتطلع إلى نوافذ شقة السيد "إبراهيم نيسن" فى الدور الأرضى، وقد أسدِلت عليها ستائر نصفية كتلك المستعملة فى البلد الأم، وصعد مجموعات الدرج القصيرة، ودق جرس الباب، ولم يكن ثمة استجابة فى البداية، وحَسِب أنه سمع همسًا خلف الباب، وكأن من بالداخل يتشاورون بشأن إدخاله من عدمه، وانفتح الباب ببطء، ووقفت امرأة عجوز على عتبته، هى بجلاء "شيفا هاداس"، كانت قصيرة ونحيلة وذات خدود مغضنة وفم منخسف، وتضع نظارة على أنفها المعقوف، وهى بفستانها ذى الياقة العالية والقلنسوة تشبه تمامًا المرأة الورعة فى بولندا، ولم يكن ثمة أثر لأمريكا أو ما يدل على تعجل أو استثارة وبدا من سلوكها أن اجتماع شمل زوجًا وزوجة كهذا حدث عادى، وحياها "هرمان" فأومأت برأسها، وسارا فى ردهة طويلة بدون كلام، وكان السيد "إبراهيم نيسن" واقفًا فى غرفة الجلوس، قصيرًا ممتلئ الجسم وقويًا ومحنيًا وذا وجه شاحب ولحية تجمع بين اللونين الرمادى والأصفر بالكامل وخصلات شعر جنب الأذن مشعثة وجبهة عالية، وقلنسوة مسطحة مستقرة على الرأس، وعبرت عن إبان وحزن عينين بنيتين تحت حاجبين يجمعان بين اللونين الرمادى والأصفر، وكان بوسع "هرمان" أن يرى ثوبًا عريضًا ذا هُدب تحت ردائه غير المزرر، بل بدا أيضًا أن رائحة المنزل تنتمى

إلى الماضى: البصل المقلى والثوم والهندباء البرية والشمع وتفحص السيد "إبراهيم نيسن "وبدت نظرته وكأنها تقول: "الكلام لا ضرورة له"، وألقى نظرة عجلى على الباب الذى يؤدى إلى غرفة أخرى، وأمر زوجته قائلاً: "استدعيها"، فتركت المرأة العجوز الغرفة بهدوء، فقال السيد " إبراهيم نيسن "معجزة من السماء! " وبدا لـ "هرمان" أن الاستدعاء تطلب وقتًا طويلاً، وتخيل من جديد أنه سمع جدالاً هامسًا، وانفتح الباب، وقادت "شيفا هاداس"، "تامارا" إلى داخل الغرفة، وكأنها تقود عروسًا إلى ظُله الزفاف، واستوعب "هرمان" كل شىء فى الحال، فقد كبرت "تامارا" فى السن قليلاً، بيد أنها بدت ويا للعجب شابة، وهى ترتدى ملابس أمريكية، وكان من الواضح أنها زارت مركزًا للتجميل، إذْ كان شعرها أسود فاحمًا وذا لمعان اصطناعى لصبغة حديثة، وخداها مطليين باللون الأحمر وحاجباها منتوفين، وأظافرها حمراء، وهو ما جعل "هرمان" يرى أن رغيفًا بائتًا قد وضع فى فرن ساخن ليكتسب طزاجة، وبدا لـ "هرمان" أن عينيها العسليتين تنظران إليه من الجانب، وكان على استعداد حتى هذه اللحظة أن يقسم على أنه يتذكر ملامح "تامارا" جيدًا، ولكنه لاحظ شيئًا قد نسيه تمامًا: غَضَن فى ركن فمها كان موجودًا هنالك دومًا يكسبها إعرابًا عن شعور يجمع بين الامتعاض والارتياب والتهكم، وحدق إليها: الأنف هو هو وعظام الخدين هى هى، ووَضْع الفم هو هو، وكذلك الذقن، والشفتان والأذنان، وسمع نفسه يقول: أتمنى أن تكونى قد تعّرفتِ علىّ.

فردت: أجل، تعرّفتُ عليك.

وكان الصوت صوتها رغم أنه تغير بعض الشىء ربما بسبب نبرته الحذرة، وأشار السيد "إبراهيم نيسن" إلى زوجته، وغادر

كلاهما الغرفة، وبقى "هرمان" و "تامارا" صامتين وقتًا طويلاً، وفكر "هرمان" : لماذا ترتدى اللون الوردى؟ "وزال ارتباكه، واستشعر كدرًا، إذْ إن المرأة التى رأت أولادها يُنتزَعون منها لكى يُقتَلوا قد سمحت لنفسها بارتداء هذا الزى، وإن سره فى تلك اللحظة أن لم يرتد ملابسه الحسنة، وصار من جديد "هرمان" كما تعود أن يكون: الرجل الذى ليس على وفاق مع زوجته، الزوج الذى يشيح بوجهه عن زوجته، فقال : لم أكن اعرف أنك بقيد الحياة وخجل من كلامه.

فردت "تامارا" بحدة قائلة : هذا شىء لم تعرفه البتة.

طيب اجلسى، هنا على الأريكة.

فجلست "تامارا"، وكانت ترتدى جوربًا من النَّيْلون، وشدت إلى أسفل طرف فستانها الذى ارتفع أعلى ركبتيها ووقف "هرمان" قُبالتها فى صمت، وخطر بباله أن أرواح الموتى الجدد يلتقى بعضها بعضًا بهذه الكيفية، وهى تتكلم كلام الأحياء؛ لأنها لا تعرف بعد لغة الموتى، وسألها :

كيف جئت إلى هنا؟ بالمركب؟

كلا، بالطائرة.

من ألمانيا؟

كلا، من إستُكهولم.

أين كنت طوال هذا الوقت؟ فى روسيا؟

وبدا أن "تامارا" تفكر مليًا فى سؤاله، ثم قالت:

أجل فى روسيا .

لم أكن أعلم أنك بقيد الحياة حتى هذا الصباح، فقد جاءنى شاهد عيان وأخبرنى أنه شاهدهم يطلقون الرصاص عليك.

من هو؟ لا أحد خرج حيًا، إلا إذا كان نازيًا .

إنه يهودى.

هذا غير ممكن.

ثم أردفت وهى تشير إلى وركها الأيسر:

لقد أطلقوا علىّ رصاصتين، إحداهما فى جسمى إلى هذا اليوم.

ألا يمكن إزالتها؟

ربما هنا فى أمريكا.

كأنك بُعثت من بين الموتى.

نعم.

أين حدث هذا؟ فى نالنتشيف؟

فى حقل بالضواحى، نجحت فى الهروب بالليل رغم أن جروحى كانت تنزف، كانت السماء تمطر، ولولا ذلك لرآنى النازيون.

من غير اليهودى الذى هربت إلى منزله؟

باول تشيشونسكى، كان أبى قد قام بشغل معه، فذهبت إليه وأنا أقول لنفسى: ماذا يمكن أن يحدث الآن؟ على أسوأ الاحتمالات سيُبلغ عنى.

أأنقذ هو حياتك؟

لقد مكثت عنده أربعة أشهر، لم يكن من الممكن أن يثقوا بطبيب، فكان هو طبيبى، هو وزوجته.

هل سمعت عنهما شيئًا منذ ذلك الحين؟

لم يعودا بقيد الحياة.

وصمت كلاهما، ثم سألته "تامارا":

كيف لم يعرف عمى عنوانك؟ كأن علينا أن ننشر إعلانًا فى الصحيفة.

ليس عندى شقة تخصنى، أنا أسكن مع شخص آخر.

كان بوسعك أن تستأذنه بشأن عنوانك.

ولِمَ؟ وأنا لا أزور أو أقابل أحدًا.

لماذا لا تفعل هذا؟

وأراد أن يجيب، على أن الكلام لم يخرج من فمه، فشد كرسيًا من جنب المنضدة، وجلس على حافته، وأدرك أنه يجب أن يسألها عن الأولاد، بيد أنه عجز عن ذلك، فقد كان يشعر بشىء أقرب إلى الرعب عندما يسمع أُناسًا يتحدثون عن أولاد أحياء وأصحاء، وفى كل مرة أفصحت فيها "يادفيجا" أو "ماشا" عن الرغبة فى إنجاب طفل منه كان يغير الموضوع، وتوجد فى مكان ما بين أوراقه صور ضوئية للصغيرين يوكابد وداوود، ولكنه لم يجرؤ قط على النظر إليها مع أنه لم يكن يتصرف نحوهما كما يجب أن يتصرف الأب، بل لقد أنكر أيضًا وجودهما فى وقت من الأوقات، وتظاهر بأنه عازب، وها هى ذى تامارا شاهدة على جريمته، وخشى أن تشرع هى فى البكاء، ولكنها احتفظت برباطة جأشها، وسألها:

متى اكتشفتِ أنى بقيد الحياة ؟

متى؟ بعد الحرب، بصدفة غير عادية، فقد كان أحد معارفى وهو صديق مقرب يلف رزمة بصحيفة يبدية تصدر فى ميونخ، فتصادف أن رأى اسمك فيها.

أين كنت فى ذلك الوقت؟ أكنت لاتزالين فى روسيا؟

فلم تجب "تامارا"،/ ولم يكرر هو سؤاله، إذ إنه من تجربته الخاصة مع " ماشا " والآخرين الباقين بقيد الحياة من معسكرات الاعتقال الألمانية أو الذين كانوا يهيمون على وجوههم فى روسيا كان يدرك أن الحقيقة بأكملها لن تُعَرف أبدًا، لا لأنهم يكذبون، بل لأنه يستحيل عليهم حكايتها كلها، وسألته "تامارا":

أين تسكن؟ ماذا تعمل؟

لقد تخيل وهو فى الأتوبيس أن "تامارا" ستسأله هذين السؤالين، ومع ذلك فقد جلس صامتًا مصعوقًا، ثم قال:

لم أكن أعلم أنك بقيد الحياة ....

فابتسمت "تامارا" بسخرية قائلة:

من المرأة المحظوظة التى حلت محلى؟

إنها ليست يهودية، إنها ابنة بولندى اختبأت فى منزله.

وفكرت "تامارا" فى رده وقالت: فلاحة؟

نعم.

أهذه هى الطريقة التى كافأتها بها؟

يمكن أن تقولى هذا.

ونظرت إليه "تامارا"، ولم ترد، وارتسم على وجهها تعبير ينم عن شرود الذهن، وكررت كذلك الذى يقول شيئًا ويفكر فى شىء آخر:

ما نوع العمل الذى تقوم به؟

أنا أعمل عند حاخام، حاخام أمريكى.

ماذا تعمل عند الحاخام ؟ تجيب عن الأسئلة المتعلقة بأحكام الشعائر.

اكتب كتبًا له .

وماذا يعمل هو ؟ يرقص مع الفتيات غير اليهوديات ؟

هذا ليس بعيدًا عن الحقيقة كما ترين، أرى أنك قد تعلمت الكثير فى هذا البلد.

كان ثمة امرأة أمريكية فى معسكرنا، لقد جاءت إلى روسيا بحثًا عن العدالة الاجتماعية، فوضعت فورًا فى معسكر اعتقال، وهو المعسكر الذى كنت أنا فيه، وماتت هنالك بالإسهال والموت جُوعًا، معى عنوان أختها فى مكان ما، لقد أمسكت بيدى قبل أن تموت وجعلتنى أقطع على نفسى عهدًا أن أصل إلى أقاربها فى أماكنهم وأخبرهم بالحقيقة .

هل عائلتها شيوعية كذلك؟

يبدو ذلك.

لن يصدقوك، فهم مُنَّومون جميعًا.

كان ثمة ترحيلات ضخمة إلى المعسكرات، كانوا يأخذون الرجال ويميتونهم جوعًا، ويحملونهم على العمل الذى يحطم أقوى الرجال خلال سنة، وأنا شاهدة على ذلك، ولو لم أر ذلك لما صدقته.

ما الذى حدث لك؟

وعضت "تامارا" على الشفة السفلى، وهزت رأسها وكأنها تشير إلى العبث المتعلق بما هو وراء الاعتقاد، ولم تكن هذه "تامارا" المهذارة التى عرفها، بل إنسانة أخرى، وخطرت بباله فكرة غريبة أن هذه ليست "تامارا"، بل أختها ثم بدأت فجأة تتكلم:

إن ما حدث لا يمكن أبدًا أن يُقال على أتم وجه، والحقيقة أنى لا أعرف نفسى، وأنا من كثرة ما حدث أتخيل أحيانًا أن شيئًا لم يحدث، لقد نسيت أشياء كثيرة تمامًا، بل ما يتعلق بحياتنا معًا أيضًا، وأنا أتذكر الرقود على لوح خشبى فى كازاخستان، وأنا أستدعى إلى ذهنى سبب أخذى الطفلين فى زيارة لوالدى خلال صيف عام ١٩٣٩ مع أنى لم أجد معنى أو سببًا لما فعلت لقد نشرنا كتل الخشب فى الغابة اثنتى عشرة ساعة وأربع عشرة ساعة فى اليوم، وكان الجو باردًا بالليل إلى حد عدم القدرة على النوم البتة، وتنبعث منه رائحة نتنة إلى حد عدم القدرة على التنفس، وعانى كثيرًا من الناس من مرض العشى الليلى، وفى لحظة يكلمك الشخص ويرسم الخطط، وفجأة يصمت، وتتكلم أنت فلا يجيبك، وتقترب منه، فتراه ميتًا، ولهذا رقدت هنالك وسألت نفسى:

"لماذا لم أذهب مع هرمان إلى تزيفكيف"، ولكن لم أستطع أن أسمع شيئًا، قالوا لى إن هذا مرض نفسى كنت أعانى منه كنت أتذكر أحيانًا كل شىء، ولا أتذكر أحيانًا شيئًا البتة، لقننا البلاشفة أن نكون مُلحدين، على أنى مازلت أؤمن أن كل شىء مُقدر، وقد قُدِّر لى أن أقف على مقربة من والدى وأشاهد أولئك الوحوش وهم ينزعون لحيته وقطعة من خده، ومن لم ير والدى فى تلك اللحظة لا يعرف معنى كلمة يهودى، أنا نفسى لم أكن أعرف ما تعنيه، وأنى أتبع خطى والدى، وسقطت أمى تحت أحذيتهم وبصقوا عليها،

وكادوا يغتصبوننى لولا أن كانت لدىّ الدورة الشهرية وأنت تعرف كيف أنزف، أوه، لقد توقف هذا بعد ذلك، توقف بخير، فمن أين تحصل الواحدة على دم إذا كانت لا تتناول خبزًا؟ أتسألنى عما حدث؟ لا تستطيع ذرة تراب تُطيّرها الريح عبر الأرض والصحراء أن تقول أين كانت، من هى غير اليهودية التى خبأتك؟

إنها خادمتنا، أنت تعرفينها، يادفيجا.

وبدت "تامارا" وكأنها على وشك أن تضحك، وقالت :

تزوجتها.

أجل.

سامحنى، ألم تكن ساذجة؟ تعودت أمك أن تسخر منها، بل إنها لم تكن تعرف كيف تلبس حذءًا، وأتذكر أن أمك قالت لى كيف أنها حاولت أن تلبس فردة الحذاء اليسرى فى القدم اليمنى، وكيف أنها إذا أعطتها نقودًا لشراء شىء ضاعت منها.

لقد أنقذت حياتى.

نعم، أنا أعتقد أن حياة الإنسان لها قيمة أكبر من أى شىء آخر، أين تزوجتها، فى بولندا؟

فى ألمانيا.

ألم تكن هناك طريقة أخرى لتكافئها؟ طيب، من الأفضل ألا أسألك.

لايوجد ما يدعو للسؤال، فهذا ما وقع.

وحدقت "تامارا" إلى ساقها، ورفعت فستانها قليلاً، وهرشت ركبتها، ثم أدنته عليها قالت:

أين تسكن؟ هنا فى نيوريوك؟

فى بروكلين، إنها جزء من نيويورك.

أنا أعرف، لقد أُعطِيُت عنوانًا هناك، عندى دفتر ملآن بالعناوين، وأحتاج إلى عام بأكمله للذهاب هنا وهناك لكى أخبر الأقارب كيف مات هذا أو ذاك، لقد ذهبت من قبل إلى بروكلين، وأوضحت لى عمتى الطريق، فذهبت إلى هناك وحدى بالقطار النفقى، وذهبت إلى منزل، ولم يكن أحد فيه يعرف كلمة باليدية، وحاولت أن أتكلم الروسية والبولندية والألمانية، بيد أنهم كانوا يعرفون الإنجليزية فقط، وحاولت أن أستعمل لغة الإشارة لكى أخبرهم أن عمهم مات، فسخر منى الأطفال فحسب، وكانت الأم أشبه بامرأة مرتاحة ولا أثر لليهودية عليها، إن الناس يعرفون القليل عما فعله النازيون، قطرة من محيط، ولا يعرف الناس عما فعله ستالين، ومازال يفعله، بل إن الذين يعيشون فى روسيا لا يعرفون أيضًا القصة بأكملها، ماذا قلت عن عملك، كاتب عند حاخام ؟

أومأ "هرمان" برأسه، وقال: نعم، إلى حد ما، أنا أيضًا بائع كتب.

ووجد "هرمان" نفسه يكذب كالعادة.

عمل إضافى؟ ما نوع الكتب التى تبيعها؟ كتب ييدية؟

ييدية، إنجليزية، عبرية، أنا أشبه ببائع كتب جوال.

إلى أين تسافر؟

مدن مختلفة.

وماذا تصنع زوجتك حين تذهب بعيدًا عنها؟

وماذا تصنع الزوجات الأخريات حين يسافر أزواجهن؟ هنا فى أمريكا يعد البيع مهنة مهمة.

هل لديك أطفال منها؟

أطفال؟ كلا.

لن يصدمنى إذا كان لديك، لقد قابلت يهودًا صغارًا فى السن تزوجوا من نازيات سابقات، وحين يتطرق الكلام إلى ما فعلته بعض الفتيات لتنجى بجلدهن، فإنى أفضل السكوت، لقد أصبح الناس فاسدين تمامًا، فى السرير المجاور لسريرى كان أخ وأخت يمارسان علاقة شائنة، بل لم ينتظرا حلول الظلام أيضًا، فما الذى يدهشنى بعد ذلك؟، أين خبأتك؟

قلت لك فى مخزن تبن .

ألم يعرف والداها ؟

كان لها أم وأخت فقط، لم يكن ثمة أب، لم تعرفا.

كانتا تعرفان طبعًا، إن الفلاحين جبناء، فقد فهمتا بعد الحرب أنك ستتزوجها، وتأخذها إلى أمريكا، وأظنك كنت تتسلل إلى فراشها حين كنت معى.

لم أتسلل إلى فراشها، أنت تقولين كلامًا فارغًا، كيف لهما أن تعرفا أنى سأحصل على تأشيرة دخول إلى أمريكا؟ الحقيقة أنى كنت عازمًا على الذهاب إلى فلسطين.

كانتا تعرفان، كانتا تعرفان، قد تكون يادفيجا بلهاء، ولكن أمها تدارست الموضوع مع الفلاحات الأخريات، وساعدنها على تفهم الأمر، إن كل شخص يريد المجىء إلى أمريكا، العالم كله متلهف بشدة إلى المجىء إليها، وإذا أطلقت الحصص فلسوف تكتظ بالناس بحيث لا يكون ثمة مُتَّسَع لدبوس آخر، لا تظن أنى غاضبة منك،

أولاً: لأنى لم أعد غاضبة من أحد الآن، ثانيًا : لأنك لم تكن تعلم أنى بقيد الحياة، ورغم أنك خدعتنى ونحن نعيش معًا وفررتَ من طفليك، بل لم تكتب لى أيضًا خطابًا خلال تلك الأسابيع القليلة الأخيرة التى كنت تعلم فيها أن الحرب على وشك الوقوع فى أي لحظة، إنى أعرف آباءً خاطروا بحياتهم وعبروا الحدود لكى يكونوا مع أطفالهم، وأعرف رجالاً أيضًا أفلحوا فى الهرب إلى روسيا، ولكنهم رجعوا إلى النازيين بدافع الشوق إلى عائلاتهم، أما أنت فبقيت فى تزيفكيف وتسللت إلى مخزن تبن مع معشوقتك، فكيف لى أن أدعى حقوقًا على شخص كهذا؟ طيب، لماذا لم ترزق أطفالاً منها؟

لم أرزق، هذا كل ما فى الأمر.

لماذا تنظر إلى هكذا؟ لقد تزوجتها، إذا كان حفيدَى والدى غير ملائمين لك تمامًا، وكنت تخجل منهما كأنهما جرب فى فروة راسك، فلماذا يكون لك أولاد آخرون من يادفيجا؟ إن والدها بالتأكيد أحسن من والدى.

حسنًا، للحظة ظننتك تغيرت، على أنى أراك مازلت كما كنت.

كلا، ليس كما كنت، فأنت تنظر إلى امرأة مختلفة، فإن تامارا التى تركت أولادها المقتولين، وفرت إلى سكيبا - وهذا اسم القرية - هى تامارا أخرى، أنا ميتة، وحين تكون الزوجة ميتة فللزوج أن يفعل ما يحلو له، والحقيقة أن هذا الجسم المتعلق بى ما زال يجرجر نفسه هنا وهناك، بل إنه جر نفسه إلى نيويورك أيضًا، لقد ألبسونى جوارب نايلون وصبغوا شعرى وطلوا أظافر أصابع يدىّ، ساعدنى يا رب، إن غير اليهود يحملون جثثهم دومًا، ويهود اليوم

أغيار؛ ولهذا فإنى لا أحمل ضغائن لأحد، ولا أعتمد على أحد، ولن يدهشنى أن أسمع أنك تزوجت نازية واحدة من أولئك اللائى يرقصن على الجثث، ويدسن كعوب أحذيتهن على بنات اليهود وكيف لك أن تعرف ما حدث؟ إنى أتمنى فحسب ألا تمارس مع زوجتك الجديدة الألاعيب والحيل التى كنت تمارسها معى.

وسمع "هرمان" و "تامارا" خطى أقدام وأصوات من خلف الباب المؤدى إلى البهو والمطبخ، ودخل السيد "إبراهيم نيسن" تتبعه" شيفا هاداس"، وكلاهما ـ الزوج والزوجة ـ يجر قدميه أكثر مما يمشى.

وخاطب السيد: "إبراهيم نيسن" "هرمان" قائلاً :

ليس عندك شقة بعد على الأرجح، يمكنك البقاء معنا حتى تجد واحدة، الضيافة عمل من أعمال البر، فضلاً عن أنكما أقارب، وكما يقول الكتاب المقدَّس: "ولن أخفى لحمى عن لحمك ".

فقاطعته "تامارا" قائلة :

عمى، إن له زوجة أخرى.

فشابكت "شيفا هاداس" ما بين أصابع يديها، ونظر السيد "إبراهيم نيسن" متحيرًا، وقال :

طيب، هذه حكاية أخرى ....

يوجد شاهد عيان شَهد على أنه رأى كيف أنهما ....

وكبح "هرمان" نفسه، وكان قد غفل عن أن ينبه "تامارا" على ألا تخبرهما أن زوجته غير يهودية، ونظر ناحية "تامارا" وهز رأسه، وانتابته رغبة طفولية أن يترك الغرفة قبل أن يتعرض للخزى، وتوجه إلى الباب، وهو واعٍ بالكاد بما يفعله.

فقالت له "تامارا" : لاتهرب، إنى لن أجبرك على شىء.

فقالت "شيفا هاداس": الحقيقة أن هذا شىء تقرأ الواحدة عنه فى الصحيفة فقط.

فقال الحاخام "إبراهيم نيسن" : أنت ـ لا سمح الله؛ لم ترتكب ذنبًا، لأنك لو كنت تعرف أنها حية، فهذا معناه أنك تعيش مع امرأة بطريقة غير شرعية، ولكن فى حالتك هذه لا ينطبق عليك تحريم الحاخام جيرشوم(*)، وثمة حل محدد: عليك أن تطلق زوجتك الحالية، لماذا لم تقل لنا؟

لأنى لم أُرِد إزعاجكما.

وأشار "هرمان" إلى "تامارا" هذه المرة بوضع أصبعه على شفته، وأمسك السيد "إبراهيم نيسن" لحيته، وعبرت عينا "شيفا هاداس" عن أسى أُمومىّ، وبدا أنها تفكر، إذْ انحنى رأسها المغطى بالقلنسوة إذعانًا للامتياز القديم، الامتياز الذكورى بالجحود وخيانة عهد الزوجية، والرغبة فى أحضان جديدة لا يستطيع أتقى الرجال وأكثرهم صلاحًا أن يقاومها، فهذا هو الحال وسيظل هكذا دومًا، فقالت:

توجد مشاكل ويجب على الرجل وزوجته مناقشتها وحدهما.

وانعطفت ناحية الباب قائلة:

وخلال ذلك سأصنع شيئًا يُؤكَل.

فقال "هرمان" بسرعة : لقد أكلت، شكرًا لك.

(*) جيرشوم بن يهوذا: (٩٦٠ ـ ١٠٤٠) حاخام وفقيه يهودى أفتى بتحريم تعدد الزوجات، تمشيًا مع الديانة المسيحية، مع أنه لم يرد بهذا التحريم نص فى التوراة أو التلمود.

إن زوجته طباخة ماهرة، لقد أعدت بعض الحساء الدهنى للعشاء.

فلَوَّت "تامارا" وجهها سخرية على النحو الذى يصنعه اليهود الأرثوذكسيون أحيانًا حين يذكرون لحم الخنزير.

فسألت "شيفا هاداس" "هرمان":

هل لك فى كوب شاى وكعكة صغيرة ؟

كلا، لا شىء حقًا .

فقال "إبراهيم نيسن":

ربما كان من الواجب أن تدخلا الغرفة الأخرى وتتناقشا، وهذه مسائل بينهما كما يقولون، وإذا استطعت أن أساعدكما، فلسوف أفعل بالتأكيد.

وواصل الرجل العجوز كلامه بلهجة مغايرة:

هذا عصر الفوضى الأخلاقية، المذنبون هم القتلة الأشرار لا تُلقِ باللوم على نفسك، فليس ثمة خيار.

عمى، لا يوجد نقص فى أناس أشرار بين اليهود، من تظن جرنا بعيدًا إلى ذلك المَرْج؟ رجال الشرطة اليهود، فقد حطموا كل الأبواب، وبحثوا فى الأقبية والعُليات، وكانوا إذا وجدوا أناسًا مختبئين ضربوهم بهراوات مطاطية، وحَوَّطونا بالحبال كالماشية الذاهبة إلى السلخانة، فقلت كلمة لأحدهم؛ فركلنى ركلاً شديدًا لن أنساه أبدًا، ولم يكن الحمقى يعرفون أنهم لن يُعفَوا هم أيضًا.

كما يُقال: "الجهل مصدر كل شر".

الشرطة السرية فى روسيا لم تكن أفضل من النازيين.

يقول النبى إشعياء: "يسجدون لعمل أيديهم، لما عملته أصابعهم، وينخفض الإنسان وينطرح ...."، وحين يتوقف الإنسان عن الإيمان بالخالق تعم الفوضى.

فقال "هرمان" وكأنه يكلم نفسه:

إنه الجنس البشرى.

تقول التوراة إن خيال الإنسان يجنح به إلى الشر منذ شبابه، وهذا سبب وجودها، نعم، اذهبا إلى هناك وتناقشا فى الأمر معًا.

وفتح السيد "إبراهيم ينسن" باب غرفة نوم، حيث يوجد سريران بها، وعليهما أغطية أوربية، وموضوعان بالطول، رأسًا لرأس، كما كان الحال فى البلد الأم، وهزت "تامارا" كتفيها ودخلت أولاً، وتبعها "هرمان"، وذكَّره ذلك بغرف العُرس التى يُصحَب إليها العِرسان والعرائس فى ليلة الزفاف منذ سنين مضت، وكانت نيويورك تسرع قُدمًا فى الخارج أما هنا خلف الستائر النصفية، فإن جزءًا من نالنتشيف أوتزيفكيف لا يزال حيًا، وكل شىء يَبْعث من جديد صورة السنوات الراحلة: اللون الأصفر الباهت للحيطان، السقف العالى، ألواح خشب الأرضية، بل طراز الخزانة ذات الأدراج، وتنجيد الكراسى ذات المرفقين أيضًا، ورأى "هرمان" ألا يمكن أن يختار مخرج مسرحى إطارًا ملائمًا لمسرحية أكثر من هذا، وشم رائحة سعوط، وجلس على كرسى منجد، وجلست"تامارا" على حافة سرير، وقال "هرمان":

لست فى حاجة إلى أن تخبرينى، إذا كنت قد قَدَّرت أنى مت، فإنك لابد بالتأكيد قد ..... مع آخرين...... ولم يستطع "هرمان "

مواصلة النقاش، وتبلل قميصه من جديد وفحصته "تامارا" بمكر، وقالت :

أتريد أن تعرف؟ كل شىء فى الحال؟

لستِ مضطرة إلى إخبارى، لقد كنت أمينًا معك واستحق ....

هل لك خيار؟ أنت مضطر إلى أن تخبرنى بالحقيقة، أنا زوجتك طبقًا للشريعة، وهو ما يعنى أن لك زوجتين، إنهم متشددون فى مثل هذه المسائل فى أمريكا، ولا يهم ما فعلته أنا، وأود أن تعرف شيئًا واحدًا: إن الحب ليس تسلية عندى.

أنا لم أقل إنه تسلية .

لقد جعلت من زواجنا صورة كاريكاتورية، لقد جئتك فتاة بريئة و ....

كفاك..

الحقيقة أنه لا يهم كما عانينا، ونحن لم نكن نعرف أبدًا عما إذ كنا سنحيا يومًا آخر أم لا، بل ساعة أخرى، إذ كنا نحتاج إلى الحب ونتشهاه أكثر حين كانت الأمور عادية، فقد نام الناس فى الملاجئ المحصنة تحت الأرض أو فى العُليات جَوعى ومُقملين، ولكنهم تبادلوا القُبل والتماسك بالأيدى، ولمَ أكن أظن أبدًا أن يكون الناس عاطفيين فى ظروف كهذه، لقد كنت عديمة القيمة تمامًا لديك، ولكن الناس كانوا يلتهموننى بأعينهم ساعدنى يا رب !، لقد قُتِل أولادى، وأراد الرجال أن أقيم معهم علاقات غرامية، وقدموا لى رغيفًا من الخبز أو قليلاً من الدهن أو امتيازًا فى العمل، ولا تتصور أن هذه الأمور كانت بسيطة، فقد كانت كِسرة الخبز حُلمًا، وبضع

ثمرات بطاطس ثروة، وكان ثمة تجارة مستمرة فى المعسكر طوال الوقت، بل عُقِدت صفقات أيضًا على بعد خطوات قليلة من غرفة الغاز وتجد البضاعة بالكامل متسعًا لها فى فردة حذاء، إذْ كانت هذه هى الكيفية التى يصون بها أولئك اليائسون حياتهم، ولاحقنى الرجال الوِسام والأصغر سنًا منى وأزواج النسوة رائعات المال، ووعدونى بالمستحيل، ولم يخطر ببالى أنك قد تكون حيًا، وحتى لو كنت حيًا، فأنت لست مدينًا لى بالولاء، على العكس، فقد رغبت أن أنساك، ولكن الرغبة شىء والقدرة على تنفيذها ثانية شىء آخر، إن الاضطرار إلى حب رجل أو إلى الجنس يثير اشمئزازى، بيد أنى اعتدت أن أحسد أولئك النسوة اللائى يعتبر الحب لديهن لهوًا، وقلت لنفسى وماذا إذا لم يكن لهوًا إذن ؟ على أن شيئًا بداخلى أوقفنى، الدم اللعين للجدات الورعات، جدات أمى، وقلت لنفسى إنى حمقاء لعينة، ولكن حين كان يلمسنى رجل كنت أفر؛ فظنوا أنى مجنونة، وكانوا على حق أيضًا وأطلقوا علىَّ وصف المنافقة وقد صار الرجال أجلافًا، إذْ حاول رجل ذو قدر عالٍ أن يغتصبنى، وفى وسط كل هذا شرع زملاء وزميلات المعسكر فى ترتيب زيجة لى، وقالوا جميعًا شيئًا واحدًا: "أنت صغيرة فى السن ويجب أن تتزوجى" ولكن أنت الذى تزوجت لا أنا، وثمة شىء واحد أعرفه أن الإله الرحيم الذى كنا نؤمن به غير موجود.

إذن لا يوجد شخص؟

لقد خاب ظنك، كلا، لاعلاقة لى بأحد، ولن تكون لى علاقة بأحد أبدًا ثانية، أود أن أقف طاهرة مُبرأة أمام أرواح أولادى.

أظن أنك قلتِ إن الإله غير موجود.

إذا كان الإله قادرًا على مشاهدة كل هذه الفظاعة، وظل ساكنًا، فهو ليس إذن إلهًا، لقد تحدثت بهذا الشأن إلى يهود أتقياء وحاخامات أيضًا، إذْ كان ثمة شاب فى معسكرنا ـ كان حاخامًا فى دزيكوف القديمة، وكان تقيًا للغاية ـ لم يبق أحد مثله، وكان عليه أن يعمل فى الغابة، مع أنه لم تكن لديه القوة لذلك، وكان أولئك الحُمر" يعرفون جيدًا أن عمله لا قيمة له، ولكن تعذيب حاخام كان يعتبر عملاً حميدًا، وفى أيام السُبوت لم يكن يأخذ حصته فى الخبز، لأن الشريعة تحرم حمل أى شىء فى السبت، كانت أمه، زوجة الحاخام العجوز، امرأة مقدسة، ويعلم الإله فى السماء وحده كم واست وطيَّبت خاطر الآخرين، وكيف أعطت آخر ما تملك لتساعدهم، ثم صارت عمياء نتيجة الظروف فى المعسكر، على أنها كانت تحفظ كل الصلوات عن ظهر قلب وتتلوها إلى آخر لحظة فى حياتها، وسألت ابنها ذات مرة : كيف يسمح الإله بهذه المآسى؟ فحاول أن يلتمس كل صنوف الأعذار والحجج، وقال: نحن لا نعرف كل سبل الإله "، وهلمَّ جرا، ولم أجادله، وأحسست بالمرارة، وحدثته عن ولدينا، فصار وجهه شاحبًا كالطباشير، وبدا عليه الخجل، وكأنه هو المسئول، وقال فى النهاية:

أرجوك لا تتكلمى أكثر من هذا.

نعم، نعم.

أنت لم تسأل عن الأولاد أيضًا.

فانتظر "هرمان" دقيقة، ثم قال :

ماذا هنالك لأسأل عنه؟

كلا، لا تسأل، كنت أعرف أن ثمة رجالاً عظامًا بين الراشدين، ولكن أن يصبح أطفال ـ أطفال صغار ـ عظامًا، فذلك ما لم أكن أصدقه، فقد بلغوا مبلغ الكبار بين عشية وضحاها، حاولت أن أعطيهم بعض أنصبتى، ولكنهم رفضوا أن يأكلوا شيئًا من نصيبى، ومضوا إلى الموت كالقديسين الأرواح موجودة، لا الإله، ولا تحاول أن تكذبنى، هذه قناعتى، وأريدك أن تعرف أن صغيرينا داوود ويوكابد قد جاءا إلىَّ وأنا صاحية لا فى أحلامى، أنت تظننى طبعًا مجنونة، على أن هذا لا يضايقنى بأي حال.

ماذا قالا لك؟

أوه، عدة أشياء، وأينما كانا، فهما طفلان من جديد، ماذا تريد أن تفعل؟ أن تطلقنى؟

كلا.

إذن، ماذا سأفعل؟ أأسكن مع زوجتك؟

قبل كل شىء، يجب أن تحصلى لنفسك على شقة.

نعم، لا يمكننى البقاء هنا.

■■■

الفصل الرابع

ـ ١ ـ

قال "هرمان" لنفسه: "طيب، المستحيل ممكن، وقد وقع فعلاً"، وسار قُدمًا فى الشارع الرابع عشر وهو يغمغم، فقد ترك "تامارا" فى منزل عمها، وهو فى طريقه إلى "ماشا " بعد أن كلمها بالتليفون من كافيتيريا فى إست بوردواى ليخبرها أن قريبًا له من بعيد من تزيفكيف قد وصل، وأعطى القريب اسم "فيفل لمبرجر" على سبيل التهكم، ووصفه بأنه باحث تلمودى فى الستينيات من عمره، فسألته "ماشا" : "هل أنت متأكد أنه ليس إيفا فراكفور صديقتك التى فى الثلاثينيات من العمر؟ "، فرد "هرمان" : "إذا أردت قدمتُك إليه"، وتوقف "هرمان" آنذاك عند صيدلية (درجستور) ليكلم "يادفيجا" بالتليفون، فوجد كل أكشاك التليفون مشغولة، وكان عليه أن ينتظر، إن الحدث فى ذاته لم يربكه كثيرًا، وإنما الذى أربكه احتمال أن تكون " تامارا" حية لم يرد قط فى كل ما تخيل أو تصور، ألا يحتمل أيضًا أن يكون الأولاد قد بُعِثوا من بين الموتى؟ إن صحيفة الحياة

ستُنشر ويعود ما كان مرة ثانية، وما دامت القوى تعبث به، فلا شك أن عندها المزيد فى جُعبتها له، ألم تخلق هتلر وستالين؟ وفى وسع المرء أن يركن إلى دهائها، وبعد عشر دقائق كانت كل أكشاك التليفون لا تزال مشغولة، وكان رجل يومئ برأسه ويشير بيده وهو يتكلم، وكأن المشارك على الطرف الآخر من الخط يراه، وكان ثانٍ يحرك شفتيه وكأنه فى مناجاة للنفس من غير أن يقاطعه أحد، وراح ثالث يتكلم ويدخن فى أثناء عد الفكة المطلوبة لإطالة المكالمة، وضحكت فتاة وهى تطيل النظر إلى أظافر يدها اليسرى الحمراء وكأن المحادثة مع المشارك بالتليفون متعلقة بتلك الأظافر وشكلها ولونها، وكان من الواضح أن كل متحدث متورط فى مشكلة تقتضى منه شروحًا واعتذارات وأضاليل، وكانت وجوههم تعبر عن الخداع والفضول والقلق، وأخيرًا خلا كشك، فدخل "هرمان" وهو يشم رائحة ودفء الرجل الآخر، وطلب الرقم، فردت "يادفيجا" فى الحال، وكأنها واقفة بجانب التليفون تنتظر، وقال هو:

عزيزتى الغالية، إنه أنا.

أوه، نعم.

كيف حالك؟

من أين تتكلم؟

من بلتيمور.

وتوقف "يادفيجا" عن الكلام ثانية، ثم قالت:

أين بلتيمور تلك؟ طيب، لا فرق عندى .

تبعد مئات قليلة من الأميال عن نيويورك أتسمعيننى بوضوح؟

نعم، بوضوح شديد.

أنا أحاول بيع الكتب.

هل يشترون؟

إنه عمل شاق، ولكنهم يشترون، هم الذين يدفعون لنا الإيجار، كيف يمضى اليوم عندك؟

فقالت "يادفيجا" وهى لا تدرك أنها تقول الأشياء عينها:

أوه، أغسل الملابس فى المغسلة، الأشياء هنا تتسخ بشدة، المغاسل هنا تمزق الملابس وتهلهلها.

كيف حال الطائرين؟

إنهما يزقزقان، إنهما معًا طوال اليوم ويقبل أحدهما الآخر.

مخلوقات محظوظة، سأقضى الليلة فى بلتيمور، وأنا ذاهب غدًا إلى واشنطن، وهى أيضًا بعيدة، ولكنى سأكلمك بالتليفون، فالتليفون لا يهتم بالمسافات، الكهرباء تحمل الصوت ثمانية آلاف ومائة ميل فى الثانية.

قال "هرمان" ذلك، وهو لا يدرى سبب اطلاعها على هذه المعلومة، ربما لأنه أراد ان يترك لديها انطباعًا بمدى بعده عنها، لكيلا تتوقع منه العودة سريعًا، وسمع زقزقة الطائرين، وسألها:

هل جاء أحد ليراك ؟ اعنى إحدى الجارات.

كلا، ولكن جرس الباب دق، ففتحته وبه السلسلة، فوجدت رجلاً واقفًا ومعه ماكينة لامتصاص الغبار، وأراد أن يرينى كيف تعمل، فقلت له إنى لا أستطيع أن أُدخل أحدًا بدونك.

لقد فعلت الصواب، إنه على الأرجح بائع مكانس كهربائية، ولكنه قد يكون لصًا أو قاتلاً أيضًا.

أنا لم أُدخِله.

ماذا ستفعلين الليلة؟

أوه، سأغسل أطباقًا، ثم تحتاج قمصانك للكى.

يمكن لبسها بدوى كى.

متى تتكلم بالتليفون؟

غدًا.

أين ستتناول العشاء؟

فى فيلادلفيا، أعنى بلتيمور، فهى ملآنة بالمطاعم.

لاتأكل أى لحم، فستدمر معدتك.

كل شىء مدمر على أي حال.

اذهب إلى الفراش مبكرًا.

حاضر، إنى أحبك.

متى ستعود إلى المنزل ؟

ليس قبل اليوم الذى بعد غد.

تعال حالاً، فإنى وحيدة بدونك.

وأنا أفتقدك أيضًا، سأحضر لك هدية.

وأعاد "هرمان" السماعة إلى موضعها.

وقال "هرمان" لنفسه : "روح لطيفة، كيف تبقى هذه الطيبة حية فى هذا العالم الفاسد؟ هذا لغز مُحير، إلا إذا كان المرء يؤمن بتناسخ الأرواح"، وتذكر تلميح "ماشا" إلى أن "يادفيجا" قد يكون لها عاشق، وفكر واعتراه الغضب : "هذا ليس حقيقيًا، إنها الإخلاص عينه " ورغم هذا ترك نفسه يتخيل بولنديًا يقف على مقربة منها حين تكلمه هو - أى هرمان - بالتليفون، وأن البولندى يمارس الخدع والألاعيب عينها التى ألفها هو، " طيب، يمكن للمرء أن يتيقن من شىء واحد فقط: الموت "، وفكر " هرمان " فى الحاخام "لامبرت"، فقد يفصله الأخير من العمل عنده نهائيًا إذا لم يتسلم الفصل الذى تعهد به له فى هذا اليوم، وهذا وقت دفع الإيجار فى برونكس وبروكلين، " سأسافر، إن هذا يفوق طاقتى كثيرًا، ستكون فى هذا نهايتى"، وعندما وصل "هرمان" إلى المحطة هبط الدرج المؤدى إلى القطار النفقى، " يا لها من حرارة مرتفعة ورطوبة ! "، وأخذ السود الصغار فى السن يجرون بسرعة، وهم يصيحون بلكنات إفريقية مثل معظم الإفريقيين فى نيويورك، وراح النسوة يدفع بعضهن البعض بالمناكب، وفساتينهن مبللة تحت الآباط، وهن يحملن لفاتهن وأكياس نقودهن، وتومض عيونهن بالغضب الشديد، ووضع " هرمان " يده فى جيب بنطلونه ليخرج المنديل، بيد أنه كان مبتلاً، وعلى رصيف المحطة كان ينتظر حشد كثيف، والأجساد يدفع الواحد منها الآخر، ودخل القطار المحطة بصفير حاد، كما لو كان سيطير من أمام المحطة مباشرة، وكانت العربات مكتظة آنذاك، واندفع الحشد الموجود على الرصيف ناحية الأبواب المفتوحة قبل أن يشق المسافرون داخل العربات طريقهم إلى خارجها، ودفعت " هرمان " قوة لا تقاوم إلى داخل العربات، دفعته أكواع وصدور وأوراك، واختفى وهم "الإرادة الحرة" هنا على الأقل، فهنا يندفع

الإنسان بقوة كالحصاة أو كالشهاب فى الفضاء، ووقف "هرمان"، وقد أطبق عليه الزحام، وحسد طوال القامة البالغين من الطول ست أقدام، فقد كان بوسعهم أن يستنشقوا الهواء البارد من مراوح التهوية، فلم يكن الجو حارًا هكذا فى مخزن التبن حتى خلال فصل الصيف، ولا بد أن اليهود قد حُشِرُوا معًا فى الشاحنات التى أقلتهم إلى غرف الغاز، وأغمض "هرمان" عينيه، ماذا عليه أن يفعل الآن؟ من أين يبدأ؟ فقد جاءت تامارا إلى أمريكا ولا ريب بدون نقود تقريبًا، وقد تتلقى بعض الدعم فى لجنة التوزيع المشتركة إذا أخفت حقيقة أن لها زوجًا، بيد أنها قالت ليس عندها نية خداع المحسنين الأمريكان، وهو الآن متزوج من اثنتين وله عشيقة أيضًا، ولو انكشف أمره لقبض عليه وُرحِّل إلى بولندا، يجب أن أستشير محاميًا فورًا"، ولكن كيف يشرح للمحامى هذا الوَضْع ، توجد حلول بسيطة لكل شىء عند المحامين الأمريكان: من التى تحبها؟، طلق الأخرى، أبحث عن عمل، اذهب إلى محلل نفسى، وتخيل القاضى وهو يحكم عليه ويشير بالسبابة قائلاً: "لقد أسات إلى كرم الضيافة الأمريكية"، واعترف لنفسه: "إنى أريدهن الثلاث جميعًا، هذه هى الحقيقة المخجلة"، فقد صارت "تامارا" أكثر جمالاً ولطفًا وإثارة للاهتمام، وعانت أكثر من ماشا أسوأ جحيم، وطلاقها يعنى دفعها لرجال آخرين، وأما عن الحب، فإن المحترفين يستعملون الكلمة كما لو أنها قادرة على تقديم تعريف واضح له، فى حين أن أحدًا لم يكتشف بعد معناه الحقيقى.

ـ ٢ ـ

كانت "ماشا" فى المنزل عندما وصل "هرمان"، وكان من الواضح أنها منشرحة الصدر، فنزعت السيجارة من بين شفتيها، وقبلته فى

فمه قبلة تامة، وسمع أزيز الطبخ منبعثًا من المطبخ، وشم رائحة اللحم المقلى والثوم وحساء البُرَّش والبطاطس الطازجة، وسمع صوت "شيفرابؤه"، وكان القدوم إلى هذا المنزل يثير شهيته للطعام، وكانت الأم والابنة تطبخان بلا انقطاع وتخبزان ويستعملان الأوانى والمقالى وألواح التمليح وألواح المكرونة، وذكَّره هذا بمنزل والديه فى تزيفكيف، وفى يوم السبت كانتا تُعدان اللحم بالخضر (الشولنت) والكيجل وكانت "ماشا" تؤكد أن شموع السبت مُضاءة وكأس التكريس مجلُوة والمائدة مُعدة طبقًا للشريعة والعرف؛ ربما لأنه يعيش مع غير يهودية، وكثيرًا ما استشارت "شيفرابؤه" "هرمان" فى مسائل الغذاء الشرعى: فقد غسلت ـ مثلاً ـ ملعقة لبن أو منتوجاته مع ملعقة لحم، وسقط دهن من شمعة على صينية، وليس للدجاجة مرارة، وتذكر رده بشأن المسألة الأخيرة: "ذوُقىِ الكبد، وانظرى إن كانت مُرة أم لا".

نعم، إنها مرة.

إذا كانت مُرة، فلحم الدجاج مُباح شرعًا.

وكان "هرمان" يأكل البطاطس والسكاف حين سألته "ماشا" عن ذاك القريب الذى اتصل به، فغُص حلقه بالطعام، ولم يتذكر الاسم الذى أعطاه لها بالتليفون، ومع ذلك أخذ يتكلم متحايلاً مثلما تعود.

أجل، لم أكن أعلم أن قريبى هذا حى.

رجل أم امرأة؟

قلت لك: رجل.

قلت أشياء كثيرة، من هو ؟ من أين؟

وعاد إليه الاسم الذى اختلقه، فليفل لمبرجر.

ما قرابته منك؟

من ناحية أمى.

كيف؟

ابن خالى.

اسم عائلة أمك قبل الزواج لمبرجر، يُخيَّل إلىَّ أنك ذكرت اسمًا آخر.

أنت مخطئة.

لقد قُلت فى التليفون إنه رجل فى الستينيات من عمره، فكيف يكون لك ابن خال عجوز هكذا؟

إن أمى أصغر واحدة فى عائلتها، وخالى يكبرها بعشرين عامًا.

ما اسم خالك ؟

طُوفِى.

- طُوفِى؟ كم كان عمر أمك حين توفيت؟

واحدًا وخمسين.

فقالت "ماشا" والحزَاز والارتياح مكتوبان على وجهها:

المسألة كلها مشكوك فى صحتها، إنها صديقة قديمة افتقدتك بشدة، فوضعت هذا الإعلان فى الصحيفة، لماذا نزعت الإعلان، أنت خائف أن أرى الاسم ورقم التليفون، اشتريت نسخة أخرى من

الصحيفة، سأتكلم حالاً فى التليفون وأكتشف الحقيقة، لقد شنقت نفسك، لقد شنقت نفسك بحزامك هذه المرة.

فأزاح "هرمان" طبقة، وقال:

لماذا لا تتكلمين حالاً، وتنهين هذا الاستجواب المضحك، هيا اطلبى الرقم، سئمت اتهاماتك البشعة ! فتغيرت تعبيرات وجهها، وقالت:

سأتكلم حين أود ذلك، لا تترك البطاطس تبرد.

إذا لم يكن لديك ثقة فىَّ مطلقًا؛ فلا معنى إذن لعلاقتنا كلها.

لا معنى لها بالتاكيد، على أي حال كُلّ البطاطس، إذا كان هذا ابن خالك، فلماذا تشير إليه بأنه قريب بعيد؟

كل الأقارب بُعَداء عندى.

عندك فتاتك غير اليهودية وأنا، وظهرت كلبة من أوربا، فتركتنى وجريت للقائها، عاهر أيضًا ـ على الأرجح ـ كتلك المصابة بمرض الزُّهرى وجاءت " شيفرابؤة " إلى المائدة، وقالت:

لماذا لا تدعينه يأكل ؟

فقالت "ماشا" مُهددة.

أمى لا تتدخلى.

أنا لا أتدخل، ألا يساوى كلامى شيئًا عندك؟ عندما يأكل لا تضايقيه بالشكاوى، أنا أعرف حالة ـ اللهم احفظنا ـ غُصِ فيها شخص حتى الموت...

فقالت "ماشا" ونصف كلامها موجه إلى "هرمان" والنصف الآخر إلى "أمها":

عندك حكاية لكل شىء، إنه كذاب ودجال، وهو أيضًا غبى، إذْ وهو يصنع أمرًا منكرًا من غير أن يدرك عواقبه.

والتقط "هرمان" ثمرة بطاطس صغيرة بملعقته، وكانت مستديرة وطازجة ومشبعة بالزيد ومرشوشة بالبقدونس، وكان على وشك أن يضعها فى فمه، بيد أنه توقف عن ذلك، فقد وجد زوجته وفقد خليلته، ترى هل ادخر له القدر هذا المقلب؟ ورغم أنه تدرب بحرص على تفاصيل ما سيقوله لـ"ماشا" عن قريبه، فقد رفضت ذاكرته أن تؤدى عملها، وقطع ثمرة البطاطس الصغيرة الطرية إلى نصفين بحافة الملعقة، وسأل نفسه: "هل أخبرها بالحقيقة؟ "، فلم يأته رد، ولكم هو غريب أن يحس "هرمان" بالهدوء رغم كربة! إنه استسلام المجرم المتلبس بجريمته الذى يتقبل العقاب المحتوم، وقال:

لماذا لم تتكلمى بالتليفون؟

كُلْ، سأحضر لك الزلابية.

فأكل البطاطس، وملأه كل قَدْر مما أكل بالبطاقة، فلم يكن قد تناول غداءً أو وجبه خفيفة، وقد استنزفت قواه أحداث اليوم، ورأى نفسه كالسجين الذى يتناول وجبته الأخيرة قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه، وستعرف "ماشا" الحقيقة عما قريب، ويطرده الحاخام "لامبرت" من عمله بالتأكيد، ومعه فى جيبه دولارات فقط، وهو لا يستطيع أن يطلب مساعدة الحكومة، وقد تنكشف حياته المزدوجة، فما نوع العمل الذى يمكن أن يجده؟، بل إنه عاجز عن الحصول على عمل غاسل أطباق، وقدمت له "ماشا" طبق بودنج وكومبوت تفاح مع الشاى، وكان قد عزم على العمل فى مسودة الحاخام بعد

العشاء، ولكنه أحس بثقل فى معدته، ولما شكر الأم والأبنة على الوجبة، قالت "شيفرابؤه":

لماذا شكرنا نحن ؟ اشكره هو فوق.

وأحضرت له سلطانية كى يغسل أصابعه فيها، فضلاً عن قلنسوة كى يتلو دعاء البركَة، ويغمغم "هرمان" بالمقطع الأول منه، وأوَى إلى غرفته، وملأت "ماشا" الحوض بالماء لغسل الأطباق، وكانت السماء لا تزال منيرة فى الخارج، وخُيِّل إلى "هرمان" أنه يسمع تغريد الطيور على شجرة الغناء الخارجى، بيد أن هذه لم تكن أصوات العصافير الدُّورية التى تصدع عادة بين الأغصان، وتلهى "هرمان" بفكرة أنها أرواح طيور عصر آخر، طيور من قبل زمن كولوميس، بل من زمن عصر ما قبل التاريخ أيضًا، طيور صحت من سُباتها، وغردت عند المساء، وهو كثيرًا ما وجد فى غرفته بالليل خنافس هى من الضخامة والغرابة بحيث لا يُصدق أنها نتاج هذا المناخ أو الزمن الحاضر،، وبدا له النهار أطول من أى نهار صيفى يتذكره، وتذكر كلام الفيلسوف "دافيد هيوم" أنه لا يوجد برهان منطقى على أن الشمس ستشرق فى الصباح التالى، وعلى هذا الأساس لا يوجد ضمان على ان الشمس ستغرب فى هذا النهار، وكان الجو حارًا، وكثيرًا ما تساءل لماذا لا تُضرم الغرفة النار فى نفسها بسبب درجة الحرارة المرتفعة، وفى الأماسى الشديدة الحرارة على وجه الخصوص يتخيل ألسنة النار مندلعة من السقف والحيطان وأغطية الفراش والكتب والمسودات، وتمدد على الفراش، وهو يغفو ويصحو بالتعاقب، وكانت "تامارا" قد سألت عن عنوانه ورقم تليفونه، على أنه بدلاً من ذلك أخبرها أنه سيكلمها بالتليفون فى المساء التالى، ما الذى يريده الجميع منه؟ أن

ينسوا بعض الوقت وحدتهم وحتمية الموت، إن بعض الناس ما زالوا يعتمدون عليه وهو الفقير الذى لا قيمة له، بيد أن "ماشا" هى التى تُكسِب حياته كلها معنى، فإذا قُدر لها أن تتركه فلن تزيد تامارا ويادفيجا عن كونهما أعباءً تثقله، ونام، فلما استيقظ كان الليل قد حل، وسمع "ماشا" وهى تتكلم فى التليفون فى الغرفة الأخرى، أهى تكلم السيد إبراهيم نيسن ياروسلافر؟ أم تُكلم تامارا؟، وأرهف "هرمان" السمع، كلا، إنها تتكلم مع أمينة الصندوق الأخرى فى الكافيتيريا، وقعد دقائق دخلت غرفته، وتكلمت فى شبه العتمة فقالت: هل أنت نائم؟

استيقظت منذ قليل.

لقد رقدت واستغرقت فى النوم على الفور، لا بد أن ضميرك صافٍ.

أنا لم أقتل أحدًا.

سيمكن للمرء أن يقتل بدون سكين.

ثم غيرت صوتها، وقالت:

هرمان، يمكن أن آخذ إجازتى الآن.

متى نبدأ؟

بوسعنا أن نغادر فى صباح يوم الأحد.

وصمت "هرمان" لحظة، ثم قال:

إن كل ما معى دولارات وبنسات قليلة.

أليس من المفروض أن تحصل على شيك من الحاخام؟

لست متأكدًا الآن.

أنت تريد البقاء مع فلاحتك، أو ربما مع واحدة أخرى، لقد وعدتنى طوال العام أن تأخذنى إلى الريف، بيد أنك تغير رأيك فى الدقيقة الأخيرة، لن أقول إن ليون تورتشينر بالقياس إليك رجل مخلص، إنه يكذب أيضًا وينجح دون إيذاء للآخرين، ويزعم أمورًا خيالية سخيفة هل أنت الذى نشرت هذا الإعلان لنفسك؟ لن أستغرب، كل ما أحتاج إليه أن أدير الرقم، وسأعرف مقالبك حالاً.

تكلمى فى التليفون وتحققى، مقابل سنتات قليلة ستعرفين الحقيقة.

من ذا الذى ستذهب لرؤيته؟

زوجتى الميتة تامارا، لقد بُعثت من القبر، وصقلت أظافرها وأتت إلى نيويورك.

نعم، طبعًا، ما الذى حدث بينك وبين الحاخام؟

تأخرت فى عملى.

لقد فعلت ذلك عن عمد لكيلا لا تذهب بعيدًا معى، أنا لا أحتاج إليك، فى صباح يوم الأحد سأعد حقيبتى وأذهب حيثما ترشدنى عيناى، إذا لم أخرج من هذه المدينة بضعة أيام، فسأجن، أنا لم أكن متعبة هكذا حتى فى المعسكر.

لماذا لا تستلقين على الفراش؟

شكرًا للاقتراح، لن يساعدنى الاستلقاء، إنى أستلقى، فأتذكر كل وحشية وإذلال، وإذا استغرقت فى النوم عدت إليهم فى الحال ليجرونى ويضربونى ويطاردونى، وهم يأتون حربًا من كل الجهات ككلاب الصيد وهى تجرى وراء أرنب برى، هل مات أحد من الكوابيس؟ انتظر، يجب أن أُحضر سيجارة.

وغادرت "ماشا" الغرفة، ونهض "هرمان" واقفًا، وأطل من النافذة وأضاءت السماء بنور شاحب كامد، وانتصبت الشجرة من أسفل بلا حراك وحمل الهواء روائح المستنقعات والمناطق الاستوائية، ودارت الأرض من الشرق إلى الغرب مثلما تصنع فى زمن سحيق، والشمس تنطلق بأقصى سرعة فى موضع ما وكواكبها من حولها، وتدور مجرة التبانة على محورها، ووسط كل هذه المغامرات الكونية وقف "هرمان" مجفنة من الحقيقة ومتاعبة المضحكة، ورأى أن الأمر يتطلب قطعة حبل ونقطة سم ويتلاشى معه كل شىء تمامًا، وسأل "هرمان" نفسه: لماذا لم تتكلم بالتليفون؟، ما الذى تنتظره؟ ربما تخاف من الحقيقة.

وعادت "ماشا" بسيجارة بين شفتيها، وقالت:

إذا أردت المجىء معى فسأدفع لك.

هل معك نقود؟

سأقترضها من النقابة.

أنت تعلمين أنى لا أستحقها .

كلا، ولكن إذا احتجت إلى لص، فعليك أن تنفذه فى المشنقة.

ـ ٣ ـ

اعتزم "هرمان" أن يقضى أيام الجمعة والسبت والأحد فى بروكلين مع "يادفيجا"وأن يذهب يوم الاثنين إلى الريف مع "ماشا"، وقد فرغ من الفصل وسلمه إلى الحاخام، ووعده ألا يتأخر فى عمله مرة أخرى، ولحسن حظه أن الحاخام كان مشغولاً دائمًا بحيث لم يجد الوقت لتنفيذ تهديداته، وأخذ الحاخام المخطوط، ودفع الأجر

لـ"هرمان" فى الحال، واستمر التليفونان الموضوعان على مكتب الحاخام يرنان، وكان الحاخام مسافرًا بالطائرة فى ذلك اليوم إلى ديترويت لإلقاء محاضرة، وعندما استأذن "هرمان" بالانصراف، هز الحاخام رأسه وكأنه يقول: "لا تظن أنك تخدعنى أيها الغرٌّ، فأنا أعرف أكثر مما تظن" ولم يعط يده بالكامل لـ"هرمان" ليصافحها، وإنما أعطاه أصبعين فقط، ولما بلغ "هرمان" الباب خاطبته السيدة "ريجل" السكرتيرة قائلة:

ماذا عن تليفونك؟

فقال: أعطيت الحاخام عنوانى .

وأغلق الباب خلفه.

وكان الأمر يبدو معجزة لـ"هرمان" فى كل مرة يتسلم فيها شيكًا من الحاخام "لامبرت"؛ ولذا صرف قيمة الشيك بسرعة قدر ما استطاع من البنك، وحمل النقود فى الجيب الخلفى للبنطلون ورغم خوفه من السرقة، وكان اليوم الجمعة والساعة الحادية عشرة والربع وفقًا لساعة الحائط فى البنك، وكان عند الحاخام مكتب فى الشارع" السابع والخمسون"، حيث يقع البنك أيضًا وقصد إلى بوردواى، "أيكلم تامارا؟" من الطريقة التى كلمته بها "ماشا" لم يشك فى أنها اتصلت تليفونيًا بالسيد "إبراهيم نيسن ياروسلافر"، وأنها تعرف الآن حتمًا أن تامارا بقيد الحياة، "فى هذه المرة سأبرز كل عظمة مكسورة"، وأدرك "هرمان" أنه يكرر عبارة كثيرًا ما يستعملها والده، ودخل "هرمان" محلاً تجاريًا ليتكلم فى التليفون، وطلب رقم السيد "إبراهيم ينسن ياروسلافر"، وبعد ثوانٍ قليلة سمع صوت "شيفاه هاداس" وهى تقول: "من المتكلم؟"، فقال مترددًا: "أنا هرمان برودر، زوج تامارا".

سأدعوها.

ولا يستطيع "هرمان" أن يقول كم من الوقت انتظر: دقيقة دقيقتين، خمس دقائق، وحقيقة أن "تامارا" لم تأت فورًا إنما يعنى فقط أن "ماشا" تكلمت بالتليفون، واخيرًا سمع صوت " تامارا " - بدا مختلفًا عن أمس، إذْ قالت بصوت عالٍ:

هرمان؟ أهو أنت؟

نعم، إنه أنا، ما زلت غير مصدق أن ما وقع قد وقع فعلاً.

طيب، لقد وقع فعلاً، هأنذا أطل من النافذة وأرى شارعًا فى نيويورك ممتلئًا باليهود، باركهم الله، بل إنى أسمع صوت تقطيع السمك.

أنت فى منطقة يسكنها يهود.

يوجد يهود فى إستكهولم أيضًا، يهود طيبون، إنهم يشبهون اليهود فى نالنتشيف بعض الشىء.

أجل، ما زال أثر منها حيًا، هل كلمك أحد بالتليفون؟

فلم ترد "تامارا" فى الحال، ثم قالت:

من كان ينبغى عليه أن يتكلم ؟ أنا لا أعرف أحدًا فى نيويورك، يوجد، ماذا يطلق عليهم؟ بَلَدِيَّاتنا، كان من المفروض أن يستعلم عمى عن بعضهم سرًا، ولكن ...

أنت لم تطلب تأجير غرفة بعد، ألست كذلك؟

ممن أطلب؟ أنا ذاهب إلى المنظمة يوم الاثنين، ربما يشيرون علىّ، لقد وعدت أن تكلمنى بالتليفون مساء أمس.

إن وعودى لا قيمة لها.

هذا غريب حقًا، فى روسيا كانت الأمور سيئة إلى حد ما، ولكن الناس كانوا معًا على الأقل، سواء كنا فى المعسكر، أو الغابة، كنا فريقًا من الأسرى، كنا نمكث معًا أيضًا فى إستكهولم، أما هنا فأنا وحيدة وأحس بأنى لا أنتمى إلى هذا المكان وأنا أطل من النافذة، هل تستطيع المجىء؟ عمى فى الخارج وعمتى تتسوق، بوسعنا أن نتكلم.

طيب، وهو كذلك، سآتى.

فقالت "تامارا" :

تعال؛ فقد كنا رغم كل شىء على صلة فيما مضى.

ووضعت سماعة التليفون.

وأقبلت سيارة أجرة فور أن خطا "هرمان" إلى الشارع، إنه يكسب بالكاد ما يكفى الحاجة، وعليه أن يسرع لكيلا لايحرم يادفيجا اليوم كله، وجلس فى السيارة، وانقلب الاضطراب الشديد داخل نفسه إلى ضحك، أجدل، تامارا هنا، وهذه ليست هَلْوَسة، وتوقف التاكسى، ودفع "هرمان" الأجرة وبقشيشًا للسائق، ودق الجرس، ففتحت "تامارا" الباب، وأول شىء لاحظه أنها أزالت الطلاء الأحمر من أظافرها، وكانت ترتدى فستانًا مختلفًا ذا لون أسود، وشعرها متشعث قليلاً، بل لاحظ أيضًا بضع جدائل وأنها عادت إلى أسلوب العالم القديم، فقد أحست أنه كان مستاءً حينما رآها ترتدى زيًا أمريكيًا، وقد بدت آنذاك أكبر سنًا، ولاحظ تجاعيد عند زوايا عينيها.

قالت: عمتى تركت المنزل منذ قليل.

ولم يكن "هرمان" قد قبل "تامارا" عند لقائهما الأول.

فبدرت منه حركة لتقبيلها، على أنها ابتعدت عنه، وقالت:

سأعد بعض الشاى.

شاى؟، تناولت الغداء منذ قليل.

فقالت بدلال نساء نالنتشيف:

أعتقد أنى اكتسبت من الحق أن أدعوك إلى تناول كوب من الشاى معى. فتبعها إلى غرفة الجلوس، وبدأت الغلاية فى المطبخ تصفر، فتركته "تامارا" لتعد الشاى، وبعد قليل حملت إليه صينية بها شاى وليمون وطبق كعك خبزته بالتأكيد "شيفا هاداس" ولم يكن الكعك متماثلاً فى الشكل، بل كان معقوفًا وملتويًا كالكعك المنزلى فى تزيفكيف، وانبعثت منه رائحة القرفة واللوز، ومضغ " "هرمان" كعكة، وكان كوب شايه ممتلئًا وساخنًا جدًا، وبه ملعقة من الفضة كامدة اللون، لقد نُقلت إلى هذا المكان بطريقة غريبة كل خصائص الحياة اليومية العادية للماضى اليهودى البولندى نزولاً إلى أدق التفاصيل، وجلست "تامارا" إلى المائدة، لا هى قريبة ولا هى بعيدًا من "هرمان"، على مسافة مناسبة للمرأة حين تجلس مع رجل قريب لها وليس زوجها، وقالت: إنى أطيل النظر إليك، ولا أصدق أنك أنت حقًا، أنا لا أجيز لنفسى أن أصدق شيئًا، فقده فقدَ كل شىء منظورة منذ جئت إلى هنا..

على أى نحو ؟

لقد نسيت تقريبًا كيف كانت الحياة تبدو هناك، ولن تصدق يا هرمان أنى أتمدد صاحية بالليل، ولا أذكر كيف التقينا أول مرة أو

كيف تقاربنا، بيد أنى أعرف أننا كنا نتشاجر كثيرًا ولا أدرى السبب، ويتخيَّل إلىَّ أن حياتى قد نُزِعت منى كما تنزع قشرة بصلة، وبدأت أنسى ما حدث لى فى روسيا، بل ما حدث لى مؤخرًا فى السويد أيضًا، فقد كنا نتحول من موضع إلى موضع ويعلم الله السبب، كانوا يعطوننا الأوراق، ثم ينزعونها منا مرة أخرى، ولا تسلنى عن عدد المرات التى كان علىَّ أن أوقع فيها باسمى فى الأسابيع القليلة الماضية!، لماذا يحتاجون إلى كل هذه التوقيعات؟ وكل ما يتعلق باسمى الزوجين: برودر، فأنا لدى الموظفون الرسميون مازلت زوجتك : تامارا برودر.

لا يمكن أن نكون غرباء أبدًا.

أنت تقول ذلك ولا تعنيه؛ فقد سليت نفسك بسرعة جدًا مع خادمة أمك، على حين أن أولادى - أولادك مازالوا يأتون إلىَّ، دعنا لا نتكلم فى هذا الأمر بعد ذلك، الأفضل أن تخبرنى كيف تعيش، هل هى زوجة طيبة على الأقل؟ لقد كان عندك آلاف الشكاوى منى.

ماذا أتوقع منها؟ إنها تؤدى الأشياء عينها التى كانت تؤديها حينما كانت خادمتنا.

هرمان، بوسعك أن تخبرنى بكل شىء، أولاً: لأننا كنا معًا فيما مضى، ثانيًا: لأنى كما أخبرتك من قبل لم أعد أرى نفسى جزءًا من هذا العالم، وربما أستطيع أن أساعدك أيضًا.

كيف ؟ حين يختبئ رجل فى عُلّية على مدى سنوات، فإنه يتوقف عن أن يكون جزءًا من المجتمع، الحقيقة أنى مازلتُ مختبئًا فى عُلّية بأمريكا، أنتِ قلتِ هذا بنفسك مؤخرًا.

طيب، لا يحتاج اثنان من الموتى بالتأكيد إلى أن يُخفى أحدهما أسرارًا عن الآخر، مادمت قد صنعت ما صنعت، فلماذا لا تجد عملاً لائقًا لك ؟ الكتابة لحاخام ليست وسيلة لإقامة حياة.

ما الذى يمكن أن أفعله غير ذلك ؟ لكى تأمنى على حياتك عليك أن تكونى قوية ومنتمية إلى نقابة، وهو ما يسمونه هنا منظمات أو تكتلات العمال، ومن الصعب جدًا الانضمام إلى إحداها، غير أن....

لقد رحل أولادك، فلماذا لا يكون عندك طفل منها ؟

لعلكِ مازلت قادرة على إنجاب أطفال.

لِم؟ ألكى يجد غير اليهود من يحرقونه ؟ الحياة هنا خاوية إلى حد رهيب التقيت امرأة كانت فى المعسكر أيضًا فقدت الجميع، ولكن عندها الآن زوج جديد وأطفال، عاد كثير من الناس إلى سابق عهدهم من كل الوجوه وظل عمى يُلحّ علىَّ - إلى وقت متأخر من الليل - أن تحدث إليك ونصل إلى قرار، إنهم أناس رائعون وصُرحاء بعض الشىء، قال عمى إن عليك أن تطلق الأخرى، فإذا لم تطلقها فيجب أن تطلقنى أنا، وألمح أيضًا إلى أنه عازم على ترك شىء من الميراث لى، عندهم جواب واحد لكل شىء: إنها إرادة الله، وبسبب هذا الاعتقاد اجتازوا كل جحيم، وظلوا سالمين أصحاءَ فقال "هرمان" :

لا يمكن أن أحصل على طلاق يهودى؛ لأننا لم نتزوج طبقًا للشريعة اليهودية.

فسألته "تامارا" .

هل أنت مخلص لها على الأقل؟ أم أن عندك ستًا أخريات؟

فتوقف "هرمان" قليلاً، ثم قال:

هل تودين أن أعترف لك بكل شىء؟

الأحسن أن أعرفه.

الحقيقة أن لدىّ خليلة.

فأبتسمت "تامارا" على نحو خفيف قائلة:

هذا ما ظننته، فما الذى بوسعك أن تتحدث فيه مع يادفيجا؟ إنها فردة حذاء يمنى فى قدم يسرى، من هى خليلتك.

من هناك، من المعسكرات.

- لماذا لم تتزوجها بدلاً من الفلاحة؟

إن لها زوجًا، وهو لن يطلقها مع أنهما لا يعيشان معًا.

أرى أن لم يتغير شىء فيك، على أي حال هل صارحتنى بالحقيقة أم أنك مازلت تُخفى شيئًا ما ؟

لم أُخفِ شيئًا.

يستوى عندى أن يكون عندك واحدة أم اثنتان أم دستة، إذا كنت أنت غير مخلص لى مع أنى صغيرة فى السن وجميلة، لست قبيحة على الأقل، فلماذا تكون مخلصًا لفلاحة هى فوق ذلك غير جذابة؟ طيب، وهل تقبل محبوبتك هذا الوضع؟

لا خيار عندها، فزوجها لن يُطلّقها، وهى تحبنى.

وهل تحبها أنت أيضًا؟

لا أستطيع العيش بدونها.

حسنًا، حسن أن أسمع منك هذا الكلام، أهى جميلة ؟ ذكية؟ جذابة؟

إنها الثلاث جميعًا.

كيف تدير أمورك ؟ هل تندفع بسرعة من واحدة إلى الأخرى؟

إنى أبذل ما فى وسعى.

أنت لم تتعلم شيئًا، لا شىء بالقطع، كنت سأظل على سابق عهدى لو لم أرَ ما فعلوه بأولادنا، حاول الجميع مواساتى بقولهم إن الزمن كفيل بمداواتى، على أن ما حدث هو العكس تمامًا، فكلما تباعد الزمن تقيحت الجروح أكثر، يجب أن أحصل على غرفة فى مكان ما يا هرمان؛ لأنى لا أستطيع العيش مع أحد بعد الآن، كان العيش أسهل مع زملائى الأسرى، وحين كنت لا أريد الاستماع إليهم كنتُ أقول لهم ببساطة أن ينصرفوا ويضايقوا شخصًا آخر، بيد أنى لا أستطيع أن أكلم عمى بهذه الطريقة، فهو كالأب بالنسبة إلىَّ، وأنا لا أحتاج إلى الطلاق؛ لأنى لن أعيش أبدًا مع أحد مرة أخرى، إلا إذا كنت تريدنى طبعًا، وفى هذه الحالة ....

كلا، يا تامارا، أنا لا أريد طلاقًا، فإن المشاعر التى أكنها لك لاتستطيع أخرى أن تنتزعها.

أى مشاعر ؟ أنت تخدع الآخرين، طيب، أنت لا تستطيع أن تغير هذا أنت فى الحقيقة تخدع نفسك، أنا لا أريد أن أعظك، ولا خير يأتى من هذه "اللخبطة" إنى أنظر إليك وأفكر، هذه هى الطريقة التى يبدو بها الحيوان عندما يحيط به الصيادون، ولا يستطيع الهرب، ما نوع هذه الخليلة؟

مجنونة قليلاً، ولكنها ممتعة إلى أبعد الحدود.

هل عندها أولاد؟

لا.

هل هى صغيرة فى السن إلى خد يكفى لإنجاب طفل.

نعم، ولكنها لا تريد أطفالاً أيضًا.

أنت تكذب يا هرمان، إذا أحبت امرأة رجلاً، فإنها تود أن تنجب طفلاً منه؛ لأنها تريد أن تكون زوجته أيضًا، ولا تجعله يفر منها إلى امرأة أخرى، لماذا هى ليست على وئام مع زوجها؟

أوه، إنه دجال، وطُفَيلى، ومتشرد، فقد خلع على نفسه لقب دكتور، ويأخذ النقود من النسوة العجائز.

سامحنى، ما الذى حصلت عليه عوضًا عن ذلك؟ رجل له زوجتان ويكتب المواعظ لحاخام زائف، هل أخبرت خليلتك عنى؟

ليس بعد، ولكنها قرأت الإعلان فى الصحيفة، وهى مرتابة، وربما تتكلم بالتليفون فى أى وقت، أو ربما تكون قد تكلمت فعلا.

لم يكلمنى أحد، ماذا أقول إذا تكلمت؟ إنى أختك، هذا ما قالته سارة لأبي مالك بشأن إبراهيم.

لقد أخبرتها عن ابن خال ظهر لى يُدعى فيفل لمبرجر.

هل أخبرها أنى فيفل لمبرجر؟

وانفجرت "تامارا" ضاحكة، وتغيرت هيئتها بالكامل، وأشرقت عيناها ببهجة لم يلحظها من قبل، وظهرت غمازة فى خدها الأيسر، وللحظة بدت عابثة على نحو بَناتىّ، ونهض من مقعده، ووقفت هى أيضًا، وقالت:

، هل أنت ذاهب سريعًا هكذا؟

تامارا ليست غلطتنا أن العالم قد انهار.

ما الذى علىّ أن آمله ؟ أن أصبح عجلة ثالثة فى عربتك المكسورة، دعنا ألا نفسد الماضى، فقد تقاسمنا سنوات كثيرة، وستظل هذه السنوات أسعد سنوات حياتى رغم كل تصرفاتك الحمقاء.

واستمرا فى الحديث وهما واقفان فى الرَّدهة قُرب باب الشقة، وكانت "تامارا" قد سمعت أن زوجة ابن حاخام من ديزكوف القديمة بقيد الحياة، وهى على وشك أن تتزوج من جديد؛ إذْ مات زوجها، وهى تحتاج بوصفها امرأة متدينة أن تعفى من التزوج بأخيه، فهذا الأخ صاحب فكر حر، ويعيش فى مكان ما فى أمريكا.

وقالت "تامارا":

لقد كنت محظوظة بمعرفة هؤلاء القديسين والقديسات على الأقل ربما كان هذا مقصد الإله من مغامراتى التعيسة.

واقتربت فجأة من "هرمان" وقبلته فى فمه، وقد وقع هذا بسرعة بحيث لم تكن لديه فرصة أن يبادلها قبلتها، وحاول أن يحتضنها، بيد أنها راغت منه بسرعة، وهى تشير إليه أن ينصرف.

ـ ٤ ـ

لم يكن يوم الجمعة فى بروكلين مختلفًا عنه فى تزيفكيف، ومع أن "يادفيجا" لم يكن قد تهودت بعد، فقد حاولت أن تراعى الشعائر اليهودية التقليدية، وتذكرت تلك الشعائر وقت أن عملت خادمة عند والدىّ "هرمان" فقد اشترت خبز الحالا، وخبزت كعك السبت

الصغير الخاص، ومع أنه لم يكن لديها هنا فى أمريكا الفرن المناسب لطبخ اللحم بالخضر (الشولنت)، فقد علمتها جارة لها أن تغطى عيون فرن الغاز بوقاء من الأسبستوس لكيلا يحترق الطعام وليبقى ساخنًا خلال يوم السبت، كذلك اشترت من شارع مرميد النبيذ والشموع المطلوبة لتلاوة دعاء البركة، وقد وصلت فى مرحلة ما على شمعدانين من النحاس الأصفر، ورغم أنها لم تكن تعرف كيف تتلقط بالبركة، فقد كانت تغطى عينيها بأصابعها للحظة بعد إيقاد شموع السبت، وتغمغم بشىء ما مثلما كانت ترى أم "هرمان" وهى تفعل ذلك، ولكن "هرمان" اليهودى تجاهل السبت، فكان يضىء الأنوار ويطفئها مع أن هذا منهى عنه، وبعد وجبة من السمك والأرز والفاصوليا ومطبوخ الدجاج والجزر على نار هادئة كان يجلس للكتابة مع أن هذا منهى عنه تمامًا أيضًا، وعندما تسأله "يادفيجا" عن سبب انتهاكه لوصية الإله كان يقول : "لا يوجد إله، هل تسمعين؟ حتى لو كان هناك إله فسأعصيه "، ورغم أن "هرمان" قد تقاضى أجره، فقد بدا أكثر قلقًا من ذى قبل فى يوم الجمعة هذا، وسأل "يادفيجا" مرات عدة عما إذا كان أحد قد تكلم بالتليفون، وبين تناول السمك والمَرَق أخذ مفكرة وقلم حبر من جيب صدره ودون شيئًا بسرعة وإيجاز، وفى أمسيات الجُمع حين يكون "رائق المزاج كان يتغنى بأناشيد المائدة، أناشيد والده مثل أنشودة " "السلام عليكم" وأنشودة "المرأة الفاضلة "، الأناشيد التى كان يترجمها إلى البولندية لـ "يادفيجا" والأنشودة الأولى تحية للملائكة الذين يرافقون اليهود فى يوم السبت عند خروجهم من الكنيس إلى المنزل، أما الأخيرة فمديح للزوجة العفيفة الأندر من اللؤلؤة، وقد ترجم لها ذات مرة ترنيمة عن بستان تفاح، عن عريس محب

وعروس مثقلة بالجوهر، وهى تصف الملاطفات التى لا تصلح - طبقًا لرأى "يادفيجا" - لترنيمة مقدسة، فأوضح لها أن الترنيمة كتبها قبالى يُلقب بـ الأسد المقدس"، وهو مُؤلِّف أعجوبة ظهر له النبى "إيليّا"، والزفاف الوارد ذكره فى الترنيمة يحدث فى قصور سماوية، وكان خدا "يادفيجا" يحمران حين يردد "هرمان" هذه الأناشيد الدينية أو الترانيم وتصير عيناها أكثر إشراقًا وتمتلئان بالبهجة يوم السبت، على أنه كان فى تلك الليلة صامتًا ومنفعلاً، فقد ارتابت "يادفيجا" من أنه يقضى الوقت أحيانًا فى رحلات مع نسوة أخريات، وأنه ربما يريد أحيانًا امرأة تقرأ تلك الحروف الدقيقة، هل يعرف الرجل حقًا ماهو أفضل شىء له ؟ لكم تخدع الرجل بسهولة كلمة أو ابتسامة أو إشارة؟ وخلال الأسبوع كانت "يادفيجا" تغطى قفص الببغاءين فور مجىء المساء، أما فى عشية السبت فتبقيهما إلى وقت متأخر، وكان "فويتس" الذكر يغنى مع "هرمان" ويمسى فى حالة من الانتشار والسقسقة والارتعاش ويطير مُحلقًا، أما فى تلك الليلة فلم يغن "هرمان"، وجثم "فوتيس" على سقف القفص يسوِّى ريشه بمنقاره، وسألت: "يادفيجا" هل حدث شىء؟ فقال "هرمان" : لا شىء ، لا شىء.

وتركت "يادفيجا" الغرفة، وذهبت لتغير أغطية السرير، وأظل "هرمان" من النافذة، وكانت "ماشا" تكلمه بالتليفون فى ليالى الجُمع عمومًا، ولم تكن تستعمل التليفون فى منزلها قط يوم السبت لكيلا تغضب أمها، وكانت تخرج لشراء السجائر وتكلمه من تليفون الدكان المجاور، أما فى تلك الليلة فقد ظل التليفون صامتًا، وتوقع "هرمان" أن تنفجر الفضيحة فى أي لحظة، إذْ قرأت "ماشا" الإعلان فى الصحيفة، وكانت الكذبة التى اختلقها واضحة جدًا، ومن المحتم أن

تكتشف "ماشا" فى أقرب وقت أنه لم يكن يمزح بشأن عودة "تامارا" فقد كررت مرات عديدة أمس اسم ابن خاله الزائف "فيفل لمبرجر"، كررته بلهجة الظفر المشوب بالغيرة، وهى تغمز بعينها ساخرة، وكان من الواضح أنها ترجئ الهجوم عليه، ربما لكيلا لا تُفسد عطلتها الأسبوعية معا والمقرر لها أن تبدأ يوم الاثنين، وبقدر ما استشعر الاطمئنان من ناحية "يادفيجا" لم يكن متأكدًا ألبتة من "ماشا" إذْ لم تقبل قط حقيقة أنه يعيش مع امرأة أخرى، وتهكمت عليه قائلة إنها ستعود إلى "ليون تورتشينر"، وكان "هرمان" يدرك أن الرجال يلاحقونها وكثيرًا ما لاحظهم فى الكافيتيريا وهم يحاولون شغلها بالحديث معهم ويطلبون منها عنوانها ورقم تليفونها ويتركون لها بطاقاتهم، وكان القائمون على الكافيتيريا ابتداءً من المالك حتى غَسَّال الأطباق البورتويكى ينظرون إليها بطمع، بل إن النسوة كن يُعْجَبن بقدها الرشيق وجيدها الطويل وخصرها الضيق وساقيها المشوقتين وبشرتها البيضاء، ما القوة التى عندها للاحتفاظ بها؟ كم يدوم هذا؟ لقد حاول مرات لا حصر لها أن يرتب نفسه لليوم الذى سيقطع فيه علاقته بماشا، وها هو ذا الآن يقف مطلاً على الشارع المُضاء على نحو خافت وعلى أوراق الشجر الساكنة، ومتطلعًا إلى السماء التى تعكس أضواء جزيرة كُونى، وإلى المسنين والمسنات الذين وضعوا الكراسى حول مدخل الباب، وقد انهمكوا فى أحاديث طويلة ممطوطة، أحاديث أناس لم يعد لديهم ما يأملونه أكثر، وضعت "يادفيجا" يدها على كتفه قائلة: الفراش جاهزة، أغطيته نظيفة. أطفأ "هرمان" الأضواء فى غرفة الجلوس تاركًا الوهج الضعيف للشموع الخافتة، وذهبت "يادفيجا" إلى الحمام، فقد جلبت معها من القرية الطقوس النسوية التى لم تخفق قط فى

أدائها: فقد شطفت فمها قبل الذهاب إلى الفراش، واغتسلت، وسرحت شعرها، فقد كانت تبقى نفسها نظيفة فى ليبسك أيضًا، وهى هنا فى امريكا تلتقط من محطة الراديو البولندية كل صنوف النصح المتعلقة بالصحة، وحين هبط الظلام أبدى "فوتيس" اعتراضه الأخير وحلق داخل القفص هو و"ماريانا"، ووقف بثبات على المجثم بجانبها، حيث ظلا بلا حراك حتى شروق الشمس، ربما يستطيبان طعم الراحة الكبرى التى تأتى مع الموت، مُخلص الآدميين والحيوانات، وخلع "هرمان" ملابسه ببطء، وتخيل "تامارا" وهى تستلقى على الكنبة فى منزل عمها صاحية وعيناها تحملقان فى الظلام، كما تخيل أيضًا "ماشا" وهى واقفة على الأرجح بالقرب من كروتونا بارك أو فى شارع ترمونت وهى تدخن السجائر، ويصفر لها الغلمان الذين يمرون من أمامها، وربما وقفت سيارة وحاول شخص أن يُركبها معه، أو ربما كانت راكبة فعلاً مع شخص، ورن التليفون، فأسرع "هرمان" للرد عليه، وانطفأت إحدى شمعتى السبت أما الأخرى فظلت تطقطق، والتقط السماعة وهمس "ماشا"، وساد الصمت للحظة، ثم قالت هى:

هل أنت نائم على السرير مع فلاحتك؟

كلا، لست نائمًا معها على السرير.

أين أنت إذن ؟ تحت السرير.

فسألها "هرمان" : أين أنت؟

وهل يفرق عندك أين أنا؟

بوسعك أن تكون معى بدلاً من أن تقضى لياليك مع بلهاء من ليبسك، وعندك أخريات أيضًا، عندك ابن خالك فيفل لمبرجر، وهو

في الحقيقة عاهر سمينة من الصنف الذى تحبه، هل نمت معها أيضًا؟

ليس بعد.

من تكون، إنك تحسن عملاً لو قلت لى الحقيقة.

قلت: تامارا بقيد الحياة، وهى هنا.

تامارا ميتة وتعفنت فى الأرض، فيفل إحدى محبوباتك.

- أقسم بعظام والدىَّ إنها ليست محبوبة.

وكان ثمة صمت كثيف على الطرف الآخر من الخط.

وأصرت "ماشا" قائلة: خبرنى من هى.

قريبة لى، امرأة مكسورة فقدت أطفالها، "الرابطة" أحضرتها إلى أمريكا.

فسألته "ماشا" : إذن، لماذا قلت إنها لمبرجر؟

لأنى أعرف كم أنت شكاكة؛ إذا سمعت ذكر امرأة، ظننت فى الحال أن ....

كم عمرها؟

أكبر منى سنًا، بقايا متناثرة، هل تظنين حقًا إن الحاخام إبراهيم نيسن ياروسلافر ينشر إعلانًا فى الصحيفة بشأن محبوبة تخصنى؟ إنهم أناس أتقيا، قلت لك اتصلى بهم تليفونيًا وتبينى بنفسك.

طيب، ربما تكون بريئًا هذه المرة، لن تعرف أبدًا ما مررت به خلال الأيام القليلة الماضية.

أيتها الحمقاء الصغيرة، غنى أحبك، أين أنت الآن؟

أين أنا؟ فى دكان حلوى من شارع ترمونت، سرت من الشارع أدخن، فكانت تتوقف سيارة كل بضع دقائق، وأراد بعض الأوباش أن يركبونى معهم، وصفر لى الأولاد كما لو كنت فتاة فى الثامنة عشرة، ما الذى يرونه فىّ؟ لا أدرى أبدًا، إلى أين ستذهب يوم الاثنين؟

سنجد مكانًا ما.

أخاف أن أترك أمى وحدها، ماذا يحدث لو هوجمت؟ قد تموت ولن يصيح ذيك.

اطلبى من إحدى الجارات أن يهتم بها.

إنى أتجنب الجارات، لا أستطيع أن أزورهن فجأة وأطلب منهن معروفًا، فضلاً عن أن أمى تخاف الناس، وإذا خبط أحد على الباب ظنته هى نازيًا، يجب أن يستمتع أعداء إسرائيل بالحياة بقدر ما أنا مستمتعة بفكرة هذه الرحلة.

إذا كان الأمر كذلك، فلنبق فى هذه المدينة.

لقد افتقدت رؤية العشب الأخضر وتنفس الهواء النقى، لم يكن الهواء ملوثًا، كما هو هنا، سأصحب أمى معى مع أنى فى نظرها ساقطة، لقد أنزل الإله بها كل أشكال البؤس، وهى ترتعش مخافة ألا تكون قائمة بما يكفى نحوه، الحقيقة أن ما أراده هو إرادة هتلر.

إذن، لماذا توقد شموع السبت؟ ولماذا تصوم فى عيد الغفران؟

ـ ليس من أجله، الإله الحقيقى يكرهنا، لقد اخترعنا وثنًا أحبنا وجعلنا شعبه المختار، وأنتِ قلت بنفسك: "غير اليهودى" يصنع آلهة

من الحجر، ونحن نصنعها من الأفكار المجردة"، ما الوقت الذى ستكونين فيه هنا يوم الأحد؟

الساعة الرابعة.

كذلك أنت إله وقاتل، حسنًا طاب سبتك.

ـ ٥ ـ

ركب "هرمان" و "ماشا" أتوبيسًا إلى أديرونداكس ونزلا عند بحيرة جورج بعد رحلة دامت ست ساعات، وهناك وجدا غرفة مقابل سبعة دولارات، وقررا أن يمكثا الليلة، وكانا قد بدأا بدون خطة البتة، وكان "هرمان" قد وجد خريطة لولاية نيويورك على مقعد فى متنزه، فكانت هذه دليله، وكانت غرفته هو و " ماشا " تطل على البحيرة والتلال، وكان النسيم الداخل يحمل معه شذا أشجار الصنوبر، وكان ثمة موسيقى بعيدة، وقد أحضرت "ماشا" معها سلة طعام أعدته هى وأمها: زلابية وبودنج وكومبوت تفاح وخوخ وزبيب وكعكة منزلية الصنع، ووقفت "ماشا" تدخن وهى تطل من النافذة على زوارق التجديف والزوارق ذات المحرك فى البحيرة، وقالت مازحة: " أين النازيون؟ كيف يكون العالم بدونهم؟ أمريكا هذه بلد متخلف "، وكانت قبل مغادرتها قد اشترت زجاجة كونياك ببعض من أجر الإجازة، فقد تعلمت الشرب فى روسيا، وتناول "هرمان" رشقة واحدة من كوبه الورقى، أما هى فظلت تملأ كوبها كلما فرغ، وصارت مرحة أكثر فأكثر، وهى تغنى وتصفر، فقد تلقت دروسًا فى الرقص فى وقت مبكر من طفولتها، وذكرت "هرمان" وهى منسابة ومرتدية جوربها النايلون والسيجارة متدلية من بين شفتيها، ذكرته باستعراضات فتاة فى السيرك، السيرك الذى اعتاد

أن يجىء إلى تزيفكيف، وغنت "ماشا" باليدية والعبرية والروسية والبولندية، وطلبت من "هرمان" أن يرقص معها، وحثته بصوت مخمو قائلة: "هيّا يا صبى المعهد الدينى، لنرَ ما يمكنك أن تفعله"، وذهبا إلى الفراش مبكرًا، على أن ليلتهما كانت مملوءة بالإعاقات، فكانت تنام ساعة ثم تصحو، وكانت تريد القيام بكل شىء فى وقت واحد: أن تجامع وتدخن وتشرب وتتكلم، وتدلى القمر قريبًا من الماء، وطرطش السمك، واهتزت النجوم كالفوانيس الصغيرة جدًا، وروت "ماشا" لـ "هرمان" أثارت عنده الغضب والغيرة، وفى الصباح جمعا أمتعهما، وركبا أتوبيسًا من جديد، وقضيا الليلة التالية عند بحيرة سكرون فى منزل مكون من طبقة واحدة قُرب الماء، وكان الجو باردًا إلى حد أنهما وضعا ملابسهما فوق البطاطين للاحتفاظ بالدفء، وبعد الإفطار فى الصباح التالى استأجرا زورقًا، وجدف "هرمان" فى حين تمددت "ماشا " على متن الزورق لتدفئ نفسها تحت الشمس، وتخيل "هرمان" أنه يستطيع قراءة أفكارها من خلال جبينها وجفونها المغلقة وسرح ذهنه كم هو رائع أن يكون المرء فى أمريكا، أن يكون فى بلد حر بغير خوف من النازيين والبوليس السرى للاتحاد السوفيتى وحرس الحدود والمخبرين، وهو ـ إلى ذلك ـ لم يحضر معه الأوراق الأولى، المبدئية؛ إذْ لا يُسأل أحد فى الولايات المتحدة عن مستندات، ولكنه لم ينس تمامًا أن يادفيجا تنتظره فى شارع يقع بين شارعى مرميد ونبتون، وأن تامارا فى إست بوردواى فى منزل السيد "إبراهين نيسن ياروسلافر"، تامارا التى عادت وتنتظر منه كسرة خبز يلقيها فى طريقها؛ ولذا فإنه لن يكون حرًا تمامًا بسبب حقوق أولئك النسوة التى تقع على عاتقه، بل إن للحاخام الحق فى أن يتذمر منه، وإن رفض صداقته التى أراد

أن يفرضها عليه، ومع أنه كان محاطًا بسماء فاتحة الزرقة وماء يجمع بين اللونين الأخضر والأصفر، فقد كان أقل إحساسًا بالذنب، وقد أعلنت الطيور عن مولد يوم جديد وكأنه صباح ما بعد خلق العالم، وحملت النسمات الباردة رائحة الأحراج والطعام الذى تعده الفنادق، وتخيل "هرمان" أنه يسمع صياح دجاجة أو بطة تُذبح فى مكان ما فى هذا الصباح الصيفى البديع، إن تريبلينكا فى كل مكان.
ونفد مخزون "ماشا" من الطعام، ولكنها رفضت أن تأكل فى مطعم، ومضت إلى السوق، واشترت خبزًا وطماطم وجبنًا وتفاحًا، وعادت محملة بالمواد الغذائية الكافية لإطعام عائلة بأكملها، ورغم رعونتها وعبثها كانت لديها غرائز أم، فلم تكن ـ كالنسوة المسرفات ـ تبدد النقود فيما لا فائدة منه، وفى المنزل وجدت موقد نَفْطة صغير صنعت عليه القهوة، فذكرتها رائحة النفطة والدخان بسنوات التلمذة فى وارسو، ودخل من النافذة المفتوحة الذباب والنحل والفراش، واستقر الذباب على بعض السكر الواقع على الأرض، وحلقت فراشة فوق قطعة خبز، وبدا أنها مستمتعة برائحتها، ولم تكن هذه طفيليات فى نظر "هرمان" يجب إبعادها، فقد كان يرى فى كل مخلوق من هذه المخلوقات دلائل إرادة خالدة للعيش والخبرة والفهم، وحَكَّت ذبابة ساقيها الخلفيتين معًا وهى تمد قرنى استشعارها ناحية الطعام، وذَكَّر "هرمان" جناحا الفراشة بشال الصلاة، ونشطت نحلة وأخذت تطن وطارت من جديد، وراحت نحلة تدب عبر المائدة، وقد بقيت حية بعد ليلة باردة، ولكن إلى أين؟ وتوقفت عند كسرة خبز، ثم واصلت السير جيئة وذهابًا فى خط متعرج، إذْ فصلت نفسها عن قرية النمل، وهى الآن مضطرة إلى أن تتبين طريقها بنفسها ودون مساعدة. من أحد، ومن بحيرة

سكرون ذهب "هرمان" إلى بحيرة بلاسيد، وهنالك وجدا غرفة فى منزل على تل، وكان كل شىء فى المنزل قديمًا غير أنه نظيف لا عيب فيه : الرَّدهة، الدرج، الصور والزخارف المعلقة على الحيطان، المنشفة بشعارها المطرز والمستوردة فى ألمانيا والمتبقية من أيام ما قبل الحرب، واستقرت على السرير العريض وسائد مكتنزة مثل تلك الموجودة فى الفنادق الأوربية الصغيرة، أما النافذة فتطل على الجبال، وغربت الشمس، وألقت بمربعات أرجوانية على الحيطان، وبعد قليل هبط "هرمان" الدرج ليتكلم فى التليفون، وقد علَّمَ "يادفيجا" كيف تتلقى مكالمة تليفونية محولة الأجرة عليها، فسألته "يادفيجا": أين هو؟ فذكر أول اسم خطر بباله، ولم تكن " يادفيجا " تتذمر عمومًا، بيد أنها كلمته هذه المرة بانفعال كأنها تخاف بالليل، وأن الجيران يسخرون منها ويشيرون إليها بأصابعهم، لماذا يحتاج هو إلى هذه النقود الكثيرة ؟ وأنها راغبة بشدة فى الذهاب للعمل وتعينه لكى يبقى فى المنزل مثل الرجال الآخرين، وهدأ "هرمان" من ثائرتها، واعتذر لها، ووعدها بألا يبقى فى الخارج أكثر من اللازم، فأرسلت إليه قبلة عبر التليفون، فبادلها القبلة بصوت مسموع، وعندما صعد الدرج لم تكلمه "ماشا" ثم قالت : أنا أعرف الحقيقة الآن.

حقيقة ماذا؟

سمعتك، افتقدتها فلم تستطع الانتظار حتى تعود إليها من جديد.

إنها وحيدة، عاجزة.

وماذا بشأنى أنا؟

وتناول الاثنان العشاء فى صمت، ولم تضئ "ماشا" الأنوار، وناولت "هرمان" بيضة مسلوقة، فتذكر فجأة ليلة ما قبل صيام التاسع من آب، الوجبة الأخيرة قبل الصيام، عندما يتناول المرء بيضة مسلوقة مرشوشة بالرماد، علاقة الحداد، ورمز لحظ الإنسان الذى قد يتدحرج كالبيضة ويغدو سيئًا، وطفقت "ماشا" تمضع طعامها وتدخن والتناوب، وحاول أن يكلمها، فلم ترد، وبعد الوجبة انطرحت على الفراش فورًا وهى بملابسها، وكورت نفسها بحيث صعب عليه معرفة ما إذا كانت نائمة أم متجهمة، وخرج "هرمان" من المنزل، وسار فى شارع غير معروف لديه، وتوقف للنظر فى واجهات دكاكين التذكارات: دمى هندية، ونِعال من خشب تشدها سيور جلدية مذهبة، وحبات كهرمان، وأقراط صينية، وأساور مكسيكية، وجاء إلى بحيرة تعكس سماءً بلون النحاس الأحمر، حيث يتنزه لاجئون ألمان - رجال ذوو ظهور عريضة ونساء سمينات، ويتكلمون عن المنازل والدكاكين والمخزون الاحتياطى من الطعام، وسأل "هرمان" نفسه على أى نحو هم إخوتى وأخواتى؟ مم تتألف يهوديتهم؟ وما هى يهوديتى؟ إن لديهم جميعًا رغبة واحدة: أن يذبحوا بسرعة قدر المستطاع وينسوا لهجاتهم، أما هو فلا ينتمى لا إليهم ولا إلى الأمريكيين أو البولنديين، أو اليهود الروس، وهو مثل - النملة التى كانت على المائدة فى هذا الصباح - قد عزل نفسه عن المجتمع، وسار "هرمان" حول البحيرة، أمام مساحات الأحراج وأمام فندق مبنى كالشاليه السويسرى، وأومضت البراعات وصَرَّت الجنادب، وصاح طائر صاحٍ وسط قمم الأشجار وارتفع القمر: رأس هيكل عظمى، ماذا يعلوه؟ ما القمر؟ من الذى خلقه؟ لأى غرض؟ ربما كانت الإجابة بسيطة. فى انتظار من يكتشفها كالجاذبية وذلك مثلما صنع نيوتن - كما يُقال - لحظة أن رأى تفاحة تسقط من

شجرة، وربما احتوت عبارة واحدة على الحقيقة الشاملة أم أن الكلمات التى تستطيع أن تُعرِّفها ما زالت فى حاجة إلى أن تُبتدَع ؟ وحين عاد "هرمان" إلى النُزل كان الوقت متأخرًا، فقد سار أميالاً، وكانت "ماشا" راقدة على الوضع الذى تركها عليه، واقترب منها، ولمس وجهها، وكأنه يريد أن يتاكد أنها حية، فجفلت، وقالت:

ماذا تريد؟

فخلع ملابسه، واستلقى بجانبها حتى نام، وعندما فتح عينيه كان القمر يرسل أشعته، ووقفت "ماشا" وسط الغرفة، وهى تحتسى من قارورة الكونياك، فقال:

ماشا، ليس بهذه الطريقة.

ماهى الطريقة ؟

وخلعت "ماشا" رداء نومها وأتت إليه، وتبادلا القبلات فى صمت وجامعها، واستوى جالسًا فى الفراش بعد ذلك، وأشعلت سيجارة، ثم قالت فجأة:

أين كنت فى هذا الوقت منذ خمس سنوات؟

وفتشت فى ذاكرتها وقتًا طويلاً، ثم قالت:

هامدة بين الموتى.

ـ ٦ ـ

وسافر "هرمان" و "ماشا"، وتوقفا عند فندق لا يبعُد عن الحدود الكندية، وكانت عندهما أيام قليلة فقط مُتبقية من الإجازة، وكان الفندق معتدل السعر، حيث تواجه البحيرة سلسلة من منازل من طابق واحد تابعة للفندق، وكان الرجال والنساء فى ملابس

الاستحمام يلعبون الورق فى الخلاء، وفى ملعب تنس كان حاخام يلعب التنس مع زوجته، وكان يضع على رأسه قلنسوة ضيقة ويلبس بنطلونًا قصيرًا، وتضع زوجته على رأسها باروكة امرأة أرثوذكسية، وعلى أرجوحة شبكية بين شجرتى صنوبر رقد صبى صغير وفتاة، وهما يقهقهان على نحو مستمر وكان الصبى ذا جبين عالٍ ورأس مشعث الشعر وصدر ضيق مكسو بالشعر، أما الفتاة فترتدى لباس استحمام ضيقًا، وتضع نجمة داوود حول رقبتها، وقد أخبرت مالكة الفندق "هرمان" أن المطبخ شرعى بدقة "وأن الضيوف كلهم أسرة واحدة سعيدة "، وصحبته هو و "ماشا" إلى منزل من طابق واحد ذى حيطان غير مطلية وسقف مكشوف، وأكل الزوار معًا على موائد طويلة فى غرفة طعام الفندق، وفى وقت الغداء وأخذت الأمهات اللائى لا تكاد تسترهن ملابس يحشون أفواه أطفالهن بالطعام وهن عازمات على تنشئتهم أمريكيين بطول ست أقدام، وبكى الصغار منهم، وغَصُّوا بالطعام، وبصقوا الخضراوات التى أجبروا على ابتلاعها، وتخيل "هرمان" عيونهم الغاضبة وهى تقول: "نحن نرفض أن نعانى لمحض إرضاء مطامحكم التافهة"، وانهال الحاخام لاعب التنس عليهم بلطائفه ومُلَحه، ومازح النُدل المتدربين ـ طلبة المعهد الدينى أو الكلية ـ الفساد الأكبر سنًا، وداعبوا الفتيات، وبدءوا فى الحال يستفسرون من "ماشا" عن المكان الذى قدمت منه، وضاق حلق "هرمان"، فلم يستطع أن يبتلع الكبد المُقطع والبصل والكريبلاخ وقطعة اللحم البقرى السمينة ولاالممبار، وتذمر النسوة الجالسات إلى المائدة قائلات: "ما نوع هذا الرجل؟، إنه لا يأكل"، وكان "هرمان" قد فقد الاتصال بهذا النمط من حياة الجالية اليهودية الحديثة منذ إقامته فى مخزن تبن "يادفيجا" وفى معسكر المُهجرين فى

ألمانيا وسنوات الكفاح فى أمريكا، ولكنهم هنا مرة أخرى، وأجرى مناقشة مع الحاخام شاعر يبدو ذو وجه مستدير وشعر مجعد، وتحدث الشاعر الذى أشار إلى نفسه كملحد عن الانهماك بالشئون الدنيوية والثقافة والإقليم اليهودى فى بيرابيدجان ومعاداة السامية، وقام الحاخام بشعيرة غسل اليدين بعد الوجبة وتمتم بالحمد والدعاء بالبركة، على حين استمر الشاعر فى قوله، واتخذت عينا الحاخام ـ فى بعض اللحظات ـ تعبيرًا جامدًا، وترنم ببضع كلمات بصوت عال، وادَّعَت امرأة بدينة أن الييدية رطانة، خليط من لغات بدون نحو أو صرف، ووقف يهودى مُلْتَح، ويلبس نظارة مؤطرة بالذهب وقلنسوة مُخملية، وألقى خطبة عن دولة إسرائيل المُقامة حديثًا، وحث على التبرع لها، وشاركت " ماشا " فى الحديث مع النسوة الأخريات، وهن يدعونها السيدة "برودر"، وأردن أن يعرفن متى تزوجت هى و"هرمان"، وما يعمل "هرمان" فخفض هو رأسه، إذْ كانت كل علاقة بالناس تثير الرعب فى نفسه، وكان ثمة احتمال دومًا أن يعرفه هو و "يادفيجا " شخص ما من بروكلين، وتعلق كهل من جاليشيا باسم "برودر"، وشرع يستجوب "هرمان" وما إذا كانت له عائلة فى لمبرج أم لا، فى تارناو، فى برودى، فى دور هوبيتش"، وقال إن له هو نفسه قريبًا بهذا الاسم، ابن عم ثانٍ أو ثالث رُسِم حاخامًا، وكان قد صار محاميًا، وأنه فى هذا الوقت شخص مهم فى الحزب الأرثوذكسى فى تل أبيب، وكلما أجاب "هرمان" على أسئلته أمعن الآخر بإلقاء المزيد منها، وبدا مصممًا على إثبات أنه و "هرمان" أقرباء، وأبدى النسوة الجالسات إلى المائدة رأيهن فى جمال "ماشا" وقوامها الممشوق وملابسها، وعندما سمعن أنها هى التى صنعت الفستان الذى ترتديه أردن أن يعرفن منها ما إذا كانت

تحيك للأخريات، إذْ عندهن جميعًا ثيابًا تحتاج إلى توسيع أو تطويل أو تضحية أو تقصير، ورغم أن "هرمان" أكل قليلاً، فقد نهض من على المائدة وهو يحس ثقلاً فى معدته، وذهب هو و"ماشا" للنزهة، ولم يكن يدرك كم صار نافد الصبر خلال سنوات عزلته؛ وكم هو منزوع من كل العلائق الانسانية، وكانت لديه رغبة واحدة أن يفر بسرعة قدر المستطاع، وسار حثيثًا إلى حد أن تعثرت "ماشا" خلفه، وقالت له: "لماذا تجرى؟ لا أحد يطاردك"، وسارا صاعدين، و "هرمان" ينظر خلفه، أيقدر المرء على الاختباء من النازى هنا؟ وهل يوجد أحد يخفيه هو و"ماشا" فى مخزن تبن؟ لقد فرغ من الغداء منذ قليل فقط وهو الآن قلق بشأن كيفية مواجهة هؤلاء الناس فى وقت العشاء، إنه لن يقدر على الجلوس بينهم، أو أن يشاهد الأطفال وهم يجبرون على الأكل، أو "اللخبطة" فى الطعام، ولن يستطيع الاستماع إلى كل هذا الكلام الفارغ، وفى المدينة لم يتوقف "هرمان" قط عن الاشتياق إلى الطبيعة والمناطق الخلوية، ولكنه فى الواقع لم يكن متكيفًا مع هذا الهدوء، وكانت "ماشا" تخاف الكلاب، فكانت تقبض على ذراع "هرمان" فى كل مرة تسمع فيها كلبًا ينبح، وسرعان ما قالت إنها لن تستطيع السير أبعد من ذلك بالكعب العالى، ورمقهما الفلاحون الذين مروا بهما بكراهية، وعندما عادا إلى الفندق قرر "هرمان" فجأة أن يأخذ زورقًا من زوارق التجديف المُعدة لاستعمال الزوار، وحاولت "ماشا" أن تثنيه عن ذلك قائلة : "ستغرقنا معًا"، بيد أنها فى النهاية جلست فى الزورق، وعرف "هرمان" كيف يجدف، ولم يكن هو و "ماشا" يستطيعان السباحة، وكانت السماء صافية، ولونها أزرق فاتحًا، والريح تهب، والأمواج تعلو وتنخفض، وتلطم جانبى الزورق، وتهزه كالمهد، وكان "هرمان"

يسمع من حين إلى آخر رشاشًا، كأن عفريتًا يترصدهما فى الماء ويسبح فى أثرهما فى صمت، وراقبت "ماشا" "هرمان" وهى ترشده وتنتقده، إذْ كانت ثقتها فى مهارته الجثمانية قليلة، أو ربما كان من حظها أنها غير واثقة، وقالت وهى تشير بأصبعها:

"انظر إلى تلك الفراشة!"، كيف تطير فراشة بعيدًا عن الشاطئ هكذا وقد كانت على اليابسة ؟ هل هى قادرة على الطيران عائدة؟ ورفرفت الفراشة فى الهواء، وطارت فى خط متعرج دون أن تتبع اتجاهًا معينًا، واختفت فجأة، وأحالت الأمواج، على نسق يتراوح بين ذهب وظل، أحالت البحيرة إلى رقعة شطرنج سائلة هائلة، وقالت "ماشا" وهى تجلس باستقامة: انتبه! ثمة صخرة.

وتمايل الزورق، وجدف "هرمان" إلى الوراء بسرعة، وبرزت من الماء صخرة مسننة ومستدقة الرأس ومغطاة بالطُّحلب، بقية من العصر الجليدى، من نهر جليدى زال من هذا الحوض من الكرة الأرضية فيما مضى، بقية صمدت للأمطار والثلوج، الصقيع والحرارة، ولا تخشى شيئًا أو أحدًا، ولاتحتاج إلى خلاص، فقد تحررت فعلاً، وجدف "هرمان" إلى الشاطئ، وبارح هو و"ماشا" الزورق، وذهبا إلى منزلهما، ودخلا الفراش، وتغطيا بالبطانية الصوف، وبدت عينا "ماشا" المغمضتات وكأنهما تبتسمان من وراء جفنيهما، ثم بدأت شفتاها تتحركان، وحدق "هرمان" إليها، أيعرفها؟ إن ملامحها تبدو له غير مألوفة، إنه لم يتأمل قط بِنْية أنفها أو ذقنها أو جبينها، ما الذى يدور فى ذهنها؟ وارتعدت "ماشا"، واعتدلت جالسة،

وقالت: رأيت والدى توًا.

وصمتت بعض الوقت، ثم سألته:

ما اليوم من أيام هذا الشهر؟

فحَدد لها "هرمان" التاريخ.

فقالت: لقد مضت سبعَة أسابيع منذ أن استقبلت زائرى.

فلم يفهم "هرمان" أول الأمرعما تتحدث، وكانت كل امرأة فى حياته تشير إلى دورتها الشهرية بأسماء مختلفة: العيد، الضيف، الشَّهرية، فتنبه، وحسب معها المدة، وقال:

أجل، لقد تأخرت.

إنها لاتتأخر معى، قد أكون غير عادية فى أمور أخرى، أما فى هذه فأنا طبيعية مائة بالمائة.

استشيرى طبيبًا.

لا يمكن أن يخبرنى الأطباء سريعًا هكذا، سأنتظر أسبوعًا آخر، الإجهاض فى أمريكا يتكلف خمسمائة دولار.

وغيَّرت نبرتها قائلة: وهو خطير أيضًا، أجرت المرأة التى تعمل فى الكافيتيريا عملية إجهاض، فحدث لها تسمم فى الدم، وكانت تلك نهايتها، ما أبشعها طريقة للموت، وماذا ستفعل أمى إذا حدث لى شىء؟ أنا متأكدة أنك ستدعها تموت جوعًا.

لا تهَوِّلى الأمر، فأنت لم تموتى بعد.

ما المسافة بين الحياة والموت؟ لقد رأيت أناسًا يموتون، وأنا على دراية بهذا.

أعد الحاخام على ما يبدو مجموعة من النكات لوجبة المساء، وبدا مخزونه من النوادر لاينضُب، وقهقهت النسوة، وقدم النُدل المتدربون الطعام بضجيج، ولم يرد الأطفال النعسانون أن يأكلوا؛ فضربتهم أمهاتهم على أيديهم، وأعادت امرأة وصلت أمريكا حديثًا ما قُدِّم إليها من طعام، فقال لها النادل : أأكلت أفضل من هذا بحق هتلر؟ "، وتجمعوا كلهم فى الكازينو بعد ذلك، وهو مخزن أعيدت تهيئته، وبعد أن ألقى شاعر بيدى خطبة مجَّد فيها "ستالين" وتلا شعرًا متعلقًا بالطبقة العاملة، قلدت ممثلة المشاهير وبكت وضحكت وصرخت ورسمت على وجهها تعبيرات مختلفة، وألقى ممثل فى مسرح منوعات (فودفيل) بيدى فى نيويورك ـ نكاتًا بذيئة عن زوج مخدوع خبأت زوجته قوزاقيًا تحت السرير، وعن حاخام جاء ليعظ امرأة خليعة، فغادر منزلها وفتحة بنطلونه غير مزررة، وانثنت النسوة والفتيات الصغيرات بشدة من الضحك، وسأل "هرمان" نفسه: "لماذا يوجعنى كل هذا؟"، إن السُّوقية فى هذا الكازينو تنكر معنى الخليقة وتخجل من عذاب المحرقة، وبعض نزلاء الفندق لاجئون من هول النازى، وتوافدت العُثات طائرة من خلال الباب المفتوح، إذْ اجتذبتها الأضواء البَراقة وخدعها نهار زائف، ورفرفت هنا وهناك بعض الوقت، وسقطت ميتة بعد أن اصطدمت بالحائط، أو أحرقتها المصابيح الكهربية، ونظر " هرمان " حوله، فرأى "ماشا" وهى ترقص مع رجل ضخم يرتدى قميصًا مربع النقش، وبنطلونًا قصيرًا أخضر يكشف عن فخذيه المكسوين بالشعر، وكان يمسك بـ"ماشا" من خصرها، وهى لا تكاد تبلغ كتفه بيدها، وكان أحد النُدل ينفخ فى بوق وآخر يدق على طبلة، وثالث ينفخ على آلة

محلية الصنع تشبه الوفاء الذى به ثقوب، وكان لدى "هرمان" فرصة ضئيلة للانفراد بنفسه منذ أن غادر نيويورك مع "ماشا"، وبعد شىء من التردد خرج دون أن يدع "ماشا" تراه وهو يترك المكان، وكانت الليلة بلا قمر وباردة، ومر "هرمان" بمزرعة، حيث وقف عجل فى حظيرة، وكان يحدق فى عتمة الليل بحَيِّرة مخلوق أبكم، وقد بدت عيناه الكبيرتان وكأنهما تسألان: من أنا ؟ لماذا أنا هنا؟ وهبت نسمات باردة من الجبال، واندفعت شهب عبر السماء بسرعة، وتضاءل حجم الكازينو عن بُعد، وهو منطرح على الأرض كالبراعة، لقد احتفظت "ماشا" بالغرائز العادية رغم استخفافها بكل الأمور، فهى تريد زوجًا وأطفالاً وعائلة وما يتعلق بها، وهى تحب الموسيقى والمسرح وتضحك على نكات الممثلين، أما هو فيسكنه حزن لا تخف حدته، إنه ليس ضحية هتلر، إنه ضحية منذ وقت طويل قبل عهد هتلر، وأتى "هرمان" إلى هيكل منزل محترق، وتوقف، إذْ اجتذبته الرائحة الحريفة، والفجوات التى كانت نوافذ من قبل، والمدخل المكسو بالسخام، والمدخنة السوداء، ودخل فيه، إذا كانت العفاريت موجودة، فهى تسكن هذا الخراب - بيتها، وبما أنه لا يطيق الآدميين، فقد تكون الأشباح رفاقه الطبيعيين، أيمكنه أن يظل بقية عمره بين هذه الأنقاض، وقف بين الحيطان المحترقة يستنشق رائحة حريق تقادم الطفاؤه، وكان بوسعه أن يسمع تتنفس بالليل، بل تخيل أيضًا أنه يغط فى نومه، ورن الصمت فى أذنيه، وخطا على الفحم والرماد، كلا، إنه لا يستطيع أن يكون جزءًا من هذا التمثيل والضحك والرقص، ومن خلال الفجوة التى كانت فيما مضى نافذة رأى السماء الغامضة المتكتمة: أوراق بردى سماوية حافلة بكتابات هيروغليفية، وثبتت نظرته على ثلاثة نجوم يشبه تكوينها حرفًا لينًا

فى الكتابة العبرية، نظرته إلى ثلاث شموس لكل منها على الأرجح كواكبها ومذنباتها، لكم هو غريب أن تكون هذه العضلة الصغيرة المهيأة داخل جمجمة قادرة على رؤية هذه الأشياء النائية! ولكم هو غريب أن يكون ملء قِدْر أو مقلاة من الأدمغة فى تأمل دائم ولا يكون قادرًا على التوصل إلى أى نتيجة! إنهم جميعًا صامتون: الإله والنجوم والموتى، والمخلوقات التى تتكلم لا تُظهر شيئًا، وعاد "هرمان" ناحية الكازينو الذى كان مُظلّمًا آنذاك، المبنى الذى كان حافلاً بالضوضاء منذ قليل صار هادئًا ومهجورًا وغارقًا فى تأمل كل الأشياء الفاقدة للحركة، وبدأ "هرمان" يبحث عن منزله التابع للفندق، وهو يدرك مدى صعوبة العثور عليه، فقد كان يضل طريقه أينما ذهب: فى المدن، فى الريف، على ظهر السفن، فى الفنادق، وكان ثمة ضوء وحيد فى مدخل المنزل الذى يقع فيه مكتب الفندق، على أنه لم يكن ثمة أحد، وخطرت ببال "هرمان" فكرة أن "ماشا" ربما ذهبت إلى الفراش مع ذلك الراقص ذى البنطلون القصير الأخضر، ومع أن هذا بعيد الاحتمال إلا أن كل شئ جائز بين هؤلاء الناس العصريين المتجردين من كل عقيدة أو حلق، ما الذى تتشكل منه الحضارة إن لم يكن قتلاً أوزنى؟ ولابد أن "ماشا" قد ميزت وقع أقدامه، فقد انفتح باب وسمع صوتها.

ـ ٨ ـ

تناولت "ماشا" حبة منومة، ونامت، ولكن "هرمان" ـ أولاً ـ شن حربه المعتادة على النازيين، وقذفهم بقنابل ذرية، وأطلق قذائف غريبة على جيوشهم، ورفع أسطولهم من المحيط، ووضعه على اليابسة قُرب فيلا بربختشجادن، وحاول قدر استطاعته أن يوقف أفكاره، فلم يستطع، فقد كان ذهنه يعمل كآلة خارج نطاق السيطرة،

وتناول من جديد ذلك الشراب السحرى الذى يمكنه من سبر أغوار الزمن والفضاء، وذلك "الشىء فى ذاته"(*)، وقاده تأمله دائمًا إلى النتيجة ذاتها: أن الإله (أو مهما يكن) حكيم بالتأكيد، ولكن لا يوجد دليل على رحمته، وإذا كان إله الرحمة موجودًا فى سلسلة سماوية، فهو إله صغير عاجز فقط، صنف من اليهودى السماوى بين نازيين سماويين، ومادام المرء لا يجد الشجاعة على أن يترك هذا العالم، فهو يستطيع الاختباء فحسب، ويحاول أن يواصل العيش بمساعدة الكحول والأفيون ومخزن تبن فى ليبسك أو غرفة صغيرة فى شقة "شيفرابؤه"، واستغرق فى النوم، وحلم بكسوف الشمس ومواكب جنائزية يتلو أحدها الآخر، ونعوش تجرها خيول سوداء يمتطيها عمالقة، إنهم موتى ومشيعون معًا، وسأل نفسه فى الحلم : كيف هذا؟ أو تستطيع قبيلة مُدانة أن تقود نفسها إلى قبرها؟، كانوا يحملون المشاعل ويرددون ترنيمة جنائزية، ترنيمة كآبة غير أرضية، وهم يجرجرون أرديتهم على الأرض، وتصل أعالى خوذاتهم إلى السحب، وجفل "هرمان"، إذْ صلصلت نوابض السرير الصدئة، واستيقظ خائفًا وعَرْقان ومعدته منتفخة ومثانته ممتلئة والمخدة تحت رأسه مُبتلة وملتوية كقطعة غسيل معصورة، كم من الوقت نام؟ ساعة واحدة، ست ساعات؟ وكان المنزل حالك السواد وباردًا برودة الشتاء، وكانت "ماشا" جالسة فى فراشها ووجهها شاحبًا كبقعة ضوء فى الظلام، وصاحت بصوت أجش لا يختلف عن صوت "شيفرابؤه"، "هرمان"، إنى خائفة من العملية!، ومضت بضع لحظات قبل أن يدرك عما تتكلم عنه: طيب، لا بأس عليك.

(*) يميز الفيلسوف الألمانى " كانت" (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) بين العالم المحسوس والعالم المعقول، ويقر بوجود كليهما، ويرى أن العالم المحسوس له شكله ومبادئه، وأنه يتضمن وجود عالم معقول هو عالم الأشياء فى ذاتها (النومينات).

ربما طلقنى ليون، سأكلمه بصراحة، وإذا لم يطلقنى، فسوف يحمل طفل اسمه.

لا أستطيع أن أطلق يادفيجا.

واستشاطت "ماشا" غضبًا، وصاحت: لا تستطيع!، حين أراد ملك إنجلترا أن يتزوج من المرأة التى يحبها تخلى عن العرش، وأنت لا تستطيع أن تتخلص من فلاحتك الغبية! لا يوجد قانون يجبرك على العيش معها، وأسوأ ما يمكن أن يحدث أن تدفع لها نفقة، وسأدفعها أنا، سأعمل وقتًا إضافيًا وأدفع!

أنت تعلمين أن الطلاق سيقتل يادفيجا.

لا شأن لى بذلك، قل لى هل تزوجت هذه الكلبة عن طريق حاخام؟

عن طريق حاخام؟ كلا.

كيف إذن؟

زواج مدنى.

لا قيمة لهذا الزواج طبقًا للشريعة اليهودية، تزوجنى طبقًا للمراسم اليهودية أنا لا أحتاج إلى أوراقهم غير اليهودية.

لن يعقد حاخام زواجًا بدون ترخيصًا، هذه أمريكا وليست بولندا.

سأجد حاخامًا يقوم بذلك.

سيظل زواجًا تعدديًا، والأسوأ تعدد زوجات.

لن يعرف أحد أبدًا، ستعرف أمى وأنا فقط، سننتقل من المنزل، فى وسعك أن تختار الاسم الذى توده أيًا كان، إذا كانت فلاحتك

عزيزة عليك إلى حد عدم القدرة على العيش بدونها فاقض يومًا واحدًا فى الأسبوع معها، ولسوف أتوافق مع ذلك.

عاجلاً أو أجلاً سيقبضون علىَّ ويرحّلوننى.

ما دام لا توجد وثيقة زواج، فلن يستطيع أحد أن يثبت أننا رجل وامرأة، تستطيع أن تحرق عقد الزواج بعد مراسم الزواج مباشرة.

أنت مضطرة إلى تسجيل الطفل.

سنجد حلاً، يكفى أنى مستعدة أن أتقاسمك مع هذه الحمقاء، دعنى أتم كلامى، لقد جلست هنا ساعة كاملة وأنا أفكر، إذا لم توافق على ما أقوله؛ فإنك تستطيع أن تنصرف هذه الدقيقة ولاتعود، وسأجد طبيبًا يقوم بالعملية، ولا ترينى وجهك أبدًا مرة أخرى، سأمنحك دقيقة للرد، فإذا كان ردك بلا، فارتدِ ملابسك واخرج، ولا أريدك ثانية أخرى هنا.

- أنت تطلبين منى أن أنتهك الشريعة، سأخشى كل رجل شرطة فى الشارع.

- أنت خائف على أى حال، أجبنى.

أجل.

وسكتت "ماشا" وقتًا طويلاً، ثم قالت أخيرًا:

أهذا رأيك بالضبط، أم أن علىّ أن أعيد عليك غدًا كل ما قلته من جديد؟

- كلا، هذا رأى ثابت.

هذا تحذير أخير لك كى تقرر شيئًا، أول شىء فى صباح الغد سأكلم ليون بالتليفون أطلب منه أن يطلقنى، وإذا لم يفعل فسأدمره.

ماذا ستفعلين؟ هل ستطلقين النار عليه؟

أنا قادرة على فعل هذا، ولكن عندى وسائل أخرى لإقناعه، إنه قانونًا مثل لحم الخنزير غير الشرعى، لو أبلغت عنه، فسيرحلونه غدًا.

إن طفلنا سيكون على أى حال ابن زنى طبقًا للشريعة اليهودية؛ لأنك حملت به قبل الطلاق.

الشريعة اليهودية وكل الشرائع الأخرى لا تعدو أن تكون كصقيع الشتاء الماضى لدى، إننى أفعل هذا من أجل أمى فحسب، من أجلها فقط..

وبارحت "ماشا" الفراش، وتنقلت فى العتمة، وصاح ديك، وجاوبته ديكة أخرى، والتمع ضوء ضارب إلى الزرقة من خلال النافذة، وانقضت الليلة الصيفية، وشرعت الطيور تشقشق وتصفر كلها فى وقت واحد، ولم يستطع "هرمان" البقاء فى الفراش بعد ذلك، فنهض ولبس بنطلونه وحذاءه، وفتح الباب، وكان الخلاء مشغولاً بمهام الصباح الباكر، وأنجزت الشمس البازغة رسمًا طفليًا على صفحة سماء الليل: بقعًا، لطوخًا، فوضى ألوان، واستقر الندى على العشب، وخيم ضباب رقيق بلون الحليب على البحيرة، وجثمت ثلاثة طيور صغيرة على فرع شجرة قُرب المنزل الصغير، وقد أبقت مناقيرها الغضة مفتوحة فى حين أخذت أمها تطعمها بمناقرها قطعًا صغيرة سيقان النباتات والديدان، وهى تطير جيئة وذهابًا بدأب من يعرف واجباته على وجه الإخلاص والتفانى، وارتفعت

الشمس من خلف البحيرة، وأشعلت ألسنة اللهب سطح الماء، وسقط كوز صنوبر، وهو جاهز أن يخصب الأرض كى تؤتى الأرض صنوبرة جديدة، وخرجت "ماشا" حافية القدمين فى ثوب نومها الطويل، وبين شفتيها سيجارة، وقالت:

- لقد ابتغيت طفلك منذ اليوم الذى التقينا فيه.

■■■

الفصل الخامس

ـ ١ ـ

استعد "هرمان" من جديد لإحدى رحلاته، فاختلق كذبة جديدة تتعلق بسفره لبيع الموسوعة البريطانية، وقال لـ "يادفيجا" إنه مضطر إلى أن يقضى أسبوعًا بكامله فى الشرق الأوسط، وكانت الكذبة زائدة لا داعى لها؛ لأن "يادفيجا" تعرف بصعوبة الفرق بين كتاب وآخر، بيد أن "هرمان" تعود على تلفيق الحكايات، وكانت أكاذيبه تضعف تدريجيًا وتحتاج إلى إصلاح وتجديد، وتشكَّت "يادفيجا" إليه مؤخرًا، وكان بعيدًا عن المنزل فى اليوم الأول من عيد رأس السنة العبرية ونصف اليوم الثانى، وقد أعدت رأس سمكة شبُّوط وتفاحًا وعسلاً، وخبزت أرغفة الحالا الخاصة بالسنة الجديدة مثلما علمتها جارتها تمامًا، على أن "هرمان" فيما يبدو يبيع الكتب فى رأس السنة العبرية أيضًا، وحاول النسوة فى البيت أن يقنعن "يادفيجا" بكلام نصفه بالييدية ونصفه الآخر بالبولندية ـ أن زوجها لا بد له عشيقة فى مكان ما، ونصحتها امرأة عجوز أن

تستشير محاميًا، وتحصل على الطلاق من زوجها وتطلب نفقة بمقتضى القانون، وأخذتها أخرى إلى الكنيس لتسمع النفخ فى قرن الخروف ووقفت بين النسوة، وانفجرت باكية عند سماعها بداية إعواله، فقد ذكَّرها بلسبِك وبالحرب وموت أبيها، وبعد قضاء بضعة أيام فقط سافر "هرمان" من جديد لا ليلحق بـ "ماشا" بل بـ "تامارا" التى أَجَّرت بيتًا صغيرًا فى حبال كاتسكل، واضطر إلى أن يكذب على "ماشا" أيضًا، فقال لها إنه ذاهب مع الحاخام "لامبرت" إلى أتلانتيك سيتى لحضور مؤتمر حاخامى مدته يومان، وكان عُذْرًا وَاهيًا؛ لأن الحاخامات الإصلاحيين لم يكونوا يعقدون مؤتمرات خلال أيام الخشوع، على أن "ماشا" وهى التى حصلت على الطلاق من "ليون تورتشينى"، وتوقعت الزواج من "هرمان" حين تنتهى عدة التسعين يومًا ـ كفت عن غيرتها، ويبدو أن الطلاق والحمل قد غيّرا وجهة نظرها إلى الأمور، وكانت تتصرف إزاء "هرمان" كزوجة، وأظهرت إخلاصًا لأمها أكثر من ذى قبل، وقد وجدت حاخامًا لاجئًا وافق على إتمام حفل الزفاف بدون ترخيص، وحينما قال لها "هرمان" إنه سوف يعود من أتلانتك سيتى قبل عيد الغفران لم تسأله، كذلك قال لها أن الحاخام سيدفع له أجرًا قدره خمسون دولارًا، وأنهما محتاجان إلى النقود. كانت المغامرة كلها محفوفة بالمخاطر، فقد وعد "هرمان" "ماشا" أن يكلمها بالتليفون، وهو يعرف أن عامل التليفون البعيد المدى قد يذكر لها من أين تأتيها المكالمة، وربما قررت هى أن تتصل تليفونيًا بمكتب الحاخام "لامبرت" فتكتشف أن الحاخام فى نيويورك، ولكنه رجح أنها لن تفعل ذلك؛ لأنها لم تكلم السيد "إبراهيم ينسن " للتحقق منه بشأنه هو، وثمة خطر إضافى لا يفترق كثيرًا عن هذا، أن له زوجتين، وهو

على وشك أن يتزوج ثالثة، ورغم أنه كان يخاف عواقب أفعاله، وما يعقبها من فضيحة، فإن ناحية بداخله وجدت متعة فى الإثارة الناشئة عن مواجهة التهديد المستمر بكارثة، وكان يخطط لأفعاله ويرتجل معًا، ولم يكن "العقل اللاواعى" ـ كما يقول "فون هارتمان" ـ يخطئ أبدًا، إذْ إن كلام "هرمان" يبدو صادرًا من فمه تلقائيًا، وإن أدرك فيما بعد فقط الحيل والخدع التى نجح فى ابتداعها، وأن وراء هذا الخليط من الأهواء مقامرًا ماهرًا ينمو بقوة على المخاطرة يوميًا، فلقد كان بوسعه أن يتحرر من "تامارا" فقد أخبرته مرات عديدة أنها ستمكنه من الطلاق إذا احتاج إليه، على أنه رأى أن هذا الطلاق لن يكون ذا عون كبير له، فربما كان ثمة اختلاف طفيف فى نظر القانون بين متعددة الأزواج ومتعدد الزوجات، وعلاوة على ذلك فإن الطلاق يكلف نقودًا، وعليه تقديم أوراق، ولكن ثمة ما هو أكثر من ذلك كله: فقد رأى فى عودة "تامارا" رمزًا لمعتقداته الروحانية، فكلما كان معها استعاد تجربة البعث، ويكون لديه الشعور أحيانًا بأنه فى جلسة تحضير أرواح تجسدت فيها ماديًا روحها، بل يتلهى أيضًا بفكرة أنها ليست بين الأحياء فى الحقيقة، وأن شيخها هو الذى عاد إليه، إذْ كان "هرمان" مهتمًا بعلم الغيب قبل الحرب أيضًا، وحين يتاح له وقت فراغ هنا فى نيويورك يذهب إلى المكتبة العامة فى شارع اثنين وأربعين لمطالعته الكتب المتعلقة بقراءة الأفكار والاستشفاف والدابوقات والأشباح الضاجة ـ أى شىء يتعلق بالباراسيكولوجيا، ولما كانت الديانة الرسمية فى حكم المفلسة، وفقدت الفلسفة كل معنى لها فقد كان علم الغيب مشروعًا لأولئك الذين لا يزالون ينشدون الحقيقة، وإن كانت الأرواح موجودة على مستويات متباينة؛ لأن "تامارا" تتصرف ـ ظاهريًا على الأقل ـ

كإنسانة حية، إذْ تمنحها منظمة اللاجئين عطاءً شهريًا، كما يساعدها أيضًا عمها السيد "إبراهيم نيسن"، وقد أجَّرت منزلاً خشبيًا تابعًا لفندق يهودى فى مويننتيندل، فلم تُرِدْ البقاء فى المبنى الرئيسى والأكل فى قاعة الطعام، فوافق المالك، وهو يهودى من بولندا، على أن تتناول وجبتين تُحملان إلى المنزل الخشبى، وانقضى أسبوعاها تقريبًا، ولم يف "هرمان" بوعده، أن يقضى بضعة أيام معها، وتلقى رسالة منها على عنوانه ببروكلين تؤنبه فيها على عدم الوفاء بكلمته، وقالت له فى نهايتها : " فلتصدق أنى مازلت ميتة فتعال لزيارة قبرى"، وقبل أن يُسَافر إليها وضع كل الاحتمالات فى اعتباره، فأعطى نقودًا لـ "يادفيجا "، ودفع الإيجار فى برونكس، واشترى هدية لـ"تامارا"، كذلك وضع فى حقيبته أحد مخطوطات الحاخام "لامبرت" للعمل فيه، ووصل "هرمان" إلى المحطة النهائية مبكرًا جدًا، وجلس على دكة وحقيبة السفر عند قدميه فى انتظار الإعلان عن أوتوبيس مويننتيندل، الأوتوبيس الذى لن ينقله إلى حيث توقفت "تامارا" فقد كان عليه أن يغير عند نقطة ما على طول الطريق، واشترى صحيفة ييدية، وقرأ العناوين الرئيسية فقط، وكان مجمل الأخبار كالعادة دائمًا: ألمانيا يُعاد بناؤها، عفو الحلفاء والسوفييت معًا عن جرائم النازيين، وفى كل مرة كان "هرمان" يقرأ فيها هذه الأخبار توقظ لديه خيالات الانتقام التى يكتشف من خلالها طرقًا لتدمير جيوش بأكملها وتدمير صناعات بأسرها، وينجح فى تقديم كل أولئك الذين أسهموا فى إبادة اليهود، وكان "هرمان" يخجل من أحلام اليقظة هذه، الأحلام التى تملأ ذهنه بأخف صنوف الإثارة، وهى مستمرة فى عناء طفولى وسمعهم ينادون على مويننتيندل، فأسرع إلى الموقف حيث تنتظر

الأتوبيسات، ووضع حقيبة السفر على الرف وأحس توًا بأنه خلىٌّ البال، فهو لا يكاد يعرف الركاب الآخرين الذين استغلوا الأتوبيس وكانوا يتكلمون اليدية ويحملون صُررًا ملفوفة بصحف ييدية، وبدأ الأوتوبيس فى السير، من خلال النافذة المفتوحة بعض الشىء أقبلت بعد قليل نسمة تحمل رائحة عشب وشجر وجازولين، واستغرق الركوب إلى موينتينديل نهارًا بأكمله تقريبًا، وهو الذى كان يجب أن يستغرق خمس ساعات، وتوقف الأتوبيس عند آخر محطة له، حيث اضطر "هرمان" إلى انتظار أتوبيس آخر، وكان الجو لا يزال صيفًا بالخارج، والنهار آخذ فى القصر حينذاك، وبعد غروب الشمس بزغ القمر، وسرعان ما اختفى خلف السُحب، ثم أظلمت السماء، وازدانت النجوم واضطر سائق الأوتوبيس الثانى إلى أن يطفئ الأنوار الداخلية، لأنها تشوش لديه الرؤية فى الطريق الضيق الملتوى، ومضوا، وبرز فجأة فندق مُضاء على نحو يراق، حيث كان رجال ونساء يلعبون الورق فى الشرفة المسقوفة، وقد بدا كالسراب وهم يمرقون بجانبه، ونزل المسافرون الآخرون تباعًا فى محطات شتى وتلاشوا فى ثنايا الليل، وبقى "هرمان" وحده فى الأتوبيس، فجلس ووجهه لصق زجاج النافذة، وحاول أن يتذكر كل شجرة وشجيرة وحجر على امتداد الطريق، وكأن أمريكا مُقدر لها الفناء كبولندا، ويجب عليه أن ينقش كل جزء تفصيلى فى ذاكرته، ألن يتفتت هذا الكوكب عاجلاً أو آجلاً ؟، لقد قرأ أن الكون كله يتمَدد وفى حالة انفجار فعلاً، وهبط من السماء اكتئاب ليلى، وتلألأت النجوم كالشموع التذكارية فى كَنيس كَوْنى، واستمرت أنوار الأوتوبيس وهو يتوقف أمام فندق بالاس، حيث كان على "هرمان" أن ينزل، وهو فندق يماثل تمامًا الفندق الذى مروا به من قبل: الشرفة

المسقوفة نفسها، الكراسى عينها، والموائد والرجال والنساء والاستغراق ذاته فى لعب الورق، وتساءل هل اتخذ الأتوبيس طريقًا دائريًا ؟ وأحس بالتيبس فى قدميه من جراء الجلوس طويلاً، على أنه صعد درجات الفندق العريضة بحيوية ونشاط، وظهرت "تامارا" فجأة وهى ترتدى بلوزة بيضاء وجونلة داكنة وحذاءً أبيض، وبدت مسفوعة الوجه وأصغر سنًا، وقد سرحت شعرها على نحو مختلف وجرت ناحيته، وأخذت منه حقيبة السفر، وقدمته إلى بعض النسوة الجالسات إلى مائدة لعب الورق، وألقت امرأة ـ كانت ترتدى لباس السباحة وتضع سترة على كتفيها ـ نظرة سريعة على الورق قبل أن تقول بصوت خشن: " كيف يترك رجل امرأة رائعة الجمال كهذه وحدها وقتًا طويلاً؟ امرأة يَطن الرجال حولها كما يَطن الذباب حول الشهد"، فسألته "تامارا" : "لماذا استغرق سفرك وقتًا طويلاً هكذا؟ "، وبعثر كلامها ولكنتها الييدية - البولندية، وطريقتها المألوفة عند التكلم، كلَّ تخيلاته الجامحة المتعلقة بعلم الغيب، إن هذه ليست طيفًا من العالم الآخر، فقد اكتسبت شيئًا من الوزن، وسألته : "هل أنت جائع؟ إنهم يحتفظون بعشاء لك" وأخذته من ذراعه، وقادته إلى قاعة الطعام، حيث يضىء مصباح وحيد، وموائد مُعدة لطعام الإفطار، وكان ثمة شخص لا يزال يتلهى داخل المطبخ، وصوت مياه جارية يُسمَع، ودخلت "تامارا" المطبخ وعادت ومعها شاب يحمل عشاء "هرمان" على صينية : نصف بطيخة وحساء مع المكرونة، ولحم دجاج مع الجزر، وكومبوت، وشريحة من كعكة بالشهد، ومازحت "تامارا" الشاب، فرد عليها بطريقة حميمية، ولاحظ رقمًا أزرق موشومًا على ذراعه، وانصرف النادل، والتزمت"تامارا" الصمت وبدت النُضرةُ، بل بدا أيضًا أن اسمرار

البشرة الذى لاحظه عند وصوله ـ آخذين فى التلاشى، وإن ظهرت تحت عينيها ظلال وآثار أكياس صغيرة من الجلد، وقالت "هل رأيت هذا الولد؟ إنه يعمل عند مداخل الأفران، وفى دقيقة أخرى سيكون كومة من الرماد.

ـ ٢ ـ

تمددت "تامارا" على سريرها، ورقد "هرمان" على السرير الصغير القابل للحركة الذى جيء به من أجله إلى المنزل الخشبى، على أن كلاً منهما لم يستطع النوم، وغفا "هرمان" لحظة، بيد أنه صحا مجفلا؛ فقد أحدث السرير صريرًا تحته، فقالت "تامارا":

ألم تنم ؟

أوه، سأنام .

لدىّ بعض الحبوب المنومة، إذا أردت أعطك واحدة، أنا أتناولها ولكنى أظل متنبهة تمامًا، وإذا نمت، فإنه ـ فى الحقيقة ـ ليس فوق البتة. وإنما غوص فى فراغ، سأحضر لك حبة.

كلا، سأفلح فى تدبير أمرى بدونها.

لماذا تتقلب طوال الليل ؟

إذا تمددت معك، سأنام.

ولم تتكلم " تامارا " للحظة، ثم قالت:

ما معنى هذا؟ إن لك زوجة، وأنا جثة يا هرمان، ولا ينام أحد مع جثة.

وما أنا؟

ظننتك مخلصًا ليادفيجا على الأقل.

لقد قلت لك الحكاية كلها.

نعم. قلت لى، تعودت حين يخبرنى شخص بشىء أن أعرف بالضبط عما يتكلم، أنا أسمع كلامك الآنِ بوضوح، ولكنه لا يصل إلىَّ إنه ينزلق كما ينزلق الماء على قماش مُشَمَّع، إذا لم تكن مستريحًا فى سريرك فتعال إلى سريرى.

نعم.

وترك "هرمان" سريره فى الظلمة، وتسلل تحت الأغطية، وأحس بدفء جسم "تامارا" وبشىء نسيه عبر سنوات الافتراق، شىء له علاقة بالأم وغريب تمامًا، وتمددت "تامارا" على ظهرها بلا حراك، ورقد "هرمان" على جانبه ووجهه ناحيتها، ولم يلمسها، ولاحظ امتلاء صدرها، رقد ساكنًا وهو مرتبك كالعريس فى ليلة الزفاف، فقد فرقت السِّنون بينهما على نحو مؤثر كالحاجز، وكانت البطانية مدسوسة بإحكام تحت الحشية، وود "هرمان" أن يطلب من "تامارا" أن تحررها قليلاً، ولكنه تردد، فقالت هى:

كم من الوقت مضى منذ أن تمددنا معًا آخر مرة ؟ يُخيل إلىّ أنه قد مضت مائة سنة.

المدة أقل من عشر.

أحقًا ؟ إنها دهر بالنسبة إلىَّ، الله وحده فقط يمكنه أن يملأ هذا الوقت القصير بالكثير جدًا .

حسبتك لا تؤمنين بالله.

بعد الذى حدث للطفلين، توقفت عن الاعتقاد، أين كُنت فى عيد الغفران عام ١٩٤٠ كنت فى روسيا فى منسك، كنت أخيط أكياس الخَيْش، وأكسب حصتى من الخبز بطريقة أو بأخرى وأسكن فى الضواحى مع غير اليهود، وحين جاء عيد الغفران قررت أن أذهب لتناول الطعام، فما معنى أن أصوم هناك ؟ كذلك لم يكن من الحكمة أن تُظهر لجيرانك أنك متدين، ولكن حين أقبل المساء وأدركت أن اليهود فى مكان ما يرتلون: "كل النذور ... " لم ينزل الطعام.

قلتِ إن الصغيرين داوود ويوكابد يأتيان إليك.

وندم "هرمان" على كلامه فى الحال، ولم تتحرك "تامارا"، ولكن السرير بدأ يصِرّ كأنه صُدم من كلامه، وانتظرت "تامارا" أن تتوقف أصوات الاحتكاك قبل أن تقول:

لن تصدقنى، أفضل ألا أقول شيئًا.

إنى أصدقك، هؤلاء الذين يشكون فى كل شىء قادرون أيضًا على تصديق كل شىء.

حتى إن أردت أنا، فلن أستطيع إخبارك، توجد طريقة واحدة فحسب لتوضيح ذلك ـ هى أنى مجنونة، الجنون أيضًا يجب أن يكون له أصل.

متى يأتيان إليك؟ فى أحلامك؟

لا أدرى، قلت لك إنى لا أنام، بل أنحدر إلى هُوة سحيقة، وأسقط وأسقط ولا أصل إلى قرار، وأظل معلقة، هذا مثل واحد فقط، لقد خَبرتُ أشياءً كثيرة لدرجة أنى لا أتذكرها أو لا أقولها

لأحد، فأنا أقضى النهار بخير، ولكن ليلى يمتلأ بالرعب، ربما كان يجب علىّ أن أذهب إلى طبيب نفسى، ولكن كيف يساعدنى؟

كل ما يفعله لك أن يعطيك تلك الأشياء ذات الأسماء اللاتينية، حين أذهب إلى طبيب إنما يكون من أجل شىء واحد "روشتة" للحبوب المنومة، الطفلان: نعم، يزوراننى أحيانًا حتى الصباح.

ماذا يقولان؟

إنهما يتكلمان طوال الليل، وحين أستيقظ لا أتذكر شيئًا مما قالاه، وإن تذكرت كلمات قليلة سرعان ما أنساها ويبقى عندى شعور بأنهما موجودان فى مكان ما وأنهما يريدان الاتصال بى، أحيانًا أذهب معهما أو أطير، لست متأكدة مشيًا أم طيرانًا كذلك أسمع موسيقى، لكنها نوع من الموسيقى بدون صوت، ونأتى إلى حد، لا أستطيع أن أعبره، وينزعان هما أنفسهما منى، ويسبحان فى الهواء أعلى الناحية الأخرى، ولا أتذكر إن كانا يعلوان تلاً أم حاجزًا ما، وأتخيل أحيانًا أنى أرى درجًا، وأن شخصًا ما جاء لملاقاتى ـ قديس أو روح، ومهما قلت يا هرمان، فلن يكون قولى دقيقًا، لأنه لا توجد كلمات تصف ذلك، وإذا كنت مجنونة، فمن الطبيعى أن يكون كل هذا جزءًا من جنونى.

أنت لست مجنونة.

طيب، بديع أن أسمع هذا، هل يعرف أحد حقًا ما الجنون؟ مادمت أنت هنا، فلماذا لا تقترب، هذا حَسَنٌ، عشت سنوات وأنا مقتنعة أنك لم تعد بين الأحياء، للمرء حسابات مغايرة يسويها مع الميت، حينما اكتشفت أنك حى كان الوقت قد فات لأغير موقفى.

ألم يتكلم الأولاد عنى؟

أظن أنهم تكلموا، أنا غير متأكدة.

ساد صمت تام لحظة، بل إن صرارىّ الليل سكنوا، وسمع "هرمان" صوت أندفاع ماء كالجدول الجارى، أم تراه صوت أنبوبة صرف للمياه؟

وقرقرت معدة، بيد أنه لم يكن متأكدًا إن كانت معدته أم معدة "تامارا" وأحس برغبة شديدة تستحثه على حك جلده، بيد أنه كبح نفسه، ورغم أنه لم يكن يفكر بالضبط، فقد كانت ثمة فكرة تواصل سيرها فى مخه، فقال فجأة وهو لا يدرى وهو يتكلم ما الذى سيسأل عنه:

أود أن أسألك عن شىء.

ما هو ؟

لماذا بقيتِ وحيدة؟

فلم تجب "تامارا"، فظنها عفت، ثم تكلمت بتيقظ تام ووضوح:

لقد قلت لك من قبل إنى لا أعتبر الحب لهوًا أو تسلية.

ماذا يعنى هذا؟

لا أستطيع أن أقيم علاقة مع رجل لست أهواه، هذا هو الأمر ببساطة.

هل يعنى أنك مازلت قائمة على حبى؟

أنا لم أقل هذا.

فسألها والرعشة فى صوته وهو خجل من كلامه وما يثيره فى نفسه من اضطراب واهتياج:

ألم تتخذى رجلاً واحدًا طوال هذه السنوات؟

لنفرض أنه يوجد شخص، فهل ستقفز فى الفراش وتعود مشيًا إلى نيويورك؟

كلا ياتامارا، لن أعتبر ذلك خطأ، ربما أنت مخلصة لى على أكمل وجه.

ثم تُعيّرنى بعد ذلك.

كلا، فما دمتِ لم تكونى تعلمين أنى حى، فكيف أطلب منك شيئًا، إن أكثر الأرامل وَرعًا يتزوجن مرة أخرى .

نعم، أنت على حق.

إذن، فما ردك؟

لماذا تتخضخض ؟ أنت لم تتغير على الإطلاق.

اجيبينى!

نعم، اتخذت شخصًا ما .

تكلمت "تامارا" بغضب تقريبًا ن وتحولت إلى جنبها، ووجهها ناحيته، حيث صارت أقرب إليه بعض الشىء، فرأى لمعان عينيها فى العتمة، وقد مست ركبته وهى تستدير، فقال:

متى؟

فى روسيا، حدث كل شىء هناك.

مَنْ؟

رجل لا امرأة.

وكانت ثمة ضحكة مكتومة فى ردها، ضحكة مختلطة بالاستياء والغيظ، وضاق حلق "هرمان" وهو يسألها :

واحد ؟ كُثر ؟

فتنهدت "تامارا" بنفاذ صبر قائلة:

ليس لك أن تعرف كل صغيرة.

إذا قلت لى هذا القَدْر، فقد تقولين لى كل شىء أيضًا.

طيب، كُثر.

كم العدد؟!

الحقيقة أن هذا ليس ضروريًا يا هرمان.

خبرينى عن العدد!

وساد الهدوء، وبدا أن "تامارا" تُحصى العدد لنفسها، فامتلأ "هرمان" بالأسى والرغبة، وتعجب من أهواء الجسد، فقد تفجع جانب منه على شىء مفقود لا يمكن محوه أو إبطاله، فهذه الخيانة وصمته إلى الأبد مهما كانت بساطتها بالقياس إلى ظلم العالم، وتاق جانب آخر إلى طمر نفسه فى هذه الخيانة والتمرغ فى وحلها، وسمع "تامارا" تقول :

ثلاثة.

ثلاثة رجال؟

لم أكن أعرف أنك حى، لقد كنت قاسيًا علىَّ، وجعلتنى أعانى طوال كل تلك السنوات.

وأردفت "تامارا":

وأعلم أنك لو كنت حيًا لفعلت الأشياء عينها، والحقيقة أنك تزوجت خادمة أمك.

أنت تعرفين السبب.

ثمة "أسباب" فى حالتى أيضًا.

طيب، أنت ماهر.

وأطلقت "تامارا" ما يشبه الضحكة، ومدت ذراعيها إليه قائلة:

ألم أقل لك ؟

-٣-

استغرق "هرمان" فى نوم عميق، فأيقظه شخص منه، وفتح عينيه فى العتمة، ولم يدر أين هو، يادفيجا؟ ماشا؟ وتساءل: "هل انطلقت مع امرأة أخرى؟"، واستمر اختلاط الأمر عليه بضع ثوانٍ، إنها "تامارا" طبعًا، فسألها: ما الأمر؟

فقالت بصوت مرتعش، وهى تمسك دموعها بصعوبة:

أود أن تعرف الحقيقة.

حقيقة ماذا؟

حقيقة أنى لم أتخذ أحدًا، لا ثلاثة رجال، ولا رجلاً واحدًا، أو حتى نصف رجل، ولم يمسسنى أحد.

واستوت "تامارا" جالسة فى الفراش، واستشعر فى الظلام حدتها وتصميمها على ألا تدعه يعود إلى النوم ثانية إلا بعد أن يسمعها، فقال: أنت تكذبين.

أنا لا أكذب، فقد أخبرتك الحقيقة أول مرة سألتنى فيها، ولكن يبدو أن أملك خاب، ماذا دهاك؟ هل أنت شاذ؟

لست شاذًا.

أنا آسفة يا هرمان، أنا طاهرة كيوم تزوجتنى، وأقول لك إنى آسفة، لأنى لو كنت أعرف أنك مخادع هكذا لحاولت أن أتلاءم معك، لم يكن يوجد بالتأكيد نقص فى الرجال الذين يرغبون فىّ.

ما دمت قد ألقيت الكلام جزافًا بهذه السهولة، فلن أقدر على تصديقك مرة أخرى.

طيب، لا تصدقنى إذن، لقد قلت لك الحقيقة عندما التقينا فى منزل عمى، ربما تود أن أصف لك بعض العشاق المتخيلين لأرضيك فقط، بيد أن خيالى ليس خصبًا بما فيه الكفاية، أنت تعرف مدى قدسية ذكرى أولادى عندى، إنى أفضل أن يقطع لسانى فى الحال على أن أدنس ذكراهما، وأُقسِم بيوكابد وداوود أن رجلاً آخر لم يمسسنى، ولا تظن أنه أمر سهل أن حققت ذلك، فقد كنا ننام على الأرض وفى مخازن الحبوب وحظائر الماشية، وتمنح النسوة أنفسهن لرجال يعرفنهم بالكاد، وعندما يحاول أحدهم أن يقترب منى كنت أدفعه بعيدًا، فقد كنت أرى دومًا وجها طفلىّ أمامى، وأُقسم بالله وبطفلىّ وبروح أبى وأمى المباركين أن لم يقبلنى رجل كل هذه السنوات! وإذا لم تصدقنى الآن، فإنى أتوسل إليك أن تتركنى وحدى، فالإله نفسه لا يستطيع أن ينتزع منى قسمًا أغلظ من هذا.

إنى أصدقك.

لقد قلت لك إن هذا كان من الممكن حدوثه، ولكن شيئًا ما حال دون ذلك، ما هو لست أدرى، ومع أن العقل حدثنى بأنه لم يبق أثر من عظامك، فقد أحسست أنك موجود فى مكان ما، كيف تفسر الواحدة ذلك؟

ليس من الضرورى فهم ذلك.

ثمة شىء آخر أود أن أقوله لك يا هرمان.

ما هو؟

أرجوك الا تقاطعنى، قبل أن أجىء إلى هنا فحصنى الطبيب الأمريكى فى القنصلية وقال لى إنى بصحة تامة، لقد بقيت بقيد الحياة رغم كل شىء: الجوع والأوبئة، وعملت عملاً شاقًا فى روسيا، نشرت كتل الخشب وحفرت المصارف وجررتُ عربات اليد المملوءة بالحجارة، وبدلاً من أن أنام بالليل كنت أُعنى فى أحيان كثيرة بالمريض الذى يرقد بالقُرب منى على ألواح الخشب الثقيلة، ولم أكن أعلم أنى أمتلك هذه القوة الوافرة، سأحصل على عمل هنا عما قريب، ولا يهم ما ينطوى عليه من مشقة؛ لأنه سيكون أسهل مما كنت أضطر إلى عمله هناك، ولست أريد أن استمر فى تقبل النقود من "المؤسسة"، وأريد أن أعيد الدولارات القليلة التى أصر عمى على إعطائها لى، وأنا أقول لك هذا لكى تعلم أنى لم أجىء إليك - لاسمح الله - طلبًا للمساعدة، وعندما قلت لى إنك تكسب عيشك من تأليف الكتب لحاخام ينشرها باسمه فهمتُ وضعك، فأنه لا سبيل أمامك للعيش سوى هذا، أنت تدمر نفسك .

أنا لا أدمر نفسى يا تامارا، لقد تحطمت منذ زمن طويل.

ما الذى سيحدث لى؟ أنا لن أقول هذا، ولا أستطيع أن أكون مع احد يخر أبدًا، وأنا أعلم هذا يقينًا مثلما أعلم أننا بالليل الآن.

فلم يرد "هرمان"، إذْ أغمض عينيه كأنه يود الحصول على لحظة أخرى من النوم، فقالت:

هرمان، لم يعد ما أعيش من أجله الآن، لقد أضعتُ أسبوعين تقريبًا فى الأكل والتنزه والاستحمام والتحدث إلى كل صنوف الناس، وأنا أقول لنفسى طوال الوقت:

لماذا أفعل هذا؟ حاولت أن أقرأ، فلم تجتذبنى الكتب، واستمر النسوة يقترحن على ما أفعله بنفسى، على أنى كنت أغيّر الموضوع بالنكات والمزاح الذى لا معنى له، هرمان، لا يوجد طريق آخر أمامى للخلاص، يجب أن أموت.

فاستوى "هرمان" جالسًا فى الفراش، وقال:

ماذا تودين أن تفعلى؟ أن تشنقى نفسك؟

إذا كانت قطعة من الحبل كفيلة بوضع نهاية للأمر، فليبارك الله فى ضافر الحبل، ما زال لدىّ بعض الأمل هنالك، لقد خططت فعلاً للاستقرار فى إسرائيل ولكن حين اكتشفت أنك حية تغير كل شىء، أنا الآن بدون أمل تمامًا وبسبب ذلك يموت المرء أسرع مما يموت بالسرطان، رأيت ذلك مرات كثيرة، ورأيت العكس أيضًا، كانت امرأة فى جامبول ترقد على فراش الموت، ثم تسلمت رسالة ولفة طعام من الخارج فاستوت جالسة وتعافت بسرعة، وكتب الطبيب تقريرًا عنها وأرسله إلى مُوسكو .

أما زالت حية؟

لقد ماتت بالدوسنتاريا فى العام التالى.

تامارا، أنا أيضًا بدون أمل، إن توقعاتى هى السجن والترحيل.

لماذا السجن؟ أنت لم تسرق أحدًا.

إن عندى زوجتين، وسيكون عندى الثالثة عما قريب.

فسألته "تامارا":

من هى الثالثة؟

ماشا، المرأة التى أخبرتك عنها.

قلت إن لها زوجًا.

لقد طلقها وهى حامل.

ولا يدرى "هرمان" سبب بوجه بهذا لـ "تامارا"، على أنه فيما يبدو محتاجًا إلى من يأتمنه على سره ن وربما ليصدمها بورطاته، فقالت:

طيب، تهانىّ، ستكون أبًا من جديد.

سأجن، هذه هى الحقيقة المرة.

نعم، لا يمكن أن تكون فى تمام عقلك، خبرنى ما معنى هذا؟

إنها خائفة من الإحهاض، حين يصل الأمر إلى أشياء كهذه، فلا يمكن إجبار الشخص عليها، فهى لا تريد أن يكون الطفل غير شرعى، وأمها - إلى ذلك - ورعة.

طيب، يجب علىّ أن أعاهد نفسى على ألا أدهش مرة أخرى، سأوافق على الطلاق منك، يمكن أن نذهب إلى الحاخام غدًا، كان يجب ألا تأتى إلىّ فى هذه الظروف، الكلام معك على استقامَة واحدة مثل مناقشة الألوان مع رجل أعمى، هل كنت دائمًا هكذا؟ أم أن الحرب هى التى فعلت بك هذا؟، أنا لا أتذكر أى نوع من البشر أعتدت أن تكون، وأقول لك إن ثمة فترات فى حياتى نسيت فيها كل شىء تقريبًا، وأنت؟ هل أنت عابث فقط، أم أنك تستمتع بالمعاناة؟

أنا محبوس بتأشيرة الدخول، ولا أستطيع أن أحرر نفسى.

ستتحرر منى عما قريب، وتستطيع أن تتخلص من يادفيجا، أعطها أجرة السفر، وأرسلها إلى بلدها بولندا، فهى تجلس فى الشقة وحدها، على الفلاحة أن تعمل وتنجب الأطفال وتخرج إلى الحقول فى الصباح لا أن تبقى محبوسة كالحيوان فى القفص، قد تخرج عن صوابها بهذه الطريقة وإذا قُبِض عليك ـ لاسمح الله ـ فماذا يكون حالها؟

تامارا، إنها أنقذت حياتى.

ألهذا السبب تريد أن تحطمها؟

فلم يجب "هرمان"، وبدأ النور ينتشر تدريجيًا، فأمكنه أن يميز وجه " تامارا" إذْ تشكل خارج نطاق العتمة ـ قُطَيْعة هنا وقُطَيْعة هناك مثل الوجه حيث يُرسَم، وعلقت إليه، وعلى الحائط المقابل للنافذة ألقى ضوء الشمس بقعة تشبه فأرًا قرمزيًا، وأدرك "هرمان" مدى البرودة فى الغرفة، فقال لـ "تامارا" استلق وإلا أصبت بزكام قاتل.

لن يأخذنى الشيطان حالاً هكذا.

ومع ذلك رقدت من جديد، فغطى "هرمان" كلاً منهما بالبطانية، واحتضنها فلم تقاومه، وقد تمددا معًا بدون كلام، وتغلبا على مطالب الجسد المتناقضة والمعقدة معًا، وصار الفأر القرمزى على الحائط أكثر شحوبًا، وفقد ذيله وسرعان ما تلاشا معًا، وعاد الليل بعد قليل.

ـ ٤ ـ

وفى منزل "ماشا" قضى "هرمان" النهار والليل قبل عشية عيد الغفران، وقد ابتاعت "شيفرابؤه" دجاجتين على سبيل القربان،

واحدة لها والأخرى لـ "ماشا"، وأرادت أن تبتاع ديكًا من أجل "هرمان" فحال هو دون ذلك؛ إذْ كان يفكر فى ذلك الوقت أن يصبح نباتيًا، وكان فى كل مناسبة يشير إلى أن ما صنعه النازيون باليهود يصنعه الإنسان بالحيوانات، كيف تستخدم دجاجة للتكفير عن ذنوب إنسان ؟ ولماذا يتقبل الإله الرحيم هذه الضحية؟ وأقرت "ماشا" "هرمان" على رأيه فى هذه المرة، فأقسمت "شيفرابؤه" أن تترك البيت إذا لم تؤد "ماشا" هذه الشعيرة، وبعد الموافقة على مضض وتدوير الدجاجة حول رأسها والنطق بالأدعية المأمور بها رفضت "ماشا" أن تأخذ الدجاجتين إلى الجزار الشعائرى، وعلى الأرض استقرت الدجاجات إحداهما بيضاء والأخرى بنية وأرجلها مربوطتان وعيناهما الذهبيتان تنظران من الجانب، فاضطرت "شيفرابؤه" إلى أخذ الدجاجتين بنفسها إلى الجزار، وأنفجرت "ماشا" فى البكاء فور مغادرة أمها البيت، وصار وجهها ملتويًا بأكمله ومبللاً بالدموع، وارتمت بين ذراعى "هرمان" وصاحت : "لن أستطيع أن أتحمل هذا مرة أخرى، لا أستطيع، فأعطاها "هرمان" منديلاً لتتمخط، وذهبت إلى الحمام، فسمع بكاءها المكتوم، وعادت بعد ذلك إلى الغرفة، وفى يدها قنينة ويسكى، وقد احتست بعضًا منها، وهى نصف ضاحكة ونصف باكية، مع خبث طفلة مدللة، وخطر ببال "هرمان" أنه كلما تقدم بها الحمل صارت فى حالة طفلية غير ملائمة، وقد كانت فيها خِصال فتاة صغيرة على نحو يثير القهقهة، وسذاجة على نحو هزلى، وتذكر قول الفيلسوف "شوبنهور" أن الأنثى لا يكتمل نضجها أبدًا، وتظل حاملة الأطفال طفلة هى أيضًا، وقالت "ماشا":

ثمة شىء واحد فقط قد تبقى فى هذا العالم: الويسكى.

وأردفت وهى تقرب القنينة إلى فم "هرمان" : إليك، اشرب.

كلا، إنه ليس لى.

ولم تأت "ماشا" إليه فى تلك الليلة؛ لأنها نامت عقب العشاء مباشرة بعد أن تناولت حبة منومة، واستلقت على سريرها بكامل ملابسها فى غيبوبة سُكر، وأطفأ "هرمان" النور فى غرفته، وكانت الدجاجتان اللتان تشاجرتا "شيفرابؤة" و "ماشا" بشأنهما قد نقعتا فى الماء وشطفتا ووضعتا فى الثلاجة، وتألق ثلاثة أرباع القمر غير المكتملة تمامًا من خلال النافذة، وألقى بتوهجه على صفحة سماء الليل، ونام "هرمان" وحلم بأشياء لاعلاقة لها بمزاجه، فهو على نحو ما ينزلق من على تل من الجليد مستعملاً أداة غريبة الشكل هى خليط من المزلج النعلى والمِزلجة والزحلوقة.

وبعد الإفطار فى الصباح ودع "هرمان"شيفرابؤة" و "ماشا" ومضى إلى بروكلين، وفى الطريق كلم "تامارا" تليفونيًا، وكانت "شيفا هاداس" قد ابتاعت لها مقعدًا فى قسم النساء بكنيسهم لكى تحضر صلوات منتصف الليل، وبعد أن تمنت "تامارا" لـ "هرمان" أطيب الأمانى كالزوجة التقية أضافت قائلة " لا يهم ما يحدث، لا يوجد أحد أقرب إلىّ منك"، ولم تقم "يادفيجا" بشعيرة الدجاجة الدائخة، وإن أعدت فى اليوم السابق على عيد الغفران خبز الحالا والعسل والسمك والكريبلاج والدجاج، وانبعثت من مطبخها الرائحة عينها التى انبعثت من مطبخ "شيفرابؤه"، وصاحت "يادفيجا" فى عيد الغفران، ودفعت ثمن تذكرة فى الكنيس فضلاً عن عشرة دولارات وفرتها من مصروف البيت، وصبت غيظها حينذاك على " هرمان " واتهمته بالجرى وراء نساء أخريات، فحاول أن يدافع عن نفسه،

على أنه لم يخف ضيقه، بل دفعها وركلها فى النهاية وهو يعلم أن ضرب الأزواج لزوجاتهم فى قريتها ببولندا هو تأكيد للحب، فأخذت "يادفيجا" تولول؛ فقد أنقذت حياته، وها هو ذا يكافئها بالضرب فى عشية أقدس يوم فى السنة، وإنقضى النهار وحل الليل، وتناول "هرمان" و "يادفيجا" الوجبة الأخيرة قبل الصيام، وتناولت "يادفيجا" إحدى عشرة جرعة ماء مثلما نصحتها جاراتها منعًا للعطش فى أثناء الصيام، وصام "هرمان"، ولكنه لم يذهب إلى الكنيس؛ لأنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على أن يكون مثل أولئك اليهود المندمجين الذين يصلون فى الأعياد الكبيرة فقط، وإن كان هو يصلى أحيانًا حين لا يكون فى صراع مع الإله، ولكن أن يقف فى بيت الإله وبين يديه كتاب الصلاة ، ويثنى عليه ويحمده طبقًا للعُرف المتبع، فذلك ما لا يستطيعه، وعرف الجيران أن "هرمان اليهودى" قاعد فى البيت فى حين أن زوجته غير اليهودية ذاهبة للصلاة، فتخيلهم "هرمان" وهم يبصقون عند ذكر اسمه، إذْ يعاقِبونه بالحَرْم على طريقتهم الخاصة، وارتدت " يادفيجا " فستانًا جديدًا كانت قد اشترته بسعر رخيص من بيع التصفية، ولَفّت شعرها بمنديل، ووضعت عِقدًا من اللآلئ الزائفة حول جِيدها، وتألق خاتم الزفاف فى أصبعها، الخاتم الذى اشتراه لها رغم أنه لم يقف معها تحت ظُلة الزفاف، وأخذت معها إلى الكنيس كتاب الصلاة، وكان مطبوعًا بالعبرية والانجليزية على الصفحات المتقابلة، ولم يكن بوسع "يادفيجا" أن تقرأ أيًا من اللغتين، وقبل أن تنصرف قبلت "هرمان" قائلة على نحو أُمّىّ : اطلب من الله أن يكون عامًا سعيدًا.

ثم انفجرت باكية كالمرأة اليهودية الطيبة.

وانتظرت الجارات "يادفيجا" أسفل الدرج، وهن متلهفات على انضمامها إلى حلقتهن ليعلمنها الديانة اليهودية التى بقيت من أمهاتهن وجداتهن، الديانة التى أضعفتها وشوهتها السنوات فى أمريكا، وراح "هرمان" يذَرع الشقة جيئة وذهوبًا، إذْ كان يكلم "ماشا" بالتليفون فى التو عادة عندما يجد نفسه وحيدًا فى بروكلين، على أن "ماشا" لم تكن تتكلم بالتليفون أو تدخن فى عيد الغفران، ومع ذلك فقد حاول أن يكلمها؛ لأنه لم تكن قد ظهرت بعد ثلاث نجمات فى السماء، فلم يتلق ردًا، وأحس "هرمان" وهو بمفرده فى الشقة وكأنه مع النساء الثلاث جميعًا: "ماشا" و"تامارا" و"يادفيجا"، وأن بوسعه أن يقرأ أفكارهن كقارئ الأفكار، فهو يعرف أو على الأقل يرى أنه يعرف كيف يعمل عقل كل واحدة منهن، وتنسجم أحقادهن التى يضمرنها للإله مع أحقادهن عليه هو، فهن يصلين من أجل صحته، ويطلبن من الله القدير أن يصلح حاله، ومع أن الإله تلقى فى هذا اليوم كثيرًا من التمجيد والحمد، فلم يكن " هرمان " فى حالة نفسية تسمح له بأن يُقضِى إليه بذات نفسه، ومضى إلى النافذة، وكان الشارع خاليًا، وقد شرعت أوراق الشجر تدوم وتسقط على الأرض مع كل هبة ريح فجائية، وكان الممشى الخشبى على الشاطئ مهجورًا، وكل الدكاكين فى شارع مرميد مغلقة، إنه ليوم غفران وهدوء فى جزيرة كُونِى، هدوء لدرجة أنه سمع هدير الأمواج فى شقته، وربما كان الحال دومًا عيد غفران للبحر وصلاة للإله أيضًا، ولكن الإله كالبحر نفسه متدفق إلى الأبد، وحكيم لا تنضب حكمته، وغير متحيز على نحو نهائى، ومهول فى قوته غير المحدودة، ومصمم على قوانين لا تتغير، وحاول "هرمان" أن يُرسِل إلى "يادفيجا" و"ماشا" و "تامارا" رسائل عن بعد "تلباثية" يطيب بها

خاطرهن جميعًا ويتمنى لهن عامًا طيبًا، ويعدهن بالحب والوفاء، وذهب إلى غرفة النوم، وتمدد على الفراش بملابسه، ولم يرد أن يسلم بالأمر الواقع، فقد كان من أعظم مخاوفه جميعًا وأشدها أن يصبح أبًا من جديد، فهو يخشى أن، يكون أبًا لابن، ويخشى أكثر أن يكون أبًا لابنة، فهذا الأب سيكون أقوى تأكيدًا على الفلسفة الوضعية التى يرفضها، وأقوى تأكيد على عبودية لا يرغب فى التحرر منها، وعمى لا يود التسليم به، ونام "هرمان" وأيقظته "يادفيجا"، وقالت له إن المُرتل فى الكنيس تغنى بـ " كل النُذور ..."، وأن الحاخام ألقى موعظة يحث فيها على جمع التبرعات لطلاب المعاهد الدينية فى الأراضى المقدسة، ولأغراض دينية أخرى، وتعهدت "يادفيجا" بخمسة دولارات، وقالت لـ "هرمان" على نحو مرتبك إنها لا تريده أن يمسها هذه الليلة؛ فهذا حرام، وانحنت عليه ورأى فى عينيها التعبير الذى اعتاد أن يراه على وجه أمه فى أثناء الأعياد الكبيرة، وارتعشت شفتا "يادفيجا" وكأنها على وشك أن تتكلم، ولكن لم يصدر من بينهما صوت، ثم همست:

- سأصبح يهودية، وأود أن أنجب طفلاً يهوديًا.

■■■

الفصل السادس

ـ ١ ـ

قضى "هرمان" اليومين الأولين من عيد الظُلَل مع "ماشا"، ثم عاد إلى شقته فى بروكلين فى الأيام الوسطى منه، وتناول الإفطار، وجلس إلى منضدة فى غرفة الجلوس للعمل فى فصل من كتاب عنوانه "الحياة اليهودية كما يعكسها شولحان عاروخ(*) والفتاوى الشرعية"، وهو كتاب وافق عليه حينذاك ناشرون فى أمريكا وإنجلترا، وكان الحاخام "لامبرت" على وشك أن يوقع بخصوصه أيضًا عقدًا مع مؤسسة فرنسية، وكان من المقرر أن يتلقى نسبة من جُعْل الكتاب على أن يقع فى ألف وخمسمائة صفحة تقريبًا، وقد خطط له الحاخام "لامبرت" أن يشتمل فى بادئ الأمر على مجلدات عدة، بيد أنه رتب للمُؤَلَّف أن يظهر على شكل سلسلة بحوث أو

(*) شولحان عاروخ (أو المائدة المرتبة): كتاب ألفه الحاخام يوسف كارو، وهو إيطالى عاش فى القرن السادس عشر، والكتاب يحتوى على أحكام التلمود مرتبة ترتيبًا دقيقًا مع الاختصار وسهولة العثور على الحكم المراد.

رسائل، كل منها فيما يُزعَم قائم بذاته، وبهذه الطريقة يمكنهم بعد إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليها ضمها جميعًا فيما بعد فى مجلد واحد، وكتب "هرمان" سطورًا قليلة، ثم توقف، فقد بدأت "أعصابه" تضطرب فور جلوسه للعمل، وغالبه النعاس، وهو يُبقى عينيه مفتوحتين بالكاد، وتعين عليه أن يشرب، واحتاج إلى التبول، وأحس بكسرة خبز بين سنتين مخلخلتين، وحاول أن يخرجها بطرف لسانه، ثم يخيط منتزعًا من جلدة كراسة، وذهبت "يادفيجا" إلى الدور التحتى لغسل الملابس بعد أن أخذت قطعة نقدية من فئة ربع الدولار لتضعها فى الغسالة، وفى المطبخ كان "فويتس" يلقى محاضرة تتعلق بالطير على "مارياتا"، حيث جثمت بالقرب منه على الحامل، ورأسها محن شعورًا بالذنب، وكأنه يوبخها بشدة على ذنب لا يُغتفَر، ورن التليفون، وتساءل "هرمان" ماذا تريد الآن؟، فقد تحدث إلى "ماشا" قبل نصف ساعة بالضبط، وقالت له إنها ذاهبة إلى شارع ترمونت للتسوق من أجل الأيام المتبقية من العيد - شيمنى عَصيرِت(*) وسِمْحَتْ توراة(**)، ورفع السماعة وقال: "نعم، يا ماشيل، فسمع صوتًا ذكوريًا عميقًا فيه شىء من التردد، صوتًا حلقيًا يُحدثه الرجل حين يهم بالكلام، فيُقاطع ويخسر تسلسل أفكاره، وهَمَّ "هرمان" أن يقول إن الرقم غير صحيح حين سأل الصوت عنه هو شخصيًا، فلم يستطع أن يقرر هل ينهى المكالمة أم

(*) شيمنى عَصيرِت: أى الثامن الختامى؛ لأنه يختم عيد الظلل عند اليهود بأيامه السبعة ، بل يختم كل الأعياد المكدسة من الشهر الأول من السنة العبرية ، وهو شهر تشرى.

(**) سِمْحَتْ توراة: وهو اليوم الأخير من عيد الظلل بالنظر إلى مدته التقليدية (٩) أيام ، وبه تفتح دورة مديدة من قراءة التوراة؛ ولذا سمى عيد فرحة التوراة " سِمْحَتْ توراة".

لا، هل هو شرطى سرى؟، هل اكتشف أمر تعدد زوجاته، على أن قال أخيرًا: من المُتحدث؟

وكح الشخص الذى على الطرف الآخر من الخط، وتنحنح، وكح مرة أخرى كالخطيب إذْ يتهيأ لإلقاء خطبة، فقال باليدية:

أرجو أن تنصت إلىّ، اسم ى ليون تورتشينر، أنا زوج ماشا السابق.

فجف حلق "هرمان"؛ إذْ كان هذا أول اتصال تليفونى مباشر مع تورتشينر يجريه فى حياته، وكان صوت الرجل عميقًا وييديته تختلف عن ييدية "هرمان" و "ماشا"، فقد كان يتكلم بلهجة مطابقة للهجة منطقة صغيرة من بولندا تشمل المقاطعات الواقعة تقريبًا بين رادوم ولوبلين، إذْ تنتهى كل كلمة باهتزاز خفيف، كالصوت الصادر من النغمات الخفيضة للبيانو، ثم قال "هرمان":

نعم، أعرفك، كيف حصلت على رقم تليفونى؟

– ما الفرق؟ لقد حصلت عليه وهذا ما يهم، إذا كان يجب أن تعرف، فقد أبصرته فى دفتر العناوين الخاصة بها، وأنا لدىّ ذاكرة جيدة للأرقام، ولم أكن أعرف رقم من هو، بيد أنى فى النهاية حزرته كما يقولون.

فهمت.

أتمنى ألا أكون قد أيقظتك.

كلا، كلا .

وتوقف "تورتشينر" قليلاً قبل أن يواصل كلامه، وظن "هرمان" من التوقف أنه شخص متأنٍّ يفكر مليًا ورد فعله له بطىء.

قال: "تورتشينر":

هل يمكن أن نجتمع معًا؟

ما الداعى؟

إنها مسألة شخصية.

ومرق بذهن "هرمان" أنه ليس نبيهًا جدًا "، وكثيرًا ما قالت "ماشا" إنه غبى، وسمع "هرمان" نفسه يتلعثم وهو يقول:

أنا واثق بأنك تعرف أن هذا كريه جدًا لدىّ، أنا لا أرى ضرورة لذلك، مادمت قد طلقت و...... و..........

عزيزى السيد برودر، لو كان هذا غير ضرورى لنا معًا على السواء ما اتصلت بك.

وقهقه "تورتشينر" قليلاً محدثًا صوتًا هو مزيج من الانزعاج والانشراح وجذل المنتصر الذى فاق خصمه فى الدهاء والمكر، فاستشعر "هرمان" احترارًا فى أذنيه، وقال:

ربما استطعنا أن نناقش المسألة عبر التليفون.

ثمة مسائل يجب مناقشتها وجهًا لوجه، خبرنى أين تسكن، وأنا أحضر إلى سكنك أو نلتقى فى كافيتيريا، ستكون ضيفى.

فقال "هرمان" مُصرًا :

- أعطنى فكرة على الأقل عن الأمر.

وبدا أن "ليون تورتشينر" يحرك شفتيه معًا بحساب، ويقاوم قرار الكلمات من سيطرته عليها، وصار الصوت فى النهاية كلمات:

وماذا يكون إلا عن ماشا؟ أعنى أنها حلقة الوصل بيننا، حقيقة أنى أنا وماشا انفصلنا بالطلاق، ولكنا كنا فيما مضى رجلاً وامرأة، ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك، أنا أعرف كل ما يتعلق بك حتى قبل أن تخبرنى هى، ولا تسلنى كيف، فأنا عندى مصادر معلوماتى كما يقولون.

وأين أنت الآن؟

أنا فى فلاتبُوش، أنا أعلم أنك فى مكان ما فى جزيرة كُونى، إذا كان لا يناسبك أن تأتى إلى مسكنى، فسآتى أنا إلى مسكنك، إذا لم يأت محمد إلى الجبل وَجَبَ أن يأتى الجبل إليه.

فقال "هرمان":

توجد كافيتيريا فى شارع سيرف، بوسعنا أن نلتقى هناك.

كان جَهْدًا على "هرمان" أن تكلم، إذْ دَلَّ "تورتشينر" على موقع الكافيتيريا بالضبط، وأخبره عن القطار النفقى الذى يمكن أن يُوصله إلى هناك، وجعله "تورتشينر"يكرر الاتجاهات مرات عدة، ويستفيض فى كل شىء، وكرر "تورتشينر" العبارات وكأن فعل التكلم بذاته، يمنحه لذة. ولم يكن النفور الذى أثاره فى نفس "هرمان"، النفور القائم بالفعل، قدر الانزعاج الذى سببه له، إذْ جره قسرًا إلى هذا الموقف المُحرج، كذلك كان "هرمان" مُرتابًا، من يدرى؟ وغير مستبعد أن يكون هذا الشخص هذا الشخص الوضيع حاملاً سكينًا. استحم "هرمان" وحلق بسرعة، وقرر أن يرتدى أفضل بذلة عنده، فلم يُرِد أن يكون رث الثياب أمام الرجل، وقال لنفسه بطريقة ساخرة : على المرء أن يَسُرَّ الجميع، بل الزوج السابق لخليلته أيضًا، ومضى إلى الطابق التحتى فرأى أحد ملابسه الداخلية يدور

بطريقة وحشية من خلال واجهة الغسالة، حيث يرغى الماء ويتاثر وخطرت بباله فكرة غريبة أن هذه الأشياء الجامدة: الماء والصابون ومسحوق التبيض ـ غاضبة على الإنسان والقوة التى يستخدمها للسيطرة عليها، وفزعت "يادفيجا" لرؤية "هرمان" إذْ لم ينزل قبل الآن إلى الطابق التحتى، فقال لها : أنا مضطر إلى لقاء شخص فى الكافيتيريا فى شارع سيرف.

ومع أنها لم تسأله، فقد وصف لها بالتفصيل أين تقع الكافيتيريا، وهو يفكر أنه إذا ما عَنّ لـ "ليون تورتشينر" أن يهاجمه، فسيكون لدى " يادفيجا " علم أين هو، أو أن يكون فى مقدورها أن تظهر كشاهدة أمام المحكمة إذا اقتضت الضرورة، بل إنه كرر أيضًا على سمعها اسم " ليون تورتشينر " مرات عدة، ففغرت هى فمها بإذكان فلاحة طالما استسلمت وهى تحاول أن تفهم قاطن المدينة وأساليبه، وإن أظهرت عيناها شيئًا من عدم الثقة، فهو يجد مبررات للابتعاد حتى فى الأيام التى تخصها، ونظر "هرمان" إلى ساعة يده، وضبط الوقت لنفسه لكيلا يصل إلى الكافيتيريا قبل الموعد بكثير، وكان على يقين أن رجلاً مثل " ليون تورتشينر " سيتأخر نصف ساعة على الأقل، وقرر أن يتمشى على الممشى الخشبى، وكان النهار مشمسًا، والجو معتدلاً، وكانت كل وسائل التسلية مغلقة ولم يبق شىء منها عدا الأبواب الموصدة والإعلانات المقشورة والباهتة، وقد انصرف كل المُؤدين: الفتاة التى تتخذ هيئة نصف ثعبان، الرجل القوى الذى يتخلص من السلاسل، السباح الذى بدون قدمين أو يدين، الوسيط الذى يستدعى أرواح الموتى، وكانت لوحة الإعلانات التى تُنبئ أن صلوات أيام العيد المزمعة إقامتها فى قاعة حضور النادى الديموقراطى، كانت باهتة ومبقعة

بفعل الجو، وحلقت النوارس وأطلقت صرخاتها فوق المحيط، واندفعت الأمواج نحو الشاطئ وهى تهسهس وتُرغى، ثم تعود كما أتت دومًا: مجموعة من الكلاب النابحة العاجزة عن العض، وعلى البعد تتهزهز على الماء سفينة ذات شراع رمادى، وهى كالمحيط نفسه، تتحرك ثم تبقى ساكنة - جثة مُكفنة تسير على سطح الماء، وفكر "هرمان": "كل شىء قد وقع فعلاً: الخلق، الطوفان، سدوم، إعطاء التوراة، مَحْرَقة هتلر "، ومثل البقرات العجاف فى حلم فرعون، فإن الحاضر قد ابتلع الأبدية ولم يترك أثرًا" .

ـ ٢ ـ

ودخل "هرمان" الكافيتيريا، فرأى"ليون تورتشينر"جالسًا إلى منضدة لصق الحائط، ومَيّزه من صورة ضوئية له كان قد رآها فى "ألبوم" "ماشا" وإن كان الآن أكبر بكثير عما هو عليه فى الصورة، إنه الآن رجل فى الخمسين تقريبًا وعريض وذو رأس مربع الشكل، وشعر أسود كثيف، ويمكن للمرء أن يتبين من لمحة أنه مصبوغ، وهو ذو وجه عريض وذقن بارز، وعظم وجنتين مرتفع، وأنف عريض ذى فتحتين كبيرتين، وشعر حاجبين كثيف، وعينين بنيتين منحرفتين كعيون التتار، وتوجد ندبة فى جبهته تشبه أثر جرح قديم أحدثه سكين، وخففت هالة التواضع اليهودى البولندى من مظهره الخشن، وفكر "هرمان": "إنه لن يقتلنى"، ولم يصدق أن هذا الجلف كان زوجًا لـ"ماشا" فيما مضى، وكان مَحض الفكرة مضحكًا، ولكن هذا شأن الحقائق، فهى تقضى على كل فقاعة رأى، وتحطم النظريات وتهدم كل إيمان راسخ أو اقتناع، وقد وُضع فنجان قهوة أمام "تورتشينر" واستقر سيجار ذو بوصة من الرماد عند طرفه على منفضة سجائر، وإلى يسار طبق عليه كعكة بيض مأكولة جزئيًا، وما

إن لمح "هرمان" حتى بدا وكأنه يهم بالنهوض، ولكنه ارتد جالسًا على كرسيه من جديد، وتساءل وهو يمد يدًا ثقيلة ضخمة: هرمان برودر؟

- السلام عليكم.

فقال "تورتشينر":

اجلس، اجلس، سأحضر لك بعض القهوة.

كلا، شكرًا.

شاى؟

كلا، شكرًا.

فقال "ليون تورتشينر" بصورة جازمة، سأحضر لك بعض القهوة، أنت ضيفى ما دمت قد دعوتك أنا، يجب علىّ أن أراقب وزنى، هذا هو السبب فى أنى أتناول كعكة بيض فقط، أما أنت فتستطيع أن تتحمل أكل قطعة من كعكة جبن.

فى الواقع، هذا ليس ضروريًا.

ونهض "تورتشينر" واقفًا، وشاهده "هرمان" وهو يتناول صينية، ويأخذ مكانه فى الصف عند النُضد، وقد بدا قصيرًا جدًا بالقياس إلى بنيته العريضة، وذا يدين ضخمتين على نحو زائد، وقدمي وكتفى رجل قوى، وكانت تلك هى الكيفية التى ينمُون بها : زيادة فى العرض أكثر من طول القامة، وقد ارتدى بذلة بنية مقلمة، وبدا واضحًا أنها أُختيرت بمحاولة أن يبدو أصغر سنًا، وعاد بفنجان قهوة وقطعة من كعكة جبن، والتقط السيجار الخامد تقريبًا بسرعة، وأخذ نفسًا منه بقوة، ثم نفخ سحابة من دخان، وقال:

تصورتك على نحو مختلف تمامًا، فقد وصفتك ماشا بأنك دون جوان محترف.

وكان من الواضح أنه لم يقصد بهذا الوصف حطًا من القدر، فخفض "هرمان" رأسه، وقال:

- أفكار نساء.

لقد فكرت مدة طويلة هل أتصل بك أم لا، أنت تعرف أن المرء لا يفعل شيئًا كهذا بسهولة، إن عندى كل ما يوجب أن أعاديك، بيد أنى أقول لك فورًا إنى هنا من أجلك، سواء صدقتنى أم لم تصدقنى، فتلك قضية أخرى كما يقولن.

نعم، أنا أدرك ما تقول.

كلا، أنت لا تدرك، كيف تدرك، وأنت كما قالت لى ماشا شبيه بالكاتب، أما أنا فعالِم، وقبل أن يدرك المرء يجب أن تكون لديه الحقائق، كل المعلومات، مسبقًا نحن لا نعلم شيئًا، وإن كنا نعلم فقط أن واحدًا وواحدًا يساويان اثنين.

ما هى الحقائق؟

الحقائق هى أن ماشا ابتاعت منى طلاقها بسعر لا يجب أن تدفعه امرأة محترمة حتى لو كانت حياتها تقوم على هذا الطلاق.

وقد تكلم "ليون تورتشينر" بصوت عميق وبدون عَجَلة أو غضب فيما يبدو، وأردف:

"وأرى أنه يجب أن تعلم هذا؛ لأنه إذا كانت المرأة قادرة على دفع ثمن كبير فلن يتأكد المرأ تمام التأكيد أبدًا من استقامتها، لقد كان لها عشاقها قبل أن تعرفنى، كذلك وهى تعيش معى، هذه هى

الحقيقة المؤكدة، وهذا سبب انفصالنا، وسأكون صريحًا معك، فى الأحوال العادية ليس لدى ما يبرر هذا الاهتمام بك، ولكنى بدأت التعارف على شخص يعرفك، ولم يكن يعرف علاقتنا - إذا كنت تسميها علاقة - وتصادف أن حدثنى عنك، ولماذا أبقى اسمه سرًا؟ اسمه الحاخام لامبرت، لقد أخبرنى أنك عانيت خلال الحرب، وأنك قضيت سنوات راقدًا فى مخزن ملآن بالتبن وما إلى ذلك، أنا أعرف أنك تؤدى عملاً له، يسميه هو "بحثًا"، أنت لست مضطرًا إلى أن ترسم لى رسومًا بيانية، لأنك تلمودى، أما أنا فمتخصص فى علم الجراثيم، وكما تعرف، فإن الحاخام لامبرت يعمل فى كتاب ليبرهن على أن كل المعرفة نابعة من التوراة، وقد أرادنى أن أساعده بالجزء العلمى، فأخبرته بوضوح أن المعرفة الحديثة لا توجد فى التوراة، ولا معنى للبحث فيها عنه، فلم يكن موسى يعرف شيئًا عن الكهرباء أو الفيتامينات، وأكثر من ذلك أنى لا أريد أن أبدد طاقتى لقاء بضعة دولارات، وأفضل أن أدير أمورى بالقليل، ولم يذكر الحاخام فى الحقيقة اسمك، على أنه حين تكلم عن رجل اختبأ فى مخزن تبن أدركت حقيقة الأمر، وقد أثنى عليك ثناءً حميدًا، على أنه لم يكن يعرف طبعًا ما أعرفه أنا، وهو شخص غريب، فقد دعانى منذ اللحظة الأولى باسمى الأول دون لقب، الأمور يجب أن تسلك مجراها الصحيح، بل يجب أيضًا أن يكون هناك تقدم فى العلاقات الشخصية، وكان من العسير التحدث إليه؛ لأن التليفون ظل يرن، أنا أراهن على أن لديه ألف صفقة تُعقد فى وقت واحد، ما حاجته إلى كل تلك النقود ؟ ولكنى سأجىء إلى الموضوع، أود أن تعرف أن ماشا غير صالحة، لا أكثر ولا أقل، إذا كنت تود أن تتزوج امرأة غير صالحة فهذا شأنك الخاص، على أنى أريد أن أنبهك

قبل أن تقع فى شَرَكها، طبعًا سيبقى لقاؤنا سرًا، هذا ما كلمتك بشأنه فى التليفون، والتقط "ليون تورتشينر" سيجاره، ولكنه انطفأ، وفى أثناء تكلمه كان " هرمان جالسًا ورأسه محنى باتجاه سطح المنضدة وهو محتار ويود لو فتح ياقته، ويحس باتقاد خلف أذنيه، وينساب مجرى رفيع من العرق على سلسله ظهره، وعندما انهمك "ليون تورتشينر" فى سيجارة، سأله "هرمان" بصوت مختنق: ما الثمن ؟ وأحاط "ليون تورتشينر" أذنه بيده، وقال: أنا لا أسمعك، ارفع صوتك قليلاً.

أنت لا تعرف ما الثمن، أنت لست ساذجًا إلى هذ الحد، أنت على الأرجح تظن أنى لست أفضل منها، فأنا أفهم ذلك بوجه من الوجوه، بادئ ذى بدء أنت تحب ماشا، وهى امرأة يمكن أن يقع المرء فى حبها، وتدفع الرجال إلى الجنون، وقد دفعتنى أنا تقريبًا إلى الجنون، وبقدر ما هى بدائية، فإن لديها حدة ملاحظة "فرويد" و"آدلر" و"يونج" مجتمعين أو يزيد قليلاً وهى ممثلة بارعة أيضًا، فهى تضحك عندما تريد وتبكى عندما تريد، وقد قلت لها بصراحة إنها يمكن أن تكون "سارة برنار" ثانية إذا كفت عن إضاعة مواهبها فى الحماقة؛ ولهذا لم تكن مفاجأة لى كما ترى، أن تشتبك فى علاقة معها، ولن أحاول أن أنكر أنى مازلت أُحبها، بل إنى طالب سنة أولى فى علم النفس يتعلم أن المرء يمكن أن يحب ويكره فى وقت واحد، وربما تقول لنفسك لماذا أفشى لك هذه الأسرار وما الذى أضمره لك؟ لكى تفهم عليك أن تسمعنى بصبر.

إنى منصت.

لا تترك القهوة تبرد، وتناول قطعة من كعكة الجبن، هنا، لا تكن قلقًا هكذا، لا تنس أن العالم كله يحيا فى ثورة، كانت غرف غاز

هتلر سيئة إلى أبعد حد، ولكن حين يفقد الناس كل القيم، لهذا يغدو أسوأ من العذاب، وأنت ولا شك قد جئت من أسرة متدينة، أين درست الجمارا؟ مع أن والدىّ لم يكونا متعصبين، فقد كان يهوديين مؤمنين، فقد كان لوالدى إله واحد وزوجة واحدة، وكان لأمى إله واحد وزوج واحد، لقد أخبرتك "ماشا" على الأرجح أنى درست فى جامعة وارسو، وتخصصت فى علم الأحياء، وعملت مع الأستاذ فولكوفكى وساعدته فى التوصل إلى اكتشاف مهم، وقد توصلت فعلاً إلى الاكتشاف بنفسى، ونال هو الشرف، وإن كانوا فى الحقيقة لم يكافئوه عليه، ويحسب الناس أن اللصوص موجودون فقط فى شارع كروتشمالنا فى وارسو أو فى شارع المتشردين فى نيويورك، بيد أنهم موجودون أيضًا بين الأساتذة والفنانين والمشاهير فى كل المجالات، ولا يسرق اللصوص العاديون عمومًا بعضهم بعضًا، أما الكثرة من العلماء فيحيون - من غير مبالغة - على السرقة، هل تعرف أن "آينشتاين" سرق نظرية من رياضى كان يساعده، ولا يعرف أحد فى الحقيقة اسمه؟، كذلك سرق "فرويد"، وكذلك فعل "إسبينوزا"، وهذا لاعلاقة له بالموضوع، وإن كنت أنا ضحية هذا النوع من اللصوصية، عندما احتل النازيون وارسو كنت أعمل لهم؛ لأنه كان لدىَّ خطابات من أعظم علماء ألمانيا، وقد تغاضوا عن حقيقة أنى لم أرد أن أستغل هذه الامتيازات، وأكابد جهنم كلها، وقد قررت بعد ذلك إلى روسيا، حيث غيِّر مفكرونا اتجاهاتهم هناك، بل أبلغوا أيضًا عن بعضهم البعض، وهذا كل ما أحتاج البلاشفة إليه، فأرسلوهم إلى المعسكرات بعيدًا، وأنا نفسى كنت مؤيدًا للشيوعية فيما مضى، وفى الوقت الذى أسلمتنى فيه الأمور إلى أن أكون شيوعيًا، طفح بى الكيل من النظام كله

وانتقدتهم بصراحة تامة، ولك أن تتخيل كيف عاملونى، وفى حالتى عشت خلال الحرب والمعسكرات والجوع والقمل، وفى عام ١٩٤٥جُرحت فى لوبلين، حيث التقيت محبوبتك ماشا، كانت خليلة أو زوجة هارب من الجيش الأحمر، وقد أصبح مهربًا ومتعاملاً فى السوق السوداء فى بولندا، وكانت هى فيما يبدو تحصل من المهرب على ما يكفى للأكل، وأنا لا أدرى بالضبط ما حدث بينهما، فقد اتهمها بعدم الإخلاص، وغير ذلك مما يعلم الله، وأنا فى غنى عن القول بأنها امرأة جذابة، كانت جميلة منذ سنوات قليلة، كنت قد فقدت عائلتى كلها، وعندما سمعت هى أنى عالم، أصبحت مهتمة بى، وكان للمهرب ـ فيما أظن ـ امرأة أخرى أو ست أخريات، وعليك أن تتذكر أن كل خُطانا فى الحياة فيها غُصافة أكثر من الحنطة، وعثرت ماشا على أمها، وتوجهنا جميعًا إلى ألمانيا، ولم يكن لدينا أوراق، فاضطررنا إلى التسلل وكانت كل خطوة فى الطريق محفوفة بالهلاك، وإذا أردت أن تحيا، فعليك أن تخرق القانون؛ لأن القوانين تحكم عليك بالإعدام، وأنت نفسك ـ إلى ذلك ـ ضحية، وإنك لتدرك معنى ما أقول، وإن كان لكل منا حكاية مختلفة يرويها، ومن المستحيل أن تُكلم اللاجئين بتعقل؛ لأنه مهما كان لديك لتخبرهم به فسيقل لك أحدهم إن هذا قد حدث بطريقة مختلفة تمامًا فى أماكن كثيرة، ولكن لنعد إلى ماشا، فقد وصلنا ألمانيا، واعتقلونا بكل "احترام" فى معسكر، وعمومًا فإن كل قرينين قد عاشا معًا بدون فائدة مراسم الزواج، ومن ذا الذى يحتاج إلى هذه المراسم فى وقت كهذا؟ ولكن أم ماشا أصرت على أن نتزوج طبقًا لأحكام شريعة موسى وإسرائيل، ومن المحتمل أن المهرب طلقها، أو أنها لم تكن متزوجة ابتداءً ولم يهمنى الأمر، فقد كنت أريد العودة إلى عملى

العلمى فور استطاعتى، ولم أكن متدينًا، وأرادت هى زفافًا، فوافقت عليه، وبدأ آخرون فى المعسكر يباشرون العمل فى الحال: التهريب، وأحضر الجيش الأمريكى كل صنوف البضائع إلى ألمانيا، فتاجروا فيها، وتاجر اليهود فى كل مكان، بل فى أوشفيتز أيضًا، ولو كان يوجد جحيم هنالك لتاجروا أيضًا، وأنا لا أقول هذا عن حقد، فماذا كان بوسعهم أن يفعلوا غير هذا؟ إذ كانت منظمات الإغاثة تزود بالكاد بما يكفى للبقاء حيًا، وكان الناس يريدون أن يأكلوا جيدًا، ويرتدوا الملابس الحسنة أيضًا بعد كل سنوات الموت جوعًا هذه، وماذا كنت أصنع وأنا لست تاجرًا بطبعى؟ لقد مكثت فى البيت، وعشت على ما تمنحه "المنظمة" لى من معونة، ولم يسمح لى الألمان أن أقترب من الجامعة أو المعمل، وكان يوجد من حولى بضعة متبطلين آخرين مثلى، فكنا نقرأ الكتب أو نلعب الشطرنج، ولم يُرضِ هذا ماشا، فقد تعودت على الرفاهية وهى تحيا مع مهربها، وعندما قابلتها أعجبت بى؛ لأنى عالم، على أن هذا لم يكفها طويلاً، فبدأت تعاملنى كحقير وتنفجر غاضبة فى وجهى، ويجب أن أقول لك إن أمها قديسة، فقد عانت كل جحيم وظلت ـ مع ذلك ـ نقية طاهرة، كنت أحب أم ماشا بإعزاز، فكم مرة يجد المرء إنسانًا مقدسًا؟، كذلك كأن كان والدها رجلاً رائعًا وشبيها بكاتب، عالمًا باللغة والدراسات العبرية، ولا أدرى من تشبه هى، فلم تكن تقاوم المسرات أينما كانت، وكان المهربون يقيمون الحفلات دائمًا بخاصة حفلات الرقص، وقد تعودوا فى روسيا على احتساء الفودكا، وكل ما تبعثه من زهو وفخر، وعندما قابلت ماشا فى لوبلين كان انطباعى عنها أنها مخلصة للمهرب، على أنه سرعان ما تبين لى أنها تمارس كل صنوف العلاقات الغرامية، لقد قُتِل اليهود

الضعفاء، أما الذين أُخلِى سبيلهم فهم ذوو البِنى الحديدية، غير أنه استبان فى النهاية أنهم أناس منسحقون أيضًا، فقد طفت على السطح عِللهم الآن، وستُعد أحياء اليهود الفقيرة (الجيتوات) مثالاً للكمال على مدى مائة سنة وستعطى انطباعًا أنها مأهولة بالقديسين فقط، ولن يكون ثمة أكذوبة أكبر، أولاً: كم عدد القديسين فى أى جيل ؟، ثانيًا: إن معظم اليهود الأنقياء قد هلكوا فى الواقع، مَن مِن هؤلاء من أفلح فى البقاء حيًا، وكان حافزهم الكبير على هذا البقاء هو العيش بأى ثمن، بل إنهم يديرون الملاهى الليلية فى أحياء اليهود الفقيرة، ولك أن تتخيل ما هى الملاهى الليلية ! ولكى تدخل عليك أن تخطو فوق أجساد الموتى، ورأيى أن الجنس البشرى يزداد سوءًا لا حسنًا، أعنى أنى أعتقد أن التطور يسير فى اتجاه عكسى، وأن آخر رجل على ظهر الأرض سيكون مجرمًا ومجنونًا معًا، أتصور أن ماشا أخبرتك بما هو أشد سوءًا عنى، الحقيقة أنها هى التى أنهت الزواج، وفى حين كانت هى تجرى هنا وهناك كنت أجلس كالأبله مع أمها فى المنزل، وكانت أمها تعانى من مرض فى العين؛ فكنت أقرأ لها الأسفار الخمسة والصحف اليدية الأمريكية بصوت مرتفع، ولكن متى كنت لأحيا هذه الحياة؟ أنا لست عجوزًا الآن، كنت فى تلك الأيام فى شرخ الشباب، وكنت قد بدأت ألتقى الناس وأتصل بالوسط العلمى، واعتاد أساتذة نسوة من أمريكا التردد عليه، وثمة عدد - إلى حد ما - من النسوة المتعلمات هنا أصبحن مهتمات بى، وقالت لى حماتى"شيفرابؤه" بصراحة إنه ما دامت ماشا تتركنى وحدى طول النهار ونصف الليل، فأنا لست مدينًا لها بشىء، إن "شيفرابؤه" تحبنى إلى هذا اليوم، قابلتها مرة فى الشارع فعانقتنى وقبلتنى،

وهى مازالت تدعونى "ابنها"، وعندما وصلتنى تأشيرة الدخول إلى أمريكا ازداد اهتمامها بى فجأة، فقد منحت التأشيرة كعالم لا كلاجئ، مُنِحتها أنا لا هى، وكان من المفروض أن تذهب هى إلى فلسطين، وتنافست جامعتان أمريكيتان شهيرتان علىّ، وقد أقصيت عن واحدة بعد ذلك، ثم أقصيت عن الأخرى بالدسائس والمكائد، ولن أدخل فى تفاصيل هذا الآن؛ لأنه لا يمت بصلة الموضوع المطروح الآن، لقد أرسيت نظريات وقمت باكتشافات لم تقدرها الشركات حق قدرها، وقال لى رئيس جامعة بصراحة: "ليس فى مقدورنا أن نتعرض لانهيار مفاجئ ثانٍ فى وول ستريت"، إن ما اكتشفته لا يعدو أن يكون مصادر جديدة للطاقة تقريبًا، طاقة ذرية؟ ليست ذرية بالضبط، سأطلق عليها بيولوجية، لو لم يتدخل "روكفلر"، لكانت القنبلة الذرية جاهزة قبل سنوات، لقد استأجر البليونيرات الأمريكان لصوصًا لسرقة الرجل الذى تراه أمامك، إذ ابتغوا جهازًا قضيت سنوات فى صنعه بيدىّ، لو كان هذا الجهاز قد دخل مرحلة التشغيل - وكان على قيد خطوة منها - لأفلست شركات النفط، ولكن بدونى فإن الآلة والمواد الكيماوية لا قيمة لهما للصوص، وحاولت الشركات أن ترشونى، وكان لدىَّ صعوبات فى الحصول على الجنسية، وأنا متأكد أنها وراء ذلك، أنت تبصق على وجه العم سام عشر مرات فى اليوم؛ فيبتسم لك ابتسامة عريضة ويتحملك، ولكن حاول أن تمس استثماراته فعندئذ ينقلب إلى نمر، أين كنت ؟ نعم، أمريكا، ما الذى سوف تصنعه "ماشا" فى فلسطين؟، لسوف تنزل فى معسكر للاجئين الذى لن يكون أفضل كثيرًا من المعسكر فى ألمانيا، إن أمها مريضة والجو سيقضى عليها، لست أريد أن أبرهن على أنى قديس، فور وصولنا هنا أقمت علاقة

مع امرأة أخرى، وقد طلبت منى أن أطلق "ماشا"، وهى أمريكية وأرملة مليونير، وقد هيأت لى الالتحاق بمعمل لكيلا أتكل على الجامعة، ولكنى لسبب ما لم أكن مستعداً للطلاق إذْ يجب أن ينضج كل شىء حتى السرطان، صحيح أنى فقدت الثقة فى "ماشا"، وصحيح أننا ما كدنا نصل إلى هنا حتى بدأت سيرتها الأولى من جديد، ولكن يبدو أنه من الممكن أن تحب بدون ثقة، وقد التقيت مصادفة زميل دراسة قديمًا، فقال لى إن زوجته تعيش مع رجال آخرين، وعندما سألته كيف يطيق ذلك أجابنى ببساطة : "يمكن للمرء أن يتغلب على الغيرة، يمكنه أن يتغلب على كل شىء إلا الموت" ما رأيك بفنجان قهوة آخر؟ نعم، يمكن أن يتغلب على أى شىء، وأنا لا أعرف على وجه الضبط كيف التقت بك؟ لا يهمنى ذلك، فما الفرق الذى يترتب على ذلك؟، أنا لا ألومك، فأنت لم تقسم لى البتة على الإخلاص والوفاء، فضلاً عن أننا فى هذا العالم نخطف ما نستطيع أن نخطفه، أنا أخطف منك وأنت تخطف منى، فقد كان ثمة شخص ما قبلك هنا فى أمريكا، وأنا أعرف ذلك بصورة مؤكدة؛ لأنى قابلته، ولم يبق الأمر طى الكتمان، وبعد أن التقتك بدأت تطلب منى الطلاق، على أنى لم أعد أشعر بأى التزام نحوها، إذْ خربت حياتى، وقد استطاعت أن تحصل على طلاق مدنى بسهولة؛ لأننا انفصلنا من مدة، ولكن لا يستطيع أحد أن يجبرنى على ان أطلقها طلاقًا يهوديًا، بل لا يستطيع ذلك أعظم الحاخامات، كانت غلطتها السبب فى أنى ما زلت أحس بالملل والفراغ، وبعد تحطم زواجنا حاولت أن أجمع خيوط مهنتى، بيد أنى كنت مجروحًا؛ فلم أستطع أن أركز فى عملى الخطير، وبدأت أكرهها، وإن لم يكن من طبعى أن أكره، وأنا أجلس معك هنا

كصديق، وأتمنى لك الخير فحسب، وحجتى بسيطة : إذا لم تكن أنت فسيكون غيرك، وإذا كنت مُذنبًا كما تحاول "ماشا" أن تظهرنى، أكانت أمها ترسل إلى بطاقة تهنئة بالعام الجديد فى رأس السنة العبرية مع رسالة شخصية قصيرة؟ أجىء إلى النقطة الأساسية فى الموضوع، منذ بضعة أسابيع، اتصلت "ماشا" تليفونيًا، وطلبت منى أن أقابلها، فسألتها : " ماذا حدث؟ ولكنها ترددت وتلعثمت فى الكلام إلى أن قلت لها فى النهاية أن تأتى إلى مطرحى، فأنت فى ابهى زينة، لقد سمعت عنك، وبدأت "ماشا" تقص على الحكاية كلها، وكأنها حدثت بالأمس فقط بكل تفاصيلها، وأنها وقعت فى حبك وأنها حامل، وأنها تريد الطفل، وتريد حاخامًا للقيام بمراسم الزفاف بسبب أمها، فسألتها : منذ متى كنت تهتمين بأمك؟ كنت فى حالة نفسية سيئة للغاية، وجلست هى وقد وضعت ساقًا على ساق كالممثلة، وقلت لها : لقد تصرفت كالعاهر حين كنت معى فادفعى الثمن الآن"، فاعترضت بالكاد، وقالت : "ما زلنا رجلاً وامرأة، أظن أنه مباح لنا هذا"، ولا أدرى إلى اليوم لماذا فعلت هذا، الغرور ربما، ثم التقيت الحاخام لامبرت، وأخبرنى عنك، وعن تعليمك وسنوات الاختباء فى العُلية، فأصبح كل شىء واضحًا، واضحًا على نحو مؤلم، وأدركت أنها قد أوقعتك فى شَرَكها مثلما أوقعتنى تمامًا، لماذا تنجذب هى إلى رجال الفكر؟ سؤال جيد، مع أنها ولا شك اختلطت بالأجلاف أيضًا، هذه هى الحكاية باختصار، لقد ترددت طويلاً قبل أن أقرر إخبارك بها، وقد توصلت إلى قرار نهائى أن يجب أن أحذرك، وأتمنى أن يكون الطفل على الأقل من صلبك، يبدو وكأنها تحبك حقيقة، ولكن مع هذه المخلوقة لا يمكن للمرء أن يعرف أبدًا.

فقال "هرمان" : لن أتزوجها.

قال "هرمان" هذه الكلمات دون أى ضجة إلى حد أن "ليون تورتشينر" أحاط أذنه بيده.

ماذا ؟ انظر، ثمة شيء أود أن أؤكده ألا تخبرها عن اجتماعنا، كان يجب عليَّ أن أتصل بك فى وقت أسرع من هذا، بيد أنى كما ترى رجل أخرق فى معالجة الأمور العملية، أنا أقوم بأشياء، فأوقع نفسى فى كل صنوف المتاعب، إذا عرفت أنى أخبرتك بما حدث، فإن حياتى ستكون فى خطر.

لن أخبرها.

أنت تعرف أنك لست مجبرًا على أن تتزوجها، إنها من الصنف الذى يلد ولدًا من الزنى لاغير، إذا كان يوجد شخص يستحق الشفقة، فهو أنت، وزوجتك: هل ماتت؟

أجل، ماتت.

وأولادك أيضًا.

أجل.

قال لى الحاخام إنك تسكن مع صديق، ولا تحوز تليفونيًا، على أنى أذكر أنى رأيت رقم تليفونك فى مفكرة "ماشا"، إن لديها عادة أن تحيط أرقام التليفون بدوائر ورسوم صغيرة لزهور حيوانات وقد رسمت حديقة كاملة تشتمل على أشجار وثعابين.

فسأله "هرمان":

كيف تصادف أنك فى بروكلين اليوم إذا كنت تسكن فى مانهاتن؟ فقال "ليون تورتشينر" وهو يكذب بوضوح:

لدىّ أصدقاء هنا.

فقال "هرمان":

يجب أن أنصرف الآن، أشكرك شكرًا عظيمًا جدًا.

فيم العجلة؟ لا تذهب الآن، إننى أفكر فى صالحك فقط، فى أوربا تعود الناس أن يحيوا حيوان سرية، ربما يكون ذلك مفهومًا هناك، أما هذا البلد فهو حر، وأنت لست مضطرًا إلى أن تختبئ من أحد، يمكنك هنا أن تكون شيوعيًا أو فوضويًا وكل ما تريد، توجد طوائف دينية معينة تمسك بالثعابين السامة بسبب بعض المقاطع فى سفر المزامير، ويتنقل آخرون وهم عُراة، وتحمل "ماشا" أيضًا هنا وهناك حزمة اسرار، والمشكلة أن الذين يحوزون أسرارًا يخونون أنفسهم، والإنسان خائن لنفسه، لقد أخبرتنى "ماشا" بأشياء لم تكن مضطرة إلى أن تخبرنى بها، ولم أقف البتة على خلافها.

ما الذى أخبرتك به؟

كل ما قالته لى ستقوله لك، إنها مسألة وقت فقط، فالناس يتباهون بكل شىء حتى الفَتْق، ولست محتاجًا أن أخبرك أنها لا تنام بالليل، فهى تدخن وتتكلم، واعتدت أن أتوسل إليها أن تتركنى أنام، ولكن الشيطان بداخلها لا يدعها تستريح، لو كانت تعيش فى العصور الوسطى لكانت ساحرة بالتأكيد وطيَّرت عصا مكنسة ليلة السبت لتضرب موعدًا مع الشيطان، بيد أن برونكس مكان يموت فيه الشيطان من الملل والضجر، كذلك فإن أمها ساحرة على طريقتها الخاصة، وإن كانت ساحرة طيبة، نصف زوجة حاخام ونصف عَرَّافة، إذ إن كل أنثى تقيم فى شركها الخاص تقوم بالنسج كالعنكبوت، وحين تجىء ذبابة تصطادها، وإذا لم تهرب امتصصن آخر قطرة من حياتك.

سأفلح فى الهرب، وداعًا.

يمكن أن نكون أصدقاء، ومع أن الحاخام رجل بدائى، فهو يحب الناس، وله علاقات متشعبة، ويمكن أن يكون مقيدًا لك، لقد غضب منى؛ لأنى لم أرَ الإلكترونات والتليفزيون فى أول أصحاح من سفر التكوين، وإن كان سيعثر على شخص ما يتولى ذلك، إنه أمريكى (يانكى) أساسًا وإن كنت أظن أنه وُلد فى بولندا، إذْ إن اسمه الحقيقى ليس "ميلتون" وإنما "ميليخ"، وهو يحرر شيكًا لكل شىء، حينما يصل إلى العالم الآخر، ويقدم حسابًا عن أعماله، فسيخرج دفتر شيكات، ولكن كما اعتاد جدى لأمى "ريتز" أن يقول:" لا جيوب للكفن" .

ـ ٣ ـ

رن التليفون، فلم يرد عليه "هرمان"، واحصى الرنات، وعاد إلى الجمارا، إذْ كان جالسًا إلى المائدة المغطاة بمفرش العيد، وهو يدرس ويترنم كما اعتاد أن يصنع فى منزل الدرس بتزيفكيف، المشنا: "وهذه هى الواجبات التى تؤديها الزوجة للزوج، أن تطحن وتخبز وتغسل وترعى طفلها وترتب الفراش وتغزل الصوف، فإذا أحضرت معها خادمة واحدة، فإنها لا تطحن أو تخبز أو تغسل، وإذا أحضرت معها خادمتين، فإنها لا تطبخ أو ترعى الطفل، أما إذا أحضرت ثلاثًا، فإنها لا ترتب الفراش أو تغزل الصوف، وإذا أحضرت أربعًا، فإنها تجلس فى البهو، ويقول الحاخام "إليعزر": وعليه أن يجبرها على غزل الصوف وإذا أحضرت ملء البيت خدمًا لأن التبطل يؤدى إلى الجنون " الجمارا: "أتطحن؟، إن الماء يفعل ذلك، المقصود أن تُعد الحبَّ للطحن، أو يكون المقصود الرَّحَا، إذْ إن

الوارد فى المشنا لا يتفق مع ما ورد عن الحاخام "شياح"؛ لأنه قال: " الزوجة من أجل الحسن والأطفال فَحسْب "، وزاد قائلاً: "من أراد أن تكون ابنته حسناء، فليطعمها الفراريج، وليسقها اللبن قبل أن تنضج ..."، ورن التليفون من جديد، ولكن "هرمان" لم يُحص الرنات هذه المرة، فقد قاطع "ماشا" وأقسم أن يتخلى عن كل مطامحه الدنيوية، وأن يقلع عن الفجور الذى أوغل فيه حين ضل عن سبيل الله وعن التوراة واليهودية، وقد سهر الليلة الماضية، وهو يحاول أن يحلل اليهودى المعاصر وطريقته الخاصة فى الحياة، فوصل إلى النتيجة نفسها ألا وهى أن اليهودى إذا انحرف خطوة واحدة عن الـ "شولحان عاروخ"، فسيجد نفسه روحيًا فى نطاق كل ماهو حقير ودنىء: الفاشية والبكشفية والقتل والزنى والسُكر، ما الذى يوقف "ماشا" عما هى فيه؟، ما الذى يغير "ليون تورتشينر" ؟، من ذا يسيطر على الأعضاء اليهود فى البوليس السرى للاتحاد السوفيتى (GPU) أو على زعماء الجماعات الاجرامية المنظمة أو على اللصوص أو المغامرين أو المخبرين؟ ومن ذا ينقذه هو، هرمان، من الوحل الذى يغوص فيه أكثر وأكثر؟ لا الفلسفة ولا الفلاسفة: بيركلى، دافيد هيوم، وإسبينوزا وليبنتز، وهيجل، وشوبنهور، ونيتشه أو هوسرل، فهم جميعًا يبشرون بنوع من الأخلاق، ولا يملكون القدرة على تقديم يد العون للصمود فى وجه الإغراء، ويمكن للمرء أن يكون إسبينوزيًا ونازيًا، ويمكن له أيضًا أن ينظم شعرًا فى ظاهرات هيجل وأن يكون ستالينيًا، وأن يعتنق الأفكار الفلسفية: الموناد، وروح العصر والإرادة العمياء، والثقافة الأوربية، وهو لا يزال يرتكب الفظائع، لقد درس موقفه بالليل، إنه يخدع "ماشا" وهى تخدعه، وكلاهما لديه الهدف ذاته: الحصول على أكبر قدر من

المتعة من الحياة ما أمكن فى السنوات القليلة المتبقية من العمر قبل أن تحل عليه الظلمة والنهاية الأخيرة والأبدية بدون إثابة أو عقاب أو إرادة، ووراء "النظرة العالمية"(*) يكمن خداع متقيح ومبدأ "القوة حجق"، ويمكن للمرء أن يهرب من هذا بالتوجه إلى الله، وما الإيمان أو الدين الذى يتخذه أساسًا للإصلاح؟ ليس الإيمان الذى يُنظم - باسم الله - محاكم تفتيش أو حملات صليبية أو حروبًا دموية، هناك مهرب وحيد أمامه: أن يعود للتوراة والجمارا والكتب اليهودية؛ وماذا عن ارتيابه؟ حتى لو ارتاب المرء فى وجود الأوكسجين، فإنه يظل يتنفس، وقد ينكر المرء الجاذبية، ولكنه يظل يسير على الأرض، وبما أنه يختنق بدون الإله والتوراة، فإن عليه أن يطيع الإله ويدرس التوراة. وطفق "هرمان" يهتز جيئة وذهابًا ويترنم: "وترعى طفلها"، ولهذا أقول إن المشنا لا تتفق مع مدرسة الحاخام شمَّاى، إذْ تقول الأخيرة:" تنزع الزوجة ثديها من فم الطفل إذا أقسمت ألا ترعى طفلها، أما مدرسة الحاخام هَليل فتقول: " ويجبرها الزوج وعليها أن ترعى الطفل. ودق جرس التليفون ثانية، وقَدِمت "يادفيجا" من المطبخ وهى تمسك مكواة فى يد وقِدر ماء فى اليد الأخرى، وقالت :

لماذا لا ترد على التليفون؟

أنا لن أرد على التليفون ثانية فى يوم عيد، وإذا أردت أن تصبحى يهودية، فلا تكوى الملابس فى شيمنى عَصيرِتْ.

أنت تكتب فى يوم السبت لا أنا.

(*) الفلسفة العالمية: فلسفة فردية أو عِرْقية فى تفسير التاريخ، أو تفسير الغاية من العالم ككل.

أنا لن أكتب فى يوم السبت بعد الآن، علينا أن نكون يهودًا إذا لم نكن نريد أن نصبح نازيين.

هل ستذهب معى اليوم إلى كيوفوى اليوم؟

لا تقولى كيوفوى بل هاكافوث، أجل، سأذهب معك، يجب أن تذهبى إلى الحمام الشعائرى أيضًا إذا أردت أن تصبحى يهودية.

متى سأصبح يهودية؟

سأكلم الحاخام، وسأعلمك كيفية أداء الصلاة؟

هل سيكون لنا طفل؟

إذا أراد الله فسيكون لنا طفل.

فاحمر وجه "يادفيجا"، وبدا الفرح طاغيًا عليها، وقالت:

وماذا أفعل بالمكواة؟

ضعيها فى مكانها إلى ما بعد أيام العيد.

ووقفت هنالك بعض الوقت أطول، ثم عادت إلى المطبخ، وأمسك "هرمان" بذقنه، إذ لم يكن قد حلقه، وأخذت لحيته فى النمو، وكان قد قرر أنه لم يعد باستطاعته العمل عند الحاخام؛ لأن العمل كان خداعًا وتضليلاً، وعليه أن يجد وظيفة معلم أو أى شىء آخر، وأن يطلق "تامارا"، وما فعلته مئات الأجيال من اليهود قبله سيفعله هو تتوب؟

"ماشا" لن تتوب أبدًا، إنها امرأة عصرية مائة بالمائة، بكل ما للمرأة العصرية من طموح وأضاليل، إن أصوب شىء يفعله أن يغادر نيويورك، ويستقر فى ولاية بعيدة، وإذا لم يصنع ذلك، فسيكون

دائمًا عُرضة لإغراء العودة إلى "ماشا"، بل إن خاطرة اسمها تثيره، إنه يسمع من رنين التليفون المتكرر ألمها المبرح، وخلاعتها، وتعلقها به، ولم يمنع كلامها الحريف من أن يقتحم ذهنه، وهو يقرأ شروح الحاخام "راشى" للتلمود، تعليقاتها المُكايدة، احتقارها لمن يرغبون فيها ويجرون وراءها كما تجرى الكلاب وراء كلبة، وبدون سؤال، فإن عندها تفسيرًا لسلوكها، وهى قادرة على أن تؤكد أن لحم الخنزير طعام شرعى، وتأتى بنظرية خلاّبة لإثبات صحتها، وانكب "هرمان" على الجمارا(*) يحدق إلى الحروف والكلمات، فهذه الكتابات وطنه، وعلى صفحاتها يسكن والداه وجدوده وأسلافه جميعًا، وهذه الكلمات لا يمكن ترجمتها على نحو وافٍ، وإنما يمكن تفسيرها فقط، بل إن عبارة فى سياق النص مثل: "وامرأة من أجل حسنها" لها معنى دينى عميق، فهى تستحضر إلى الذهن بيت الدرس، وقسم النساء فى الكنيس، وصلوات الاستغفار، والمراثى تأبينًا للشهداء، وتضحية المرء بحياته من أجل الاسم المقدس، وتستبعد مواد التجميل والعبث والاستهتار، هل يمكن شرح ذلك للغريب عن الدين؟ إن اليهودى يأخذ الكلمات من السوق والمعمل وغرفة النوم ويخلع عليها صفة القداسة، ولكلمتى اللص والسارق فى الجمارا نكهة أخرى وارتباطات مستقلة عن اللتين فى اللغة البولندية أو اللغة الانجليزية، إن المذنبين فى الجمارا يسرقون ويغشون فقط

(*) المشنا والجمارا (التلمود): تكررت شريعة موسى (عليه السلام) المعروفة فى الأسفار الخمسة فى (المشنا) مع توضيح وتفسير ما التبس منها ، فالمشنا معناها: التكرار أو الشريعة المكررة ، ثم أُستكمل التوضيح والشرح فى (الجمارا) أى الاستكمال أو الشروح، ومن الاثنين معاً - المشنا والجمارا - يتألف التلمود ، وتتبع عملية التوضيح والاستكمال على ضوء ما يعرف بـ "التوراة الشفوية" التى يقال أن موسى (عليه السلام) تلقاها فى سيناء ولم تكن قد دونت فى عهده ، ثم تناقلتها الأجيال شفاهة.

لكى يكون لليهود درسًا للتلقى؛ ولكى يعلق عليه الحاخام "راشى"، ولكى تسجل الـ" توسفْتا"(*) الشروح الفائقة العظيمة لتعليقات الأخير، ولكى يلتمس أيضًا المعلمون المثقفون أمثال السيد "صموئيل إيدلش" "والسيد مائير" من لوبليين والسيد "شلومو لوريا" - إجابات واضحة، وقد ورد أن عبدة الأوثان يعبدون آلهة؛ لكى يبين البحث التلمود مخاطر الوثنية.

ورن التليفون من جديد، وتصور "هرمان" أنه يسمع صوت "ماشا" من خلال الرنين، "السمع من جانبى على الأقل! "، أما طبقًا لقواعد العدالة، فإن السمع من حق كلا الجانبين، ولم يستطع "هرمان" أن يمنع نفسه من النهوض واقفًا ورفع السماعة رغم معرفته أنه قد حنث بقسمه من جديد، وقال:

أهلاً:

وكان ثمة صمت على الطرف الآخر، فتساءل:

مَنْ المتكلم؟

فلم يرد أحد.

أنت أيها الفاجرة!

فسمع "هرمان" تنهدًا، فتساءل:

أمازلت حية؟

(*) التوسْفتا: وهى عمل تشريعى ملحق بالمشنا، ومعناها التذييل أو الإضافة أو الزيادة ، ويرجعها البعض إلى القرن الخامس أو السادس الميلادى ، وهناك ملحقات للتلمود عمومًا شبيهة بالتوسفتا وهى سفرآيوت (أو الآباء) وملحق سوفريم (أو الكتبة) وملحق سمحوت (أو إيبل ربانى) وملحق ديرخ إيرص وملحق ديرخ إيرص زوطا وملحق فرق هشالوم.

أجل، أنا بقيد الحياة.

وكان ثمة صمت طويل، ثم قالت: ماذا حدث؟

ما حدث أنى اكتشفت أنك مخلوقة سافلة حقيرة.

وكان "هرمان"، لا يستطيع أن يلتقط نفسه، فردت هى:

أظنك قد فقدت عقلك!

إنى ألعن اليوم الذى التقيتك فيه أيتها الماجنة!

يا إلهى، ماذا صنعت أنا؟

تحصلين على الطلاق بالتعهر!

وخُيِّل إلى "هرمان" أن ليس صوته الذى يصيح، فهذه طريقة والده الذى تعود أن يُحقر بها من شأن يهودى غادر لا عهد له، إذْ يقول له: كافر، شيطان، مُرْتد، إنه الاحتجاج الصارخ القديم ضد أولئك الذين ينتهكون الوصايا العشر، وبدأت "ماشا" تكح، وبدا وكأنما أصابتها غُصة، فقالت:

ـ من أخبرك بهذا؟ ليون ؟

وكان "هرمان" قد وعد "ليون" تورتشينر" ألا يذكر اسمه، ولايستطيع فى الوقت نفسه أن يكذب الآن، فلم يرد، فقالت: إنه شيطان متوحش و....

ربما كان متوحشًا، ولكنه قال الحقيقة.

الحقيقة أنه طلب منى، غير أنى بصقت فى وجهه، لو كنت أكذب، فلا عشت حتى أصحو فى الصباح، ولا نلت راحة فى قبرى، جىء بنا وجهًا لوجه، لو جرؤ على تكرار هذه الكذبة القبيحة، وسأقتله وأقتل نفسى، أوه، يا أبانا فى السماء.

كانت "ماشا" تصرخ، ولم يكن صوتها أيضًا كذلك الذى يصدر منها، فقد كان شبيهًا بصوت امرأة يهودية من العصور الغابرة اتهمت زورًا باقتراف الشر، وخُيِّل إلى "هرمان" أنه يسمع صوتًا من أجيال مضت، وهى تقول: "إنه ليس يهوديًا، إنه نازى! " وانتحبت بصوت عالٍ اضطره إلى ابعاد السماعة عن أذنه، ووقف ينصت إلى بكائها الذى أخذ فى الارتفاع بدلاً من أن تقل شدته، واضطرم غضبه، فقال:

إن لك عشيقًا فى أمريكا.

فلأصب بالسرطان لو كان لى عشيق فى أمريكا، ليت الله يسمع كلامى ويعاقبنى، لو كان "ليون" اخترع هذه الأكذوبة فلتحل لعنة الله عليه، يا أبانا فى السماء انظر ما يصنعون بى! وإذا كان يقول الحقيقة، فليمت الله الطفل فى رحمى!

كفاك، أنت تقسمين كبائعة السمك.

لا أريد أن أعيش بعد الآن!

وأخذت "ماشا" تشهق بالبكاء.

■■■

الفصل السابع

ـ ١ ـ

تساقط الثلج طوال الليل جافًا وخشنًا، وفى الشارع، حيث يسكن "هرمان" يميز المرء بصعوبة الخطوط الخارجية للسيارات القليلة المدفونة تحت ما تساقط منه، وتخيل "هرمان" أن هذه هى الكيفية التى بدت بها عربات بومبيى وهى مغطاة بالرماد بعد ثوران بركان فيزوف، وقد تغير لون سماء الليل إلى البنفسجى، وكأن الأرض دخلت كوكبة نجوم مجهولة من خلال معجزة ما أو تحوَّل فى السماوات، وفكر "هرمان" فى طفولته: عيد الحانوكة، تقديم دجاجة سمينة احتفالاً بعيد الفصح المقبل، اللعب بالدريدل، التزحلق على القنوات المتجمدة، قراءة الجزء الأسبوعى من التوراة الذى يبدأ بـ "وقطن يعقوب أرض آبائه"، وقال "هرمان" لنفسه: "الماضى قائم!"، ومع تسليمه أن الوقت لا يعدو أن يكون طريقة تفكير كما يؤكد "إسبينوزا" أو هو شكل من أشكال الإدراك كما يرى "كانت"، فإن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن الموقد كان يتأجج بحطب الوقود

فى زمن الشتاء فى تزيفكيف، وأن والده ـ بُوركت ذكراه ـ كان يدرس الجمارا وشروحها، وأن أمه فى أثناء ذلك كانت تطبخ كاشا الشعير المبرغل والفاصوليا والبطاطس وعيش الغراب المجفف، وإنه ليستشعر مذاق هذه الطعوم فى فمه، ويسمع غمغمة والده وهو يقرأ، وأمه وهى تتحدث إلى "يادفيجا"، ورنين الجرس المعلق على المزلجة التى تحمل كتل الخشب التى أحضرها فلاح من الغابة .

كان "هرمان" يلبس رداءَه المنزلى وشبشبًا وهو جالس فى شقته، ومع أن الوقت كان شتاءً، فقد كانت النافذة مفتوحة قليلاً، وتُدخِل صوتًا يشبه صريرًا، أعداد لا حصر لها من صُرار الليل تحت الثلج، لذا كان الجو دافئًا أكثر مما ينبغى فى المنزل، فقد كان البواب، يزيد الحرارة طوال الليل كله، وكان المشعاع يَصفر لحنة على وتيرة واحدة، لحنه الحافل بشوق غامض يتعذر الإفصاح عنه، وتخيل "هرمان" صوت البخار فى الأنابيب تفجعًا : سيئ، سيئ، حزين، حزين، حزين، مريض، مريض، مريض، ولم يكن ثمة مصباح كهربى مُضاءً، على أن الغرفة كانت مملوءة بالوهج المنعكس على الجليد والذى يغمر السماء، وتصور "هرمان" أنه مُشابه لشفق القطب الشمالى الذى قرأ عنه فى الكتب، وحدق لحظة إلى خزانة الكتب وإلى مجلدات الجمارا التى تقف مهملة يعلوها الغبار من جديد، ولم تجرؤ " يادفيجا" على أن تمس هذه الكتب المقدسة، وعجز "هرمان" عن النوم، فقد تزوج "ماشا" على يد حاخام، وهى طبقًا لحساباته فى شهرها السادس، وإن لم يظهر عليها بالتأكيد، كذلك غابت عن "يادفيجا" دورتها الشهرية وفكر "هرمان" فى حكمة ييدية تقول إن عشرة أعداء لا يمكنهم أن يؤذوا إنسانًا قدر ما يؤذى هو نفسه، ومع أنه لم يصنع كل هذا بنفسه، فقد كان ثمة خصم مخبوء له، عدو

شيطانى استمر يبتدع عذابات جديدة له، عذابات يصعب فهمها، وذلك بدلاً من أن يقضى عليه تمامًا، وتنفس "هرمان" الهواء البارد والثلج المتساقط، ونظر إلى الخارج، ونازعته رغبة فى أن يصلى، ولكن لمن؟ وكيف يجرؤ على أن يخاطب القوى العلوية الآن ؟ وما الذى يجب عليه أن يصلى من أجله؟ وبعد قليل عاد إلى الفراش، واستلقى بجانب "يادفيجا" كانت ليلتهما الأخيرة معًا، فهو مسافر فى إحدى رحلاته فى الصباح، وهو ما يعنى أنه فى طريقه للنزول عند"ماشا"، ومنذ زفافهما حين وضع الخاتم فى سبابتها شغلت نفسها بإدخال تحسينات على الشقة، وإعادة زخرفة غرفته، ولم تعد مضطرة إلى المجىء إليه سرًا بسبب أمها، ومع أنها وعدته ألا تتشاجر معه بشأن " يادفيجا " ن فقد أخلفت وعدها، وشتمتها فى كل مناسبة، بل صرحت أيضًا أنها تود قتلها، وتكشف لها أن أملها كان كاذبًا، بأن الزواج سيتغلب على توبيخات أمها لها، وتشكت "شيفرابؤة" من أن فكرة "هرمان" عن الزواج تتسم بالسخرية والاستهزاء؛ ولذا حظرت عليه أن يدعوها حماته، وطلبت منه أن يقتصر الكلام فيما بينهما على ما هو جد ضرورى فقط، وصارت أكثر استغراقًا فى صلواتها وتَصفُّحِ الكتب وقراءة الصحف اليدية ومذكرات ضحايا "هتلر"، وقضت جانبًا كبيرًا من الوقت فى غرفة نومها المظلمة، وكان من الصعب معرفة ما إذا كانت تفكر أم أنها غافية. لقد كان حمل "يادفيجا" كارثة جديدة، وقد قبل حاخام الكنيس الذى ذهبت إليه فى عيد الغفران دولاراتها العشرة، وقادتها امرأة إلى الحمام العشائرى وصارت آنذاك معتنقة لليهودية، والتزمت بأحكام الطهارة والطعام الشرعى، وأخذت تسأل "هرمان" باستمرار؛ هل يُباح الاحتفاظ باللحم فى الثلاجة حين يُوجد بها

زجاجة لبن؟ وهل يصح أكل منتوجات الألبان بعد الفاكهة؟ وهل يُباح لها أن تكتب لأمها وهى لم تعد وفقًا للشريعة اليهودية أمها؟ وأربكتها جاراتها بنصائحهن المتعارضة القائمة غالبًا على خزعبلات الشتتل، وحاول يهودى مُسن، وهو بائع متجول مهاجر أن يعلمها الحروف الهجائية الييدية، ولم تعد "يادفيجا" تستمع إلى برامج الإذاعة البولندية، بل البرامج الناطقة بالييدية فقط، ويستمع المرء دومًا إلى البكاء والتنهد فى هذه المحطات بل إن الأغانى فيها ذات طابع نشيجى يستدر الدموع، وقد طالبت "يادفيجا" "هرمان" أن يخاطبها بالييدية مع أمها تفهم القليل منها، وكانت توبخه مرارًا على عدم تصرفه مثل اليهود الآخرين، إذْ لم يكن يذهب إلى الكنيس، ولم يكن لديه شال صلاة خاص به أو تمائم، فكان يطلب منها أن تهتم هى بشئونها الخاصة، أو يقول لها: "لست ملتزمة أن تستلقى على فراشى من المسامير فى جهنم"، أو يقول: "هلا صنعت لى معروفًا وتركتِ اليهود وشأنهم، فإن لدينا من العناء ما يكفينا بدونك"، وتسأله: هل لى أن ألبس الحلية المستديرة التى أعطتها لى ماريانا؟ فإن بها صليبًا؟

لك ذلك، لك ذلك، كفاك مضايقة لى.

ولم تعد "يادفيجا" تتجنب الاختلاط بجاراتها، وأخذن يزرنها، ويتقاسمن الأسرار معها، ويتبادلن القيل والقال، وعلمنها الديانة اليهودية مع القليل الذى يجب عليها عمله أيضًا، وأرينها كيف تساوم عند الشراء، وحذرنها من استغلال زوجها لها، ونبهنها إلى أن ربة المنزل الأمريكية يجب أن تكون لديها مكنسة كهربية وخلاط كهربى ومكواة بخار كهربية وغسالة أطباق إن أمكن، كذلك نبهنها إلى وجوب التأمين على الشقة ضد الحريق والسرقة، وإلى وجوب

أن يستصدر "هرمان" وثيقة تأمين على الحياة، وأن ترتدى ملابس أفضل، وألا تتجول فى أسمال فلاحة، وكان ثمة جدل بين الجارات بشأن نوع اليدية التى يجب أن يعلمنها لـ "يادفيجا"، وحاول النسوة القادمات من بولندا أن يعلمنها اليدية البولندية، أما النسوة اللاطفيات فقد حاولن أن يعلمنها بيدية ليتوانيا، وكن يلفتن نظرها بإستمرار إلى أن زوجها يقضى وقتًا أكثر مما ينبغى فى السفر، وإذا لم تكن يَقْظَى فقد يفر مع امرأة أخرى، وكانت وثيقة التأمين وغسالة الأطباق كلتاهما مظهرين من مظاهر الطقوس اليهودية.
ونام "هرمان"، واستيقظ، وأغفى وصحا من جديد، وكانت أحلامه معقدة كحياته، فقد ناقش مع "يادفيجا" إمكانية الإجهاض، ولكنها لم تسمعه، أليست أهلاً أن يكون لها طفل واحد على الأقل؟ أتموت ولا تُؤدَى لها صلاة الكاديش؟ (فقد تعلمت هذه الكلمة من جاراتها)، طيب، وماذا عنه هو؟ لماذا يبقى كالشجرة الذابلة؟، لسوف تكون زوجة صالحة، فهى مستعدة أن تذهب للعمل حتى الشهر التاسع، أو أن تغسل الملابس للجيران وتنظف أرضيات غرفهم إسهامًا منها فى نفقات المنزل وعرض جار ـ افتتح ابنه سوقًا فائقًا منذ قريب ـ عملاً على "هرمان" كى لا يضطر إلى السفر فى أنحاء البلاد لبيع الكتب، وكان من المفترض أن يكلم "تامارا" تليفونيًا فى الغرفة المفروشة التى انتقلت إليها، بيد أن الأيام مرت، ولم يبد ذلك، إذْ كان متأخرًا فى عمله الذى يقوم به لصالح الحاخام كالعادة، وفى كل يوم كان يخشى أن يتلقى إخطارًا من إدارة الإيراد الداخلى بفرض عقوبات شديدة عليه لعدم دفع الضرائب، وقد يكشف أى تحر عنه كل ورطاته، كذلك يجب عليه ألا يستمر فى سكنى هذه الشقة الآن، لأن "ليون تورتشينر" يحتفظ برقم تليفونه، وقادر على

زيارته دون سابق إعلام، ويرى "هرمان" أن هذا ممكن؛ لأن "تورتشينر" يخطط للعمل على إسقاطه. ووضع "هرمان" يده على ورك "يادفيجا"، وكان جسمها يُطلِق دفئًا حيوانيًا، أما جسمه هو فكان باردًا بالقياس إليه، يبدو أن "يادفيجا" أحست فى نومها أن "هرمان" راغب فيها، فاستجابت له مغمغمة دون أن تستيقظ تمامًا، وفكر هو: "لا يوجد ما هو أعظم من اليوم سلطانًا، كل هذا كذب وزيف"، وغفا من جديد، وحينما فتح عينيه كان الوقت فى وضح النهار، وكان الثلج مُبهرًا للنظر فى ضوء الشمس، وكانت "يادفيجا" فى المطبخ؛ إذ شم "هرمان" رائحة القهوة، وصَفَر "فوتيس" ورَجَّع صفيره ن فقد كان بالتأكيد يتودد إلى "ماريانا" وهى التى نادرًا ما تعنت، بل إنها تجمل نفسها طول اليوم وتنتف ما تحت جناحيها من أسفل، وللمرة المائة حَسَب "هرمان" نفقاته، فهو مدين بالإيجار هنا وفى برونكس، وعليه أن يدفع فواتير التليفون باسمى "يادفيجا براتشه" و"شيفرابؤه بلوخ" وإذا لم يدفع إيجار الشقة ومقابل استهلاك الغاز والكهرباء قُطِعا، وقد وضع الفواتير فى مكان ونسبة، واختفت أوراقه ووثائقه على نحو ما، بل ربما فقد نقوده أيضًا، وفكر: "لقد فات أوان عمل شىء ما"، وبعد قليل ذهب إلى الحمام ليحلق، ونظر فى المرآة إلى وجهة المكسو برغوة الصابون، وكان الصابون على خديه يشبه اللحية البيضاء، وكان بالوسع رؤية أنف شاحب وعينين لونهما فاتح، عينين مجهدتين رغم ما بهما من توق نابض بالشباب تحدقان إليه، ورن التليفون؛ فمضى إليه، ورفع السماعة، وسمع صوت امرأة كبيرة فى السن، وهى تتلعثم ولديها مشكلة فى الكلام وكان على وشك أن يضع السماعة لولا أن قالت:

شيفرابؤه.

شيفرابؤه؟ ماذا حدث؟

وأخذت تنتحب قائلة: ماشا ... مريضة ... وجال بذهن "هرمان" خاطر: انتحرت، خبريني ماذا جرى؟!

تعال بسرعة من فضلك!

ما الأمر؟

فكرت "شيفرابؤه": تعال من فضلك !

وأعادت وضع الساعة، وكان لدى "هرمان" دافع وأعادت وضع السماعة، وكان لدى "هرمان" دافع إلى معاودة الاتصال بـ "شيفرابؤه" لمعرفة المزيد من التفاصيل، بيد أنه أدرك أن من الصعب عليها أن تتكلم عبر التليفون، فضلاً عن أن سمعها ضعيف، فعاد إلى الحمام، وقد جفت رغوة الصابون على خديه، وتقطعت إلى أجزاء صغيرة؛ إذِ إن عليه أن يحلق ويستحم، ولا أهمية لما حدث، "يجب ألا تفوح منك رائحة كريهة مادمت بقيد الحياة"، وبدأ يضع على وجهه رغوة جديدة، ودخلت "يادفيجا" الحمام، وهى عادة تفتح الباب ببطء، وتستأذن فى الدخول، على أنها فى هذه المرة دخلت بدون إذن، وقالت:

من كالمك بالتليفون منذ لحظات؟ خليلتك؟

اتركينى وحدى.

- القهوة بردت.

لا أستطيع أن أفطر، يجب أن أذهب حالاً.

إلى أين؟، إلى خليلتك؟

أجل إلى خليلتى.

لقد حَبَّلتنى، وأنت تجرى وراء العاهرات، أنت لا تبيع الكتب، كذَّاب.

ودهش "هرمان"، إذْ لم تكلمه "يادفيجا" البته من قبل بهذا الأسلوب السَّام؛ فتملكه الغضب، وقال: عودى إلى المطبخ وإلا ألقيت بك إلى الخارج من هنا!

وهزت "يادفيجا" قبضتها فى وجهه، فدفعها إلى خارج الحمام، فسمعها وهى تشتمه بلهجتها الفلاحية": خليع، كوليرا ....، فأسرع إلى تحت الدش، ولكن الماء البارد تطاير فحسب، وارتدى ملابسه بغير إتقان وبسرعة قدر المستطاع، وغادرت "يادفيجا" الشقة، لتخبر الجارات ـ على الأرجح ـ بأنه قد ضربها، وتناول "هرمان" جرعة قهوة من الفنجان الموضوع على منضدة المطبخ، وأسرع بالخروج، ثم عاد فى لحظة، فقد نسى سترته وجُرموقه المطاطى، وحجب الثلج من الخارج الرؤية عنه، وحفر أحدهم ممرًا بين حائطين من الثلج، وسار فى شارع مرميد، حيث كان أصحاب الدكاكين يزيحون الثلج، ويستعملون المجارف فى تكويمه، وغمرته ريح باردة لا يستطيع أى قدر من الملابس أن يتوقاها، ولم يكن قد نام بما فيه الكفاية، وأحس أنه خفيف من الجوع، وصعد الدرج إلى المحطة المفتوحة لانتظار قطار، وهجعت جزيرة كُونى بما فيها اللونابارك وسباق الحواجز مهجورة فى ثلج الشتاء والصقيع، ووصل القطار إلى الرصيف، وخطا "هرمان" داخله، وباختصار، رأى المحيط من النافذة، والأمواج تتواثب وترغى وتزيد مع الغضبة الشتوية، وسار رجل ببطء على طول الشاطئ، على أنه كان من المستحيل تخيل ما

يصنعه هنالك فى البرد إلا إذا كان يحاول أن يُغرِق نفسه، وقد جلس "هرمان" على مقعد يعلو الأنابيب الساخنة، وأحس بهبة هواء دافئ من خلال المقعد الخيرزان، وكانت العربة نصف خالية، وتمدد سكير على الأرض، وكان يرتدى ملابس صيفية، ولا يضع قبعة على رأسه، ويزمجر بين حين وآخر، والتقط "هرمان" صحيفة ملطخة بالطين من الأرض، وقرأ خبرًا عن مجنون قتل زوجته وستة أطفال، وكان القطار أبطأ من المعتاد، وقال أحدهم إن القضبان مغطاة بالثلج، وزاد القطار من سرعته عندما دخل النفق، وأخيرًا توقف فى ميدان تايمز، حيث استبدله "هرمان" بقطار برونكس السريع، واستغرقت الرحلة ساعتين تقريبًا؛ قرأ "هرمان" خلالهما الصحيفة المتسخة: كُتاب الأعمدة والإعلانات، بل صفحة سباق الخيل فضلاً عن الوفيات .

ـ ٢ ـ

عندما دخل "هرمان" شقة "ماشا" رأى "شيفرابؤه" وشابًا قصيرًا بدينًا وهو الطبيب، وامرأة ذات بشرة داكنة وهى جارة على الأرجح، وكان رأسها ذا الشعر الجَعْد كبيرًا جدًا بالقياس إلى جسمها الضئيل، فقالت "شيفرابؤه":

ظننت أنك لن تأتى أبدًا.

انها مسافة طويلة بالقطار النفقيز

وكانت "شيفرابؤه" تضع منديلاً أسود على رأسها، ويبدو وجهها أصفر وأكثر تغضنًا من المعتاد.

فسألها "هرمان" وهو لا يدرى إن كان يسأل عن شخص حى أم عن شخص ميت:

أين هى؟

- إنها نائمة، لاتدخل.

وأشار الطبيب ـ وهو ذو وجه مستدير وعينين دامعتين وشعر جَعْد ـ ناحية "هرمان"، وسأل بلهجة ساخرة:

الزوج ؟

فقالت "شيفرابؤه" : نعم .

يا سيد بوردر، زوجتك ليست حاملاً، من أخبرك أنها حامل؟

هى قالت لى.

إن لديها نزيفًا، ولا يوجد طفل، هل فحصها طبيب؟

لا أدرى، بل لست متأكدًا أنها استوثقت من طبيب.

فقال الطبيب وهو يتكلم بالإنجليزية تارة وبالييدية تارة أخرى:

أين تظنون أيها الناس أنكم تعيشون؟ على القمر؟ إنكم مازلتم تعيشون فى مدينتكم الصغيرة (الشتتل) فى بولندا.

ثم أردف: فى هذا البلد تكون المرأة تحت رعاية مستمرة حين تكون حاملاً (وأشار بسبابته إلى صدغه) حملها بأكمله هنا!

وكانت "شيفرابؤه" قد سمعت تشخيصه من قبل، فضمت يديها معًا كأنها تسمعه لأول مرة، وقالت:

أنا غير فاهمة، غير فاهمة، فبطنها تكبر والطفل يرفسها.

كل هذا توتر أعصاب.

فانتحبت "شيفرابؤه" قائلة: توتر أعصاب إلى هذا الحد، احمنا وصننا من توتر الأعصاب هذا يا أبانا فى السماء، لقد بدأتْ فى

الصراخ وآلام المخاض، أوه يا لحياتى الشقية، فقالت الجارة: لقد سمعت عن هذه الحالة مرة يا سيدة بلوخ، كل شىء يحدث لنا نحن اللاجئين، لقد عانينا كثيرًا تحت حكم هتلر، نحن نصف مجانين، المرأة التى سمعت عنها كانت بطنها ضخمة تقريبًا، وقال الجميع إنها تحمل توءمين، وفى المستشفى اكتشفوا أنها غازات فقط.

وتساءلت "شيفرابؤه" وهى تضع يدها على أذنها كأنها صماء: غازات؟

وأردفت: لقد أخبرتُك أن الدورة الشهرية لم تأتها كل هذه الشهور، طيب إن الأرواح الشريرة تتلاعب بنا، لقد خرجنا من جهنم، ولكن جهنم تلاحقنا إلى أمريكا، وهتلر يجرى وراءنا فقال الطبيب: أنا منصرف الآن، عليها أن تنام إلى وقت متأخر الليلة، ربما إلى صباح الغد، وعندما تصحو أعطيها الدواء، ويمكن أن تعطيها بعض الطعام، ولكن لا خضر باللحم.

فقالت "شيفرابؤه" : ومن الذى يأكل الشولنت فى منتصف الأسبوع، بل نحن لا نأكله أيضًا فى يوم السبت، بالشولنت الذى عليك أن تطهوه على فرن الغاز لا طعم له.

إنى أمزح فقط.

هل ستأتى مرة أخرى يا دكتور؟

سأزورها فى صباح الغد، وأنا فى طريقى إلى المستشفى، ستصبحين جدة سنويًا من الآن، إنها سليمة تمامًا من الداخل.

فقالت "شيفرابؤه":

لن أحيا هذه المدة الطويلة، ويعلم الله وحده كم تكلفنى هذه الساعات القليلة من قوة وحياة، ظننت أنها فى شهرها السادس أو

السابع على أقصى حد، وفجأة بدأت تصرخ إلى حد أن كان لديها تقلصات وخروج دم منها، وهى معجزة من فوق أنى مازلت بقيد الحياة وأقف على قدمىّ.

فأشار الطبيب إلى جبهته، وقال: طيب الأمر كله هنا.

وخرج، على أنه توقف عند المدخل ليومئ برأسه للجارة التى تبعته، وصمتت "شيفرابؤه" وانتظرت مرتابة ظنًا منها أن المرأة قد تتنصت عند الباب، ثم قالت: أود كثيرًا أن يكون لى حفيد، على الأقل لكى اسميه على اسم أحد اليهود المقتولين، وأتمنى أن يكون صبيًا، وأن يكون اسمه "ماير"، ولكن لا شىء معنا يتحقق؛ لأن حظنا أسود، أوه، ليتنى لم أنقذ نفسى من هؤلاء النازيين! كان يجب أن أبقى هناك مع اليهود الموتى، ولا أهرب إلى أمريكا ولكن أردنا أن نحيى، ما فائدة الحياة لى؟ إنى أحسد الموتى، إنى أحسدهم طوال اليوم بل إنى لا أستطيع نَيْل موتى، وأتمنى أن تُدفَن عظامى فى الأرض المقدسة، مُقدر لى أدفن فى جبانة أمريكية.

فلم يجب "هرمان"، ومضت "شيفرابؤه" إلى المائدة ,والتقطت كتاب الصلاة الموضوع هناك، ثم أعادته، وقالت:

هل تود أن تأكل شيئًا؟

- كلا، شكرًا.

لماذا استغرقت وقتًا طويلاً هكذا؟ طيب، أظن أن علىّ أؤدى صلواتى.

ووضعت النظارة على وجهها، وجلست على كرسى، وبدأت تغمغم بشفتيها الشاحبتين، وفتح "هرمان" الباب المؤدى إلى غرفة النوم،

حيث كانت "ماشا" نائمة فى الفراش الذى تنام فيه "شيفرابؤه" عادة، وقد بدت شاحبة وساكنة، وحدق إليها وقتًا طويلاً، وتغلب على حبة لها، وخجل من نفسه أيضًا، ماذا أصنع؟ كيف أعوضها عن كل الألم الذى سببته لها، وأغلق الباب، وذهب إلى غرفته، ومن خلال النافذة المكسوة بالصقيع بعض الشىء رأى السجرة القائمة فى الفناء التى لم تكن مغطاة بالأوراق الخضراء منذ وقت طويل، وكانت محملة بالثلج والدَّلات الثلجية، وهنالك استقر غطاء كثيف أبيض مائل للزرقة على الحديد الخُردة وحُتاتة المعادن المتناثرة هنا وهناك فقد صنع الثلج مقبرة لنفاية الإنسان، واستلقى "هرمان" على الفراش، واستغرق فى النوم، وحينما فتح عينيه كان الوقت مساءً، وكانت "شيفرابؤه" واقفة بجانبه وهى محنية عليه تحاول إيقاظه، قائلة: هرمان، استيقظت ماشا اذهب لترها.

وأخذ ذلك منه لحظة ليعرف أين هو وليتذكر ما حدث، وكان ثمة مصباح وحيد فى غرفة النوم، حيث ترقد "ماشا" على الهيئة التى كانت عليها من قبل، على أن عينيها كانتا مفتوحتين، ونظرت إلى " هرمان " ولم تقل شيئًا، وسألها: كيف تشعرين ؟

لم تبق عندى مشاعر.

ـ ٣ ـ

أمطرت السماء ثلجًا من جديد، وأعدت "يادفيجا" خليطًا اعتادت أن تطبخه فى تزيفكيف، وهو خليط من البرغل الخشن والفاصوليا اللِّيدية عيش الغراب الجاف والبطاطس ـ مرشوشٌ بالفلفل الأحمر والمقدونس، وانبعثت من الراديو أغنية من أوبريت بيدية تلقتها "يادفيجا" على أنها ترنيمة، واستجاب ببغاءا البَركيت

للموسيقى على طريقتهما الخاصة، إذ أخذا يزعقان ويصفران ويشقشقان ويطيران فى أنحاء الغرفة، واضطرت "يادفيجا" إلى وضع أغطية على الأوعية لكيلا لايسقط ـ أعوذ بالله ـ الطائران فيها، وتغلب التعب على "هرمان" فى وسط الكتابة، فوضع القلم، وأسند رأسه إلى الخلف على الكرسى المريح، وحاول أن يغفو قليلاً.

وفى برونكس لم تكن "ماشا" قد عادت إلى العمل بعد، فقد كانت لا تزال ضعيفة، ووقعت فى حالة من عدم اللامبالاة، وعندما كلمها ردت عليه باختصار وفى لب الموضوع وبطريقة لا تدع مجالاً للحديث فى شىء آخر، وأخذت "شيفرابؤه" تصلى طوال اليوم وكأن "ماشا" مازالت مريضة على نحو خطير، وكان "هرمان" يدرك أنه بدون ما تكسبه من العمل، فلن يكون عندها نقود كافية للضروريات، وهو أيضًا بدون موارد مالية، وقد اقترحت عليه "ماشا" اسم مؤسسة إقراض يمكنه أن يقترض منها مائة دولار بسعر فائدة عالٍ، ولكن إلى متى يستمر هذا الاقتراض، كذلك يحتاج إلى توقيع ضامن للقرض معه، وجاءت "يادفيجا" من المطبخ وقالت: الخليط استوى يا هرمان.

وكذلك أنا ماليًا وجسديًا وروحيًا .

تكلم على نحو أفهمه.

أظن أنك تريدين منى أن أكلمك باليدية.

– تكلم بالطريقة التى كانت أمك تتكلم بها.

لا أستطيع أن أتكلم بالطريقة التى كانت أمى تتكلم بها، فقد كانت مؤمنة، أما أنا فلست حتى مُلحدًا.

لا أُعرف ما الذى تثرثر بشأنه، هلم لتأكل، لقد صنعت خلطة شعير تزيفكيف.

وكان "هرمان" على وشك أن ينهض واقفًا حين رن جرس الباب، فقال:

جاءت إحدى سيداتك على الأرجح لتلقى عليك درسًا.

فذهبت "يادفيجا" لتفتح الباب، وشطب "هرمان" على نصف الصفحة الأخيرة التى كتبها، وغمغم: "حسنًا أيها الحاخام لامبرت، سيكتفى العالم بعظة أقصر بعض الشئ"، وسمع فجأة صرخة مكتومة، وجرت "يادفيجا" عائدة إلى داخل الغرفة، وصفقت الباب بعنف، وبدا وجهها أبيض وعيناها زائغتين، ووقفت هنالك ترتعد، ويدها ممسكة بمقبض الباب، كأنما يحاول شخص ما الدخول عُنوة، ومرق تساؤل بذهن "هرمان" : مذبحة ؟، وسأل: من هناك؟، فقالت "يادفيجا": لا تذهب ! أوه يا ربى! "، وظهر لعاب على شفتيها، وهى تحاول اعتراض طريقه، وصار وجهها متغير المعالم، وألقى "هرمان" نظرة عجلى فى النافذة، ولم يكن سُلم النجاة بعيدًا عن هذه الغرفة، وتقدم خطوة نحو "يادفيجا" فأمسكت به من معصميه، وانفتح الباب فى تلك اللحظة، ورأى "هرمان" "تامارا" فى فراء رث وقيعة وحذاء باليين، ففهم الأمر على الفور، فصرخ فى "يادفيجا" كفى عن الأرتعاش أيتها الحمقاء!، إنها حية.

فقالت"يادفيجا"ورأسها يهتز مصحوبًا باختلاجات شديدة: يا يسوع، يا مريم.

ودفعت نفسها بكل قوة ناحية "هرمان"، وأوقعته على الأرض تقريبًا، فقالت "تامارا" : لا أظن أنها تذكرنى.

فصاح "هرمان": إنها بقيد الحياة، إنها حية، إنها لم تمت! وأخذ يصارع " يادفيجا" وحاول كلاهما أن يهدئا من روعهما، ويدفعاها بعيدًا، فتشبثت به وهى تولول ولولة أشبه بالعُواء، فصاح هو مرة أخرى من جديد: إنها حية إنها حية، هدئى من روعك، أيتها الفلاحة الغبية! ورسمت "يادفيجا" الصليب على صدرها قائلة: أوه، أيتها الأم المقدسة، أيا قلبى! وأدركت فى الحال أن المرأة اليهودية لا تصنع علامة الصليب، فضمت يديها معًا، وبرزت عيناها من محجريهما، والتوى فمها من الصيحات التى لم تنطقها، ورجعت "تامارا" خطوة إلى الوراء قائلة بالبولندية:

لم يخطر ببالى ألبتة أنها ستتعرف علىّ، لم تكن أمى لتعرفنى، هدئى من روعك ياعزيزتى، أنا لست ميتة، ولم أجئ إليك شبحًا يطاردك.

أوه، أيها الإله الصغير!

وضربت "يادفيجا" رأسها بكلتا يديها، فقال "هرمان" لـ "تامارا": لماذا فعلت هذا؟ ربما ماتت من الرعب؟

أنا آسفة، أنا آسفة، ظننت أنى تغيرتُ كثيرًا، وأنه لا تشابه، أردت أن أعرف كيف تعيش وأين تسكن.

كان يمكنك مكالمتى تليفونيًا على الأقل.

فصاحت "يادفيجا" وهى تضع يدها على بطنها:

أوه يا ربى، أوه يا إلهى، ما الذى سيحدث الآن وأنا حامل؟

وبدت "تامارا" مستغربة، وكأنها أيضًا على وشك أن تضحك، فخحدق إليها "هرمان" قائلاً: هل أنت مجنونة أم مخمورة؟

وفور أن قال هذه الكلمات صار واعيًا لرائحة الكحول، وقد أخبرته منذ أسبوع مضى أنهم قد حددوا لها موعدًا للذهاب إلى المستشفى لاستخراج الرصاصة من وركها، فقال:

هل تناولت مشروبًا كحوليًا قويًا ؟

فقالت "تامارا" وقد تغيرت نبرة صوتها:

حين لا ينال الإنسان الأشياء الناعمة فى الحياة ينال الأشياء الخشنة، أنت مستقر هنا على نحو مريح تمامًا، عندما كنت تعيش معى كان ثمة فوضى دائمًا، وكانت أوراقك وكتبك فى كل مكان، أما هنا فالمكان حسن الترتيب.

إنها تحافظ على نظافة المكان، أما أنت فكنت تجرين لإلقاء خطب فى حرب صهيون العمالى.

فتساءلت "تامارا" بالبولندية :

أين الصليب؟ ولماذا لا يوجد صليب معلق هنا؟ بما أنه لا يوجد ميزوزا هنا، فلا بد أن هناك صليبًا.

فقالت "يادفيجا" : توجد ميزوزا.

فقالت "تامارا": فليوجد صليب أيضًا، لا تظنا أنى جئت هنا لكى أعكر صفو نعيمكما، ولقد تعلمت فى روسيا كيف أشرب، وعندما يكون عندى ملء كأس أصبح غريبة، لقد أردت أن أرى بنفسى كيف تعيشان، ولا تنسيا أن لدينا شيئًا مشتركًا، فأنتما تذكراننى كلاكما حين كنت أحيا.

يا يسوع! يا مريم!

أنا لست ميتة، أنا لست ميتة، أنا حية ولست ميتة.

وأردفت "تامارا" وهى تشير إلى "هرمان":

الحقيقة أنى لا أطالبه بشىء، إنه لم يكن يعلم أنى كنت أكافح للبقاء حية فى مكان ما، وهو على الأرجح يحبك دومًا يا عزيزتى، لقد نام معك بالتأكيد قبل أن ينام معى.

فقالت "يادفيجا": كلا !، كلا! لقد كنت فتاة طاهرة، لقد جئت إليه عذراءَ! ماهذا ؟ مبروك، الرجال يحبون العذراوات، إذا كانوا يصرون على هذا المسلك، فلترقد كل امرأة عاهرة وتصحو عذراءَ، طيب، أرى أنى ضيفة غير مرحب بها، سأنصرف الآن.

سيدة تامارا اجلسى، لقد أفزعتنى، وهذا هو السبب أنى صرخت هكذا، سأحضر القهوة، يشهد الله أنى لو كنت أعلم أنك حية لابتعدت عنه.

أنا لا أكن لك حقدًا ياعزيزتى، إن عالمنا مملوء بالطمع.

وأردفت "تامارا" وهى تشير إلى "هرمان":

ولو أنك لم تخرجى رابحة كثيرًا من هذه الصفقة، وعلى أى حال فإن أى شىء، أفضل من البقاء بمفردك، إنها شقة بديعة أيضًا، لم يكن لدينا قط شقة كهذه.

سأحضر القهوة، هل تودين شيئًا تأكلينه يا سيدة تامارا؟

فلم تجب "تامارا" ومضت "يادفيجا" إلى المطبخ، وشبشبها المنزلى يطقطق على الأرض على نحو غليظ، وتركت الباب مفتوحًا، ولاحظ "هرمان" أن شعر "تامارا" غير مُرتب، وأن ثمة أكياسًا جلدية صغيرة مائلة للاصفرار تحت عينيها، فقال:

لم أكن أعرف أنك تشربين.

يوجد الكثير الذى لا تعرفه، أنت تظن أن أحدًا يمكن أن يمر بتجربة الجحيم ويخرج سالمًا، طيب، لا يستطيع أحد، فى روسيا يوجد علاج لكل مرض: الفودكا، أنت تشرب كفايتك، وتستلقى على القش أو على الأرض العارية، وتتوقف عن المُبالاة ، وليفعل الإله والشيطان ما يحلو لهما، ذهبت أمس لزيارة بعض أناس يملكون دكانًا لبيع المشروبات الكحولية، ليس هنا فى بروكلين، وإنما فى منطقة مجاورة، فأعطونى كيس تسوق مملوءًا بالويسكى.

حسبتك ذهبت إلى المستشفى.

من المفروض أن أذهب غدًا، على أنى غير متأكدة من رغبتى الآن. وأردفت "تامارا" وهى تضع يدها على وركها:

هذه الرصاصة هى تذكارى المفضل، فهى تذكرنى بأنه كان عندى فيما مضى منزل ووالدان وأطفال، فإذا استخرجوها منى؛ فلن يبقى لى شىء مطلقًا، إنها رصاصة ألمانية، على أنها أصبحت يهودية بعد أن استقرت فى جسم يهودى سنوات كثيرة، وقد تقرر يومًا ما أن تنفجر، بيد أنها فى غضون هذا مستقرة فى هدوء، ونحن على وفاق معًا، تعال المسها إذا أحببت؛ فأنت شريك فى هذه أيضًا، وقد تكون شريكًا أيضًا فى المسدس الذى قتل أطفالنا .....

تامارا، أتوسل إليك ....

وطفح وجهها بالرغبة فى الإغاظة، وأخرجت له لسانها وقلدته قائلة:

تامارا، أتوسل إليك.

ثم أردفت: لا تخف، فهى لن تطلب الطلاق منك، وإذا فعلت فإن فى وسعك أن تذهب إلى الأخرى، ما اسمها مرة أخرى؟ وإذا ألقت بك إلى الخارج، ففى وسعك أن تأتى إلىَّ، ها هى عزيزتى ومعها القهوة.

ودخلت "يادفيجا" وهى تحمل صينية عليها قدحان من القهوة والقشدة والسكر وطبق به فطائر منزلية، وكانت قد وضعت فبدت كالخادمة تمامًا كعهدها فى الماضى، فهذه هى الطريقة التى كانت تخدم بها "هرمان" و "تامارا" قبل الحرب حين قدما من وارسو للزيارة، وقد بدا وجهها الآن أحمر ونديًا، وهو الذى كان شاحبًا منذ قليل، وطفرت حبات العرق على جبينها، ونظرت إليها "تامارا" باستغراب وضحك معًا.

وقال "هرمان": اجلسى: هاتى فنجانًا لك.

سأشرب فنجانى فى المطبخ.

وأخذ شبشب "يادفيجا" يطقطق من جديدة وهى عائدة إلى المطبخ، وفى هذه المرة أغلقت الباب خلفها.

ـ ٤ ـ

قالت "تامارا"

يبدو أنى أتخبط كالثور فى دكان خزف، حين تسوء الأمور يصعب عمل شىء صحيح، حقيقى أنى تناولت شرابًا، على أنى أبعد ما أكون عن السُّكْر، ادعها من فضلك، يجب أن أوضح لها الأمر.

سأوضحه لها بنفسى.

كلا، ادعها، ربما ظنت أنى جئت لأنتزع منها زوجها.

ومضى "هرمان" إلى المطبخ، وأغلق الباب خلفه، وكانت "يادفيجا" واقفة لصق النافذة، وظهرها إلى الغرفة، وأفزعها وقع قدميه، فاستدارت بسرعة وكان شعرها منكوشًا، وعيناها مغرورقتين بالدموع، ووجهها أحمر ومنتفخًا، وبدت وكأن السن تقدمت بها، وقبل أن يقول "هرمان" شيئًا رفعت قبضتها نحو رأسها، وأخذت تنتحب قائلة:

أين سأذهب الآن؟

فرد عليها: يا عزيزتى، كل شىء سيكون كما كان تمامًا.

ومزقت حلقها صبحة كهسهسة الإوزة وهى تقول:

لماذ قلت لى إنها ميتة؟ أنت لا تبيع كتبًا، أنت تقيم معها!

يا عزيزتى، أقسم لك بالله أن الأمر ليس كذلك، فقد جاءت إلى أمريكا مؤخرًا، ولم تكن لدىّ فكرة عن أنها بقيد الحياة.

ماذا سأصنع أنا الآن؟ إنها زوجتك.

أنت زوجتى.

لقد جاءت هى أولاً، سأرحل أنا، سأعود إلى بولندا، ليتنى لم أحمل طفلك.

وشرعت "يادفيجا" تتمايل، فى حركة أشبه بما يصدر من الفلاحين المحدين على موتاهم وهم يندبون ويعولون : آى، آى، آى، وفتحت "تامارا" الباب، وقالت:

عزيزتى، لا تبكى هكذا، أنا لم أجئ لأنتزع زوجك منك، أردت فقط أن أرى كيف تعيشان.

ومالت "يادفيجا" إلى الأمام كما لو كانت ستسقط عند قدمى "تامارا" وهى تقول:

يا سيدة تامارا، أنت زوجته، وبهذه الصفة ستبقين، إذا كان الله قد قدر لك الحياة، فهذه عطية منه، وأنا سأبتعد، هذا بيتك، سأذهب أنا إلى الوطن، ولن تطردنى أمى.

كلا يا عزيزتى، أنت لست فى حاجة إلى ذلك، أنت تحملين طفلة وأنا ـ كما يقولون ـ شجرة غير مثمرة، والإله نفسه أخذ أطفالى.

فانهمرت دموع "يادفيجا"، ولطمت خديها بكلتا يديها، وأخذت تتمايل جيئة وذهابًا، وهى تنحنى كأنها تبحث عن مكان لتسقط فيه، وألقى "هرمان" نظرة على الباب خوفًا من أن يسمعها الجيران، فقالت "تامارا" بقوة وحزم:

عزيزتى، يجب أن تهدئى نفسك، أنا حية على أنى كالميتة تقريبًا، يقولون إن الموتى يعودون أحيانًا للزيارة، وأنا زائرة من هذا النوع، لقد جئت لأرى كيف الحال، ولكن لا تقلقى، فلن أجىء مرة أخرى.

فأبعدت "يادفيجا" يديها عن وجهها الذى تحول إلى لون اللحم النيئ، وقالت:

كلا، يا سيدة تامارا، ابقى هنا ! أنا فلاحة بسيطة وغير متعلمة، على أن لى قلبًا، إنه زوجك وبيتك، لقد عانيت بما فيه الكفاية.

إهدئى، أنا لا أريده، إذا أردتِ أن ترجعى إلى بولندا فلترجعى، ولكن ليس بسببى، أنا لن أعيش معه حتى لو رحلت.

فهدأت "يادفيجا" وهى تنظر جانبيًا بشك وارتياب شديدين إلى "تامارا" قائلة: إلى أين تذهبين؟ هذا بيتك وأهل بيتك، سأطبخ وأنظف، سأكون خادمة من جديد، هذه إرادة الله.

كلا، "يادفيجا"، إن لك قلبًا طيبًا، أنا لن أقبل هذه التضحية، إن الحلق المشقوق لا يلتئم من جديد بخياطته.

وتهيأت "تامارا" للانصراف، وعدلت قبعتها، وسوت بعض جدائل شعرها المفكوكة، وتقدم "هرمان" خطوة ناحيتها، وقال:

لا تذهبى، ما دامت يادفيجا تعلم، فإنه بالوسع أن نكون جميعًا أصدقاءً وسيكون عندى قدر أصغر من الأكاذيب أقولها.

وفى تلك اللحظة سمعوا جرس الباب، وكان رنينه طويلاً ومدويًا، وجفل الببغاوان وأخذا يحلقان هنا وهناك، الببغاوان اللذان جثما فوق سطح القفص، وهما ينصتان إلى الحديث المتبادل، وجرت "يادفيجا" من المطبخ إلى غرفة الجلوس، ونادى "هرمان": من هناك؟ وسمع حديثًا مكتومًا، ولم يستطع أن يميز أهو لرجل أم لامرأة، وفتح الباب، وكان يقف فى الممر رجل وامرأة ضئيلان وكانت المرأة ذات وجه مغضن شاحب وعينين تميلان للاصفرار وشعر بلون الجزر، وبدت الخطوط التى تعلو جبهتها ووجهها كأنما نُحتا من صلصال، ورغم ذلك لم تبد عجوزًا، بل لا تزيد على الأربعين من عمرها، وهى تلبس رداءً منزليًا وشبشبًا، وقد أحضرت معها بعض شغل الصوف، وجعلت تحبكه بالسنارات لدى انتظارها بالباب، ووقف بجوارها رجل ضئيل جدًا، وهو يضع على رأسه قبعة لباد بها ريشة، ويلبس سترة ذات مربعات، سترة خفيفة بالنظر إلى يوم شتوى بارد، كذلك يلبس قميصًا ورديًا وبنطلونًا مخططًا فضلاً عن حذاء بنى مائل للصفرة ورابطة عنق هى خليط من الأصفر والأحمر والأخضر، وبدا مثيرًا للضحك على نحو غريب كأنما فر توًا من مناخ حار، ولا يملك وقتًا لتغيير ملابسه، وكان رأسه طويلاً

وضيقًا وكان ذا أنف معقوف وخدين غائرين وذقن مدبب، وتنطوى عيناه السوداوان على تعبير فكه، وكأن الزيارة التى يقوم بها لا تعدو أن تكون دعابة أو مُزحة، وقالت المرأة بالييدية بنبرة بولندية:

أنت لا تعرفنى يا سيد برودر، ولكنى أعرفك، نحن نسكن فى الطابق السفلى بالمنزل، هل زوجتك هنا فى البيت؟

إنها فى غرفة الجلوس.

إنسانة غالية، كنت معها حين اعتنقت الديانة اليهودية، وأنا التى صحبتها إلى الحمام الشعائرى، وأخبرتها بما يجب أن تفعله، يجب أن تحب النسوة اللائى ولدن يهوديات مِلَّتهن على النحو الذى تفعله، هل هى مشغولة؟

نعم، قليلاً.

هذا صديقى السيد بشيليس، وهو لا يسكن هنا، له بيت فى سى جايت، وله ـ لا أصابته من حسود ـ منازل فى نيويورك وفيلادلفيا أيضًا، جاء لزيارتنا، فأخبرناه عنك، وأنك تبيع الكتب وتكتب، وهو يود أن يتحدث إليك بشأن عمل تجارى.

فقاطعها السيد "بشيليس" قائلاً: ليس فى شأن تجارى، لا شأن تجارى مطلقًا، فعملى ليس فى الكتب، وإنما فى العقارات، وأنا لا أقوم بهذا أيضًا، ومع كل كم يحتاج الإنسان من العمل؟ بل إن روكفلر لا يستطيع أن يأكل أكثر من ثلاث وجبات فى اليوم، إن ما أحبه بالضبط أن أقرؤ، سواء أكان الذى أقرؤه صحيفة أو مجلة أو كتابًا، وأيًا كان الذى أضع يدى عليه، إذا كان عندك دقائق قليلة، فإنى أود أن أدردش معك.

فتردد "هرمان" قائلاً: أنا آسف جدًا، لأنى فى الحقيقة مشغول جدًا فاستحثته المرأة قائلة: إنه لن يستغرق وقتًا طويلاً ـ عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، إن السيد بشيليس يأتى لزيارتى مرة كل ستة شهور، وأحيانًا لا يفعل ذلك فى الغالب، إنه رجل ـ لا أصابته عين حسود ـ غنى، وإذا أردت البحث عن شقة، فهو قادر على أن يصنع فيك معروفًا.

ما نوع المعروف؟ أنا لا أصنع أى معروف، أنا نفسى مضطر إلى دفع إيجار، هذه هى أمريكا، ولكن إذا احتجتَ إلى شقة، فإنى أوصى بك، ولن يتسبب ذلك فى أذى لك.

طيب، ادخلا، سامحانى على استقبالكما فى المطبخ، فزوجتى متوعكة.

ما أهمية هنا أو هناك ؟ إنه لم يأت للتكريم، لقد نال - لا أصابته عين حسود ـ كثيرًا من التكريم، فقد جعلوه منذ وقت قريب رئيسًا لأكبر بيت للمسنين فى نيويورك، إنهم يعرفون فى جميع أنحاء أمريكا من هو ناثان يشيليس، وقد بنى منذ وقت قريب معهدين دينيين فى القدس ـ معهدين لا معهدًا واحدًا ـ حيث سيتمكن مئات الأولاد من دراسة التوراة على نفقته.

من فضلك يا سيدة سكرير، أنا لا أحتاج إلى دعاية، إذا احتجت إلى دعاية، فسأستئجر واحدًا، وهو ليس مضطرًا إلى معرفة كل هذا، ما فعلته ليس من أجل المديح.

وكان السيد "بشيليس" يتكلم بسرعة، وكان يبصق الكلمات من فمه كحبات البسلة الجافة، وكان فمه غائرًا وبلا شفة سفلى تقريبًا، وابتسم عن دراية، وكان لديه تحرر رجل ثرى يزور رجلاً فقيرًا،

وكان الرجلان قد استمرا واقفين عند الباب، أما الآن فانتقلا إلى داخل المطبخ، وقبل أن تتاح الفرصة لـ"هرمان" أن يقدم لهما "تامارا" قالت هى : أفضل أن أنصرف الآن.

فقال السيد "بشيلبيس" : لا تهربى، لا حاجة بك إلى أن تنصرفى الآن بسببى، أنت امرأة جميلة، وأنا لست دبًا ولا أبتلع الناس.

فقال "هرمان" اجلسى، لا تذهبى ياتامارا.

وأضاف:

أرى أنه لا توجد كراسى كافية، ولكن سندخل الغرفة الأخرى حالاً، ثانية واحدة .

ودخل "هرمان": غرفة الجلوس، وقد كفت "يادفيجا" عن البكاء حينذاك، ووقفت هنالك تحدق إلى الباب بتوجس، وبما لدى الفلاحة من خشية الغرباء: من كان بالباب؟

السيدة سكرير أحضرت رجلاً معها.

ما الذى تريده؟ لا يمكننى أن أرى أحدًا الآن، أوه، سأجن .

وعاد "هرمان" إلى المطبخ بكرسى، وقد جلست السيدة "سكرير" آنذاك بجانب منضدة المطبخ، وجثم الببغاء "فوتيس" على كتف "تامارا" وهو يشد فردة قرطها، وسمع "هرمان" السيد "بشيليس" وهو يقول لـ "تامارا":

أسابيع قليلة فقط؟ على أنك لا تشبهين وافدة جديدة قليلة الخبرة البتة، فى عهدى كان بوسعك أن تميزى المهاجر أو المهاجرة عن بعد ميل، أنت تشبهين أمريكية قطعًا.

- ٥ -

قال "هرمان":

لا تشعر يادفيجا أنها بخير، ولا أظن أنها ستنضم إلينا، أنا آسف، المكان ليس مريحًا.

فقاطعته السيدة "سكرير":

مريحًا! لقد علمنا هتلر كيف نصرّف أمورنا بدون راحة.

فسأله "هرمان": أجئت من هناك أنت أيضًا.

أجل، من هناك.

من معسكرات الاعتقال؟

من روسيا.

فسألته "تامارا":

من أين فى روسيا؟

فى جامبول.

فى المعسكر؟

فى المعسكر أيضًا، كنت أسكن فى شارع نابروزنايا.

فصاحت "تامارا": يا إلهى كنت أسكن أنا أيضًا فى نابروزنايا مع زوجة حاخام وابنها من دزيكوف.

فقال السيد "بشيليس" وهو يضرب كفًا بكف، وكان ذا أصابع مدببة وأظافر مطلية حديثًا:

عجبًا! إنه لعالم صغير، عالم صغير، إن روسيا بلد شاسع ولكن ما إن يلتقى لاجئان حتى يتبين أنهما كانا معًا فى معسكر واحد أو على صلة به. وأردف مخاطبًا السيدة "سكرير":

مارأيك أن ننزل جميعًا إلى شقتك؟، سأرسل فى طلب كعك البَيْجَل والسلمون، بل بعض الكونياك أيضًا، وبما أن كلاً منكما من جامبول، فسيكون عندكما الكثير للتحدث فيه، هيًا انزل سا سـ.سيد بوردر، إنى أتذكر الناس، ولكنى أنسى الأسماء، مرة نسيت اسم زوجتى....

فقالت السيدة "سكرير" مع غمزة: هذا شىء ينساه كل الرجال.

فقال: "هرمان" لسوء الحظ، هذا غير ممكن.

لم لا ؟ أحضر زوجتك وانزلا، إن اعتناق غير يهودية الديانة اليهودية ليس مسألة هينة هذه الأيام، سمعت أنها خبأتك فى مخزن تبن سنوات، ما نوع الكتب التى تبيعها؟ أنا مهتم بالكتب القديمة، مرة اشتريت كتابًا عليه توقيع لنكولن، أنا أحب المزادات العلنية، لقد قيل لى إنك تقوم ببعض الكتابة أيضًا، ماذا تكتب؟

وهَمّ "هرمان" بالرد، بيد أن التليفون رن، ورفعت "تامارا" بصرها، إذْ شرع "فوتيس" فى الطيران هنا وهناك من جديد، وكان التليفون موضوعًا بالقرب من المطبخ، فى ردهة صغيرة تؤدى إلى غرفة النوم، وثار بـ "هرمان" الغضب على "ماشا" لماذا تتصل بى تليفونيًا؟ إنها تعلم أنه قادم إليها، يجب عليه ألا يرد؟ ولكنه رفع السماعة وقال: أهلاً! وخطر بباله أنه قد يكون"ليون تورتشينر"، فقد توقع مكالمة تليفونية منه منذ أن التقيا فى الكافيتيريا، وسمع "هرمان"

صوت رجل، بيد أنه لم يكن صوت " ليون تورتشينر، إذْ كان خفيضًا يسأل بالإنجليزية: هل المتحدث السيد بوردر؟ ـ نعم .

أنا الحاخام لامبرت.

وساد الهدوء، إذْ توقف الحديث.

نعم أنا الحاخام.

إذن، فعندك تليفون، وأنت لست فى برونكس، ولكن فى بروكلين، ساحة التنزه ـ ٢ فى مكان ما بجزيرة كُونى.

وغمغم "هرمان" وهو يعلم أن الكذب سيؤدى إلى تعقيدات جديدة فقط: انتقل صديقى. فتنحنح الحاخام، وقال: انتقل، وكان قد ركَّب تليفونًا ؟ مؤكد، مؤكد، أنا فى الحقيقة مغفل لعين، ولكن ليس إلى الحد الكبير الذى تظن. وعلا صوت الحاخام قليلاً، وهو يقول :

إن ملهاتك بأكملها زادت عن الحد تمامًا، أنا أعرف كل شىء، كل شىء يقينًا، فقد تزوجت أنت ولم تخبرنى كى أُهنأك، من يعرف؟، فربما كنتُ قد أعطيتك هدية زفاف بديعة، إذا كانت هذه هى الطريقة التى تريدها، فهذا حقك الخاص، أنا أكلمك الآن؛ لأنك وقعت فى أخطاء جسيمة من مقالك عن القبالة(*)، أخطاء لاتُبيض وجه أحد منا.

ما الأخطاء؟

– لا أستطيع إخبارك بها الآن، فقد كلمنى الحاخام موسكوفيتز تليفونيًا عن شىء يتعلق بالملكين زائد الفون وميتاترون، المقال أُعِد

(*) القبالة : علم التصوف اليهودى.

للطبع، عندما وقع بصره عليها نما علمها إلى الصحف، سيضطرون إلى حذف الصفحات، وإعادة ترتيب المجلة كلها، هذا ما صنعته بى.

أنا آسف جدًا، فى هذه الحالة أنا مستقيل، وأنت لست ملزمًا بسداد أجر العمل الذى قُمتُ به.

وما فائدة ذلك لى؟ إنى أعتمد عليك، لماذا لم تراجع ما كتبت؟، أنا استأجرتك لهذا السبب، أن تقوم بالبحث لكيلا لا أبدو غشيمًا فى أُعين الناس فأنت تعلم أنى مشغول و ....

أنا لا أعرف ماهى الأخطاء التى وقعتُ فيها، وإذا كانت هناك أخطاء، فلن أقوم بهذا العمل.

من أين لى الحصول على شخص آخر الآن؟ أنت تخفى أسرارك عنى، لماذا ؟ إذا كنت تحب امرأة، فهذا ليس ذنبًا، لقد عاملتكُ بوصفك صديقًا، وفتحت لك قلبى، فاخترعت لى حكاية ريفى من البلد الأم، وأنك ضحية لهتلر، لماذا لم أعرف أن لك زوجة؟، إن لى الحق أن أتمنى لك حظًا طيبًا على الأقل.

بالتأكيد، شكرًا لك كثيرًا.

لماذا تتكلم بصوت خفيض، هكذا؟ هل لديك التهاب فى الحلق أو ما شابه؟

كلاً، كلاً.

لقد أخبرتك منذ البداية أنى لا أعمل مع رجل لا يعطينى عنوانه ورقم تليفونه، أخبرنى أين تسكن، لأنه يجب أن أراك حالاً، إذا قمنا بتصحيح الأخطاء، فقد يؤخرون، طبع المقالات إلى الغد.

أنا لا أسكن هنا، بل فى برونكس.

وكان "هرمان" يتكلم همسًا تقريبًا.

مرة أخرى فى برونكس، أين فى برونكس؟ بصدق أنا لا أفهمك.

سأشرح لك كل شىء، أنا هنا مؤقتًا.

مؤقتًا ؟ ماذا دهاك ؟ أم أن لك زوجتين.

ربما.

- طيب، متى تكون هناك فى برونكس ؟

الليلة .

أعطنى العنوان بصورة نهائية! فلتكن هناك نهاية لهذا التخبط.

فأعطاه "هرمان" عنوان "ماشا" على مضض، وغطى فمه بيده لكيلا يسمعه أحد فى المطبخ.

متى ستكون هناك؟

فأخبره "هرمان" بالتوقيت.

هل هذا مؤكد أم أنك تراوغ من جديد ؟

-كلا، سأكون هناك.

طيب، سأكون هناك، لا تكن متوترًا هكذا، أنا لن أسرق زوجتك.

وعاد "هرمان" إلى المطبخ، فرأى "يادفيجا"، فقد خرجت من غرفة الجلوس، ومازال وجهها وعيونها حُمرًا، ووقفت وقبضتاها على وركيها، وهى تتفحصه، حيث وقف هو، فقد تَنَصَّتت على محادثته فيما يبدو، وسمع "هرمان" السيدة "سكرير" تسأل "تامارا".

- كيف أرسلوك إلى روسيا مع التشكيلات العسكرية؟

فأجابت "تامارا" :

كلا، تسللنا عبر الحدود.

فقالت السيدة "سكرير":

ركبنا عربات الماشية، سرنا ثلاثة أسابيع محشورين كما تُحشر الرنجة فى برميل، وإذا احتجنا إلى إخراج الفضلات من البدن - لا تؤاخذونى - فمن خلال شباك صغير، تصوروا رجالاً ونساءً معًا، كيف بقينا أحياءً، ذلك ما لم أقدر على فهمه البتة، وإن لم يبق البعض أحياءً وماتوا واقفين، كانوا يلقون أجسام الموتى من القطار ببساطة، وجئنا إلى غابة فى صقيع مريع، وكان علينا أولاً أن نقطع الأشجار التى سنشيد بها المأوى، وحفرنا الخنادق فى الأرض المتجمدة ، الخنادق التى سننام فيها.

فقالت "تامارا":

أعرفها تمام المعرفة فحسب.

فسألها السيد "بشيليس":

هل لك أقارب هنا؟

عم وعمة وهما يسكنان فى إست برودواى.

فعاد يسألها:

إست برودواى؟

وأشار إلى "هرمان" : وماذا يكون لك؟

أوه، نحن أصدقاء .

طيب، انزل إلى شقة السيدة سكرير، وسنصبح جميعًا أصدقاء، مع كل هذا الكلام عن الموت جوعًا أشعر بالجوع، سنأكل ونشرب

ونتحدث، هيا يا سـ.. يد برودر، من المفيد أن يبوح المرء بما فى قلبه فى يوم بارد كهذا.

فقال "هرمان":

أخشى أنه يجب علىّ أن أترككم الآن.

فأضافت "تامارا"

وأنا مضطرة إلى الانصراف أيضًا.

وتنبهت "يادفيجا" فجأة، فقالت:

إلى أين أنت ذاهبة يا سيدة تامارا، من فضلك ابقى هنا، سأعد العشاء.

كلا، يا عزيزتى، وقت آخر.

فقال السيد "بشيليس":

- طيب، يبدو أنكم لم تقبلوا دعوتى، هيا يا سيدة سكرير، لم نفلح هذه المرة، إذا كان عندك مجلدات قديمة، فلنا أن نقوم بعمل تجارى صغير فى وقت لآخر، فأنا كما ذكرتُ لك جامع كتب قليلا فيما عدا .....

فقالت السيدة "سكرير" لـ "يادفيجا":

سنتكلم فيما بعد، ربما لن يكون السيد بشيليس قليل الزيارات جدًا فى المستقبل، فإن ما فعله هذا الرجل من أجلى، الله وحده أعلم به، الآخرون قانعون بالتأوه على اليهود، أما هو فيرسل إليهم تأشيرات دخول، لقد كتبت إليه خطابًا غريبًا تمامًا؛ فقط لأن والده كان شريكًا لوالدى وكانا يتاجران معًا فى المحصول، فوصلتنى منه

إفادة خطية مصحوبة بالقسم بعد أربعة أسابيع، وذهبنا إلى القنصلية، فتبين أنه معروف لديهم، لدى الجميع.

طيب، يكفى، لا تمدحينى، وماذا تكون الإفادة الخطية ؟ قطعة ورق.

إنهم ينقذون آلاف البشر بهذه القطع من الورق.

فنهض السيد "تشيليس" واقفًا، وسأل "تامارا":

ما اسمك؟

فنظرت إليه وإلى "هرمان" وإلى "يادفيجا" متسائلة، وردت: "تامارا".

آنسة؟ متزوجة؟

كل ما تود.

تامارا ماذا؟ لك اسم أخير بالتأكيد.

تامارا برودر.

برودر أيضًا؟ هل أنتما أخ وأخت؟

فأجاب "هرمان" نيابة عن "تامارا": أولاد عم.

عجبًا، إنه عالم صغير، أزمنة غريبة، قرأتُ مرة فى الصحيفة عن لاجئ كان يتناول العشاء مع زوجته الجديدة، فانفتح الباب فجأة، ودخلت زوجته السابقة التى ظن أنها ماتت فى حى اليهود (الجيتو)، هذه هى "اللخبطة" التى أحدثها هتلر وستالين وباقى أفراد عصابتيهما.

فبزغت ابتسامة على وجه السيدة "سكرير"، وتلألأت عيناها بضحكة أضفت عليها شيئًا من الجاذبية، وصارت تجاعيد وجهها، بل العميق منها أيضًا مثل خطوط الوشم التى تُرَى أحيانًا على وجوه أفراد القبائل البدائية، وقالت: ما الغرض من هذه الحكاية يا سيد بشيليس؟

- أوه، لا شىء حقًا فى الحياة يمكن أن يحدث أى شىء، وخاصة فى هذه الأيام عندما انقلب كل شىء رأسًا على عقب.

فأرخى السيد "بشيليس" جفن عينه اليمنى وضم شفتيه كأنه على وشك أن يصفر، ووضع يده فى جيب صدريته، وناول "تامارا" بطاقتى زيارة قائلاً: أياً من كنت، فدعينا ألا نكون غرباء!

- ٦ -

وما إن انصرف الضيفان حتى انفجرت "يادفيجا" فى البكاء، والتوى وجهها من جديد فى لحظة، وقالت:

إلى أين أنت ذاهب الآن؟ لماذا تتركنى؟ يا سيدة تامارا، إنه لا يبيع كتبًا، إنها أكذوبة، إن له خليلة وهو يذهب إليها، الجميع يعرفون هذا، الجارات يسخرن منى، وأنا أنقذت حياته! كنت أخرج اللقمة من فمى وأحضرها له فى مخزن التبن، وأنقل غائطه.

فقال "هرمان":

من فضلك يادفيجا، كفاك!

هرمان، يجب أن أذهب! أردت أن أقول لك شيئًا واحدًا فقط يا عزيزتى إنه لم يكن يعلم أنى بقيد الحياة، لقد جئت إلى هنا من روسيا منذ وقت قصير فقط.

إنها تتصل به تليفونيًا كل يوم، محبوبته، إنه يظن أنى غير فاهمة، ولكنى فاهمة، إنه يقضى الأيام معها ويأتى إلى البيت منهوكًا ومفلسًا، وتأتى مالكة الشقة كل يوم لطلب الإيجار، وتهدد بإلقائنا خارجها فى قلب الشتاء، لو لم أكن حاملاً لعملت فى مصنع، هنا عليك أن تحجزى مستشفى ودكتورًا، لا أحد هنا يضع مولودًا فى المنزل، لن تذهبى يا سيدة تامارا. وجرت "يادفيجا" إلى الباب، وفردت ذراعيها تسده . وقالت "تامارا": عزيزتى، يجب أن أذهب.

إذا أردت أن تعودى إليه، فسأنزل الطفل، هنا يمكن إنزال الأطفال، بل إنهم يدفعون ....

كفاك كلامًا فارغًا يا عزيزتى، أنا لن أعود إليه، وأنت لست فى حاجة إلى إنزال الطفل، سأبحث لك عن طبيب ومستشفى.

أوه، يا سيدة تامارا.

وقال "هرمان"، وقد ارتدى معطفه:

عزيزتى، دعينى أخرج.

لن تذهب.

يا عزيزتى، الحاخام فى انتظارى، أنا أعمل لحسابه، إذا لم أقابله الآن؛ فسأبقى بدون كسرة خبز.

إنها أكذوبة، إن عاهرًا فى انتظارك وليس الحاخام.

فقالت "تامارا" وهى توجه نصف كلامها إلى نفسها والنصف الآخر إلى "يادفيجا" و "هرمان":

طيب، أنا أرى ما يحدث هنا، عليّ فى الحقيقة أن أنصرف الآن، إذا غيرت رأيى وقررت الذهاب إلى المستشفى؛ فيجب أن أغسل بعض الملابس وأستعد، دعينى أخرج يا عزيزتى.

فسألها "هرمان" :إذن، فأنت عازمة على الذهاب، إلى أى مستشفى ستذهبين؟ ما اسمها؟

ما الفرق؟ إذا عشت، فسأخرج، وإذا لم أعش فسيدفنوننى بطريقة أو بأخرى، أنت لست مُجبرًا أن تزورونى، إذا اكتشفوا أنك زوجى، فسيجعلونك تدفع النفقات، لقد قلت لهم إنه ليس لى أقارب، وهذا الوضع يجب الإبقاء عليه.

فمضت "تامارا" إلى "يادفيجا" وقبلتها، فوضعت هذه رأسها على على كتف "تامارا"، وبكت بصوت عالٍ وهى تقبلها على جبينها وخديها وتقبل كلتا يديها، ثم هبطت إلى أسفل حتى ركبتيها تقريبًا، وغمغمت بلهجتها الريفية، وقد استحال تمييز ما تقوله.

وفور انصراف "تامارا"، وقفت "يادفيجا" أمام الباب من جديد، وقالت: لن تتركنى اليوم .

سنرى حالاً.

وانتظر "هرمان" حتى لم يعد يسمع خطى "تامارا"، ثم قبض على معصمى "يادفيجا" وصارعها فى صمت، ثم دفعها، فسقطت على الأرض مُحدثة صوتًا مكتومًا، وفتح الباب، واندفع خارجًا، وأسرع يهبط الدرج غير المنتظم كل درجتين مرة واحدة، وسمع صوتًا يجمع بين البكاء والأنين، وتذكر شيئًا تعلمه فيما مضى: حين تخرق وصية من الوصايا العشر، فإنك تخرقها جميعًا، وقال لنفسه: "سأختتم حياتى قائلاً"، ولم يلحظ أن الغسق قد حل، وكان الدرج مظلمًا

حينذاك والأبواب، على أنه لم يلتفت حوله، وخرج من المنزل، وكانت "تامارا" واقفة عند الركام الذى كدسته الريح فى انتظاره فصاحت: أين جرموقك المطاطى؟ لا يمكن أن تذهب على هذا النحو.

يجب أن أذهب.

هل تحاول الانتحار؟ اذهب والبس جُرموقك إلا إذا كنت تريد أن تُصاب بالتهاب رئوى.

هذا ليس من شأنك، اذهبى إلى الشيطان، أنتم أجمعون!

طيب، إنه هرمان عينه الذى لم يتغير، انتظر هنا، سأصعد وأُحضر لك جُرموقك.

كلا، لا تذهبى أنت!

إذن، سيكون عندنا واحد ناقص العقل فى هذا العالم.

وشقت "تامارا" طريقها خلال أكداس الثلج التى بدت زرقاء وبلّورية، وأُضيئت مصابيح الشارع، وإن كانت حمرة الشفق لا تزال بادية، وحجبت السماء غيوم بلون الصدأ ضاربة إلى الحمرة والصفرة وتنذر بسقوط الثلج من جديد، وهبت ريح من الخليج، وفجأة انفتحت نافذة طابق علوى، وسقطت فردة جرموق ثم الأخرى، فقد ألقت "يادفيجا" جرموق "هرمان"، فرفع بصره إلى أعلى ناحية النافذة، على أن " يادفيجا " أغلقتها فى الحال، وجذبت الستائر، واستدارت "تامارا" إلى "هرمان" وضحكت، وغمزت بعينها، وهزت قبضتها فى وجهه، وأفلح هو فى لبس الجرموق، بيد أن حذاءه كان مملوءًا بالثلج، وانتظرت "تامارا" حتى يلحق بها، "إن أسوأ كلب يحصل على أفضل عظمة، فلماذا؟، أمسكت به من ذراعه، وشقا طريقهما معًا خلال الثلج باحتراس وبطء كالزوجين الكبيرين

فى السن، ومن أعالى البيوت تساقطت كتل من الثلج والجليد، وتغطى شارع مرميد بأكوام عالية من الثلج واستقرت حمامة ميتة على الثلج، وقد برز قدماها الحمراوان، وخاطبها "هرمان" فى باله: طيب، أيتها المخلوقة المقدسة لقد عشت حياتك من قبل، أنت محظوظة"، وأمسك الحزن بخناقة، "لماذا خلقتها إذا كانت هذه نهايتها؟ إلى متى تصمت أيها الإله السادى؟، وسار "هرمان" و"تامارا" إلى المحطة، حيث استقلا قطارًا، وكانت "تامارا" فى طريقها إلى الشارع الرابع عشر فقط، أما "هرمان" فكان فى طريقه إلى ميدان تيمز، وكانت كل المقاعد مشغولة عدا مقعد صغير فى الركن، فانحشر الاثنان فيه معًا، فقال "هرمان":

إذن، فقد قررت أن تُجرى العملية ؟

ما الذى سأخسره، لا أكثر من حياتى البائسة.

فأحنى "هرمان" رأسه، وبينما هما يقتربان من ميدان يونيون استأذنته "تامارا" فى مغادرة القطار، فنهض واقفًا وقبل كل منهما الآخر، وقالت هى:

فكر فىّ من حين لآخر.

سامحينى.

وأسرعت "تامارا" بالخروج من القطار، وجلس "هرمان" ثانية فى الركن الخافت الضوء، وخُيِّل إليه أنه يسمع صوت أبيه قائلاً: "طيب، أنا أسألك: ماذا حققت ؟ لقد جعلت نفسك يائسًا، كذلك جعلت كل واحدة أخرى بائسة، إننا نخجل من صنيعك هنا فى السماء "، ونزل "هرمان" فى ميدان التيمز، وعبره إلى القطار النفقى IRT وسار من المحطة إلى شارع "شيفرابؤه" وكانت سيارة

الحاخام الكاديلاك تملأ تقريبًا الشارع المغطى بالثلج، وكانت كل المصابيح فى المنزل مُضاءة، وبدت السيارة فى العتمة، وكأنها تشع، وخجل "هرمان" من أن يدخل هذا المنزل المضاء المتألق بوجهه الشاحب وأنفه الأحمر المتجمد وملابسه الرثة، وفى المدخل المظلم نفض عنه الثلج، ودعك خديه ليكسبهما لونًا، وأصلح رابطة عنقه، ومسح البلل عن جبهته بمنديل، وخطر ببال "هرمان" أن الحاخام لم يجد أخطاءً فى المقال البتة، وأن مكالمته ببساطة مبرر للتدخل فى شئونه الخاصة، وكان أول شىء لاحظه "هرمان" عند دخوله من الباب ـ باقة ـ ورد ضخمة موضوعة فى زهرية على التَّسريحة، وعلى المائدة المغطاة بمفرش استقرت زجاجة شمبانيا ضخمة بين القُرص والبرتقال، كذلك لاحظ "هرمان" أن الحاخام و"ماشا" يقرع كل منهما كأس الآخر، وهما على ما يبدو لم يسمعا "هرمان" فى أثناء دخوله وكانت "ماشا" آنذاك مخمورة، وتتكلم بصوت عالٍ وتضحك، وقد ارتدت فستان حفلة، وكان صوت الحاخام مدويًا، وكانت "شيفرابؤه" فى المطبخ تقلى فطائر البنكيكة، وسمع "هرمان" صوت الزيت الحار، وشم رائحة البطاطس المقلية، وكان الحاخام يرتدى بذلة فاتحة اللون، ويبدو طويل القامة وعريضًا على نحو غريب فى هذه الشقة المزدحمة ذات الأسقف المنخفضة. ونهض الحاخام واقفًا ووصل إلى "هرمان" بخطوه واحدة واسعة ممتدة، وصفق بيديه، وهو يصيح بصوت عالٍ: "حظ سعيد يا عريس"، ووضعت "ماشا" كأسها قائلة: "ها هو ذا أخيرًا هنا" وأشارت إلى "هرمان" واهتزت ضاحكة، ثم نهضت هى أيضًا واقفة، ومضت إليه قائلة:

لا تقف عند الباب، إنه بيتك، وأنا زوجتك، كل شىء هنا ملكك. وألقت نفسها بين ذراعيه وقبلته.

■■■

الفصل الثامن

ـ ١ ـ

تساقط الثلج اليوم الثانى، ولم يكن ثمة حرارة فى شقة "شيفرابؤه"، إذ تعطل الفرن ولم يكن يوجد أحد يصلحه، وانطرح البواب فى غرفته فى غيبوبة سكر حيث يقيم بالدور التحتانى، وتنقلت "شيفرابؤه" فى المنزل بحذاء عالٍ ثقيل وهى تلبس معطف فراء رثًا أحضرته من ألمانيا، ورأسها ملفوف بشالٍ صوفى، ووجهها شاحب بسبب البرد والغيظ، وتلبس نظارتها، وتذرع المكان جيئة وذهابًا وهى تتلو كتاب الصلاة، وتتناوب الابتهال إلى الله ولعن مُلاك المنازل النصابين الذين يسمحون للمستأجرين المساكين أن يتجمدوا من البرد فى الشتاء، وتلت مقطعًا بصوت مرتفع وثالث: كأنه لم يكن عندنا ما يكفى من العناء قبل قدومنا إلى هنا، والآن يمكن أن نضيف أمريكا إلى القائمة، فهى لا تفضل كثيرًا معسكرات الاعتقال، وكل ما نحتاجه أن يدخل نازى ويشبعنا ضربًا وركلاً".

وكانت "ماشا" قد تغيبت فى هذا اليوم استعدادًا للذهاب إلى حفلة فى منزل الحاخام " لامبرت"، فلامت أمها بشدة قائلة:

أماه، يجب أن تخجلى من نفسك! لو كان عندك فى شتوتهوف ما عندك الآن هنا لطار عقلك من الفرح.

ما مدى قوة الإنسان؟ كان لدينا هناك ـ على الأقل ـ الأمل الذى يقوِّينا، لا يوجد جزء من بدنى لم يتثلج، لعلك تشترين مدفأة من الفخار، فقد تجمد دمى.

أين بوسعك أن تجدى مدفأة من الفخار فى أمريكا؟ سننتقل من هنا، انتظرى فقط إلى أن يأتى الربيع.

لن أبقى إلى الربيع.

– أيتها الساحرة العجوز، لسوف تعمرين أكثر منا.

كان صوت "ماشا" الزاعق مصحوبًا بنفاد الصبر، إذْ إن الحفلة التى دعاها إليها الحاخام هى و"هرمان" أثارت لديها اهتياجًا شديدًا، ورفضت أول الأمر أن تذهب، فقد رجحت أن "ليون تورتشينر" وراء الدعوة، وأنه يريد تدبير مكيدة ما لها، وخامرها شعور أن زيارة الحاخام لمنزلها وإسكارها بالشمبانيا كلها جزء من مخطط "ليون تورتشينر" للتفريق بينها وبين "هرمان"، وبقيتْ "ماشا" تنتقص من قدر الحاخام، وتصفه بالجبن والتبجح والنفاق، وعندما تنتهى منه تقدح فى "ليون تورتشينر" بوصفه أنه مجنون ودجال ومِحراك شر، ولم تكن "ماشا" قادرة على النوم حتى بمساعدة الحبوب المنومة، وعندما تنام أخيرًا توقظها الكوابيس، ويظهر لها والدها فى أكفانه، وهو يصيح فى أذنها بإصحاحات من التوراة، وكانت ترى حيوانات خيالية ذات قرون مُلولَبة وحُطم مُدببة،

فضلاً عن أجرية وحلمات وأجسام مغطاة بقروح، حيوانات تنبح وتعوى وتزأر، وكانت تحيض كل أسبوعين على نحو مؤلم كتل دم متجلطة، فحثتها "شيفرابؤه" على الذهاب إلى طبيب، ولكن "ماشا" قالت إنها لا تصدق الأطباء، وأقسمت أنهم يسممون مرضاهم، وفجأة غيرّت رأيها، وقررت أن تذهب إلى الحفلة، فلماذا تخاف ليون تورتشينر؟ لقد حصلت منه على طلاق حاخامى ومدنى معًا، وستدير له ظهرها إذا حيّاها، وببساطة ستبصق فى وجهه إذا حاول أن يقوم بأي ألاعيب معها، ولاحظ "هرمان" مرة أخرى كيف تذهب "ماشا" من النقيض إلى النقيض، وبدأت تستعد للحفلة بحماس متزايد، وفتحت الخزانات وأدراج التسريحة بعنف، وأخرجت الفساتين والبلوزات والأحذية، وكانت قد أحضرت معظمها من ألمانيا، وقررت أن تجدد شكل فستان، وفكت السُّراجة وخاطت، وهى تدخن السيجارة تلو السيجارة، وأخرجت أكوامًا من الجوارب والثياب الداخلية، وراحت تثرثر طول الوقت وتروى حكايات عن كيفية ملاحقة الرجال لها قبل الحرب، وفى أثنائها وبعدها وفى المعسكرات وفى مكاتب المؤسسة، وتصر على أن "شيفرابؤه" يجب أن تتأكد مما روته، وتركت الحياكة لحظة لتنقب عن الرسائل القديمة والصور الضوئية كدليل على صحة ذلك، وفطن "هرمان" إلى أن ما تتوق إليه بشدة أن تكون الفائزة فى الحفلة، وأن تبز النسوة الأخريات بأناقتها وفتنتها، ورغم معارضة "ماشا" المبدئية، فقد كان يعلم منذ البداية أنها ستقرر فى النهاية الذهاب، وأن كل شىء ينقلب معها إلى دراما.

وبدأ المِشعاع يهس على نحو غير متوقع؛ فقد أُصلِح الفرن، وصارت الشقة مُشْبَعة بالبخار، واتهمت "شيفرابؤه" البواب السكير

أنه يحاول إشعال النار فى المنزل، وأنهم سيضطرون إلى ترك الشقة والجرى فى الصقيع، إذ إنبعث دخان وروائح فحم، وملأت "ماشا" الطست بماء ساخن، وقامت بكل الأشياء فى وقت واحد: جهزت الحمام ورددت أغانى بالعبرية واليدية والبولندية والروسية والألمانية، وحولت فستانًا قديمًا إلى فستان جديد بسرعة مذهلة، ووجدت حذاءً ذا كعب عالٍ وشالاً يتلاءمان مع الفستان أهداهما إليها شخص ما فى ألمانيا، وتوقف سقوط الثلج عند حلول المساء، على أن الجو كان باردًا جدًا، وقد تكون الشوارع فى شرق برونكس كشوارع موسكو وكوريبيشيف فى الشتاء، ومع أن "شيفرابؤه" استنكرت فكرة الحفلة، وغمغمت أن ليس من حق اليهود الاحتفال بعد المَحْرَقة، فقد تفحصت مظهر "ماشا"، واقترحت تحسينات عليه، وقد نسيت "ماشا" فى غمرة انشغالها أن تأكل، وأعدت أمها لها ولـ"هرمان" بعض الأرز واللبن، وكلمت زوجة الحاخام "ماشا" بالتليفون وأخبرتها كيف تصل إلى شارع وست إند فى السبعينيات حيث تسكن هى وزوجها، وأصرت "شيفرابؤه" على أن ترتدى "ماشا" سترة أو سروالاً تحتيًا، فلم تستمع إليها، وطفقت تتناول جرعة كبيرة من زجاجة كونياك كل بضع دقائق، وهبط الليل حينما غادر "هرمان" و"ماشا" الشقة، وأوجعت ريح باردة كتفيه، ونزعت القبعة من على رأسه، فأمسك بها وهى متطايرة مع الريح، وهفهف فستان "ماشا" وامتلأ تمامًا بالهواء كالبالون وتبللت قدمها المجوربة، وصار شعرها المصفف بحرص والمحمى بالقبعة بعض الشىء فقط وكأنها كبرت فى السن فى ثانية، وأمسكت قبعتها بيد وحاشية فستانها باليد الأخرى، وصاحت بشىء ما لـ"هرمان"، بيد أن الريح حملت صوتها بعيدًا، وصار السير إلى السكة الحديد المرتفعة عبئًا أكبر،

وهو الذى كان يستغرق فى الأحوال العادية بضع دقائق، وعندما وصلا إلى المحطة فى النهاية كان القطار قد غادرها منذ قليل، وأخبرهم بائع التذاكر الذى كان يجلس فى كشك يتأجج فيه موقد حديدى - أن القطارات تتبأطأ على قضبان السكة الحديد المغطاة بالثلج، ولايوجد إعلام بموعد قدوم القطار وأخذت "ماشا" ترتعش وتتقافز لتدفئ قدميها، ووجهها شاحب على نحو مرض، ومرت خمس عشرة دقيقة، ولم يصل قطار، وتجمع عدد كبير من المسافرين: رجال يلبسون أحذية وجرامق وهم يحملون صناديق للطعام، ونسوة يلبسن سترات ثقيلة وعلى رءوسهن مناديل، وكل وجه يعبر بطريقته الخاصة عن تبلد الحس والجشع واضطراب الخاطر، وأثبتت خطأ كل رُؤى المدينة الفاضلة الجباهُ المنخفضة والنظرات المتعبة القلقة والأنوف المفرطحة ذات المناخير الكبيرة والذقون المربعة والصدور الممتلئة والأوراك العريضة، ومازال مرجل التطور يغلى، ويستطيع صرخة واحدة هنا أن تثير الشغب وتخل بالأمن، كذلك يستطيع قدر قليل من الدعاية أن يحرض هذا الجمع على القيام بمذبحة منظمة، وانطلقت صَفَّارة، وأقبل القطار مندفعًا بسرعة، وكانت عرباته نصف فارغة ونوافذها بيضاء بفعل الصقيع، وكان الجو باردًا فى العربة، والأرض مغطاة بالثلج شبه الذائب القذر والصحف المتسخة واللبان، وتساءل "هرمان": "أيوجد ما هو أقبح من هذا القطار؟، كل شىء هنا قابض للصدر كأنه مخصص لهذا الغرض"، وبدأ سكير فى إلقاء خطبة متهافتة بشأن هتلر واليهود، وأخرجت "ماشا" مرآة صغيرة من حقيبتها، وأخذت تكد كى ترى صورتها المنعكسة على سطح زجاجها المضبب، ورطبت أناملها، وحاولت أن تُملِّس على شعرها وتسويه، الشعر الذى

ستفسد الريح تصفيفه من جديد حين ينزلان من القطار، وطوال انطلاق القطار فوق سطح الأرض أطل "هرمان" من جزء يسير من النافذة أزال عنه الضباب الرقيق، فهذه صحف ترفرف بفعل الريح، وذا بقال يلقى الملح على رصيفى الشارع قُرب دكانه، وتلك سيارة تحاول أن تخرج من أخدود، ولكن عجلاتها تلف بسرعة فى موضع واحد على نحو غير مُجْدٍ، وتذكر "هرمان" فجأة قراره أن يصبح يهوديًا صالحًا وأن يعود إلى الشولحان عاروخ والجمارا، ترى كم عدد المرات التى حاول أن يتخذ فيها هذا القرار أو الحل؟ وكم عدد المرات التى حاول أن يبصق فيها على الأمور الدنيوية وخدع نفسها فى كل مرة منها؟ ومع ذلك فها هو ذا أيضًا فى طريقه إلى حفلة، لقد عُذب وقُتِل نصف شعبه، أما النصف الآخر فيقيم حفلات، وتملكته الشفقة على "ماشا"، فقد بدت أقل من الوزن الطبيعى وشاحبة وسقيمة، وكان الوقت متأخرًا حين خرجا من القطار إلى الشارع، وطفقت ريح باردة تهب من نهر هدسن المتجمد، وتشبثت "ماشا" بـ "هرمان" الذى اعتمد على كل ثقله فى مواجهة الريح لكيلا لا تطوح به إلى الخلف، وغطى الثلج أجفانه، وصاحت "ماشا" بشىء له وهى تشهق، وحاولت القبعة أن تطير من على رأسه وانهال ذيل معطفه وبنطلونه ضربًا على ساقيه بصوت مسموع، وكانت معجزة أن ميَّزا رقم منزل الحاخام، وجريا إلى المدخل لاهثين، حيث الدفء والسكون والصور ذات الأطر المذهبة المعلقة على الحيطان والبُسط التى تغطى الأرضية والثريات التى تبث الضوء المريح للنظر والكراسى الوثيرة والأرائك لانتظار الضيوف، ومضت "ماشا" إلى مرآة لتصلح الضرر الواقع على فستانها ومظهرها، وقالت: إذا خُلِّفَت حية هنا فلن أموت أبدًا.

وتفحصت "ماشا" المكان بنظرة أخيرة، ثم توجهت نحو المصعد، وأصلح "هرمان" رابطة عنقه، وبدت ياقة القميص رخِوة حول عنقه، وعكست مرآة كاملة الطول كل عيوب هيئته وملابسه، إذْ كان ظهره محنيًا ووجهه ساهمًا، وقد فقد شيئًا من وزنه؛ فبدا المعطف والبذلة فضفاضين عليه، وتردد عامل المصعد لحظة قبل أن يفتح باب المصعد، وعندما توقف عند طابق الحاخام راقب "هرمان" بارتياب وهو يدق الجرس ولم يأت أحد، وسمع "هرمان" ضوضاء، وصوت كلام، وصوت الحاخام المرتفع داخل الشقة، وبعد قليل فتحت خادمة زنجية تلبس مريلة وقلنسوة بيضاوين، ومن خلفها زوجة الحاخام، وهى طويلة القامة بهيئة التمثال وأطول قامة من زوجها، وذات شعر أشقر متموج وأنف معقوف، وترتدى فستانًا طويلاً ذا ألوان ذهبية، وهى ـ إلى ذلك ـ مثقلة بالمجوهرات، وقد بدا كل شىء فيها بارز العظام ومُحددًا وطويلاً وغير عظمي ومُحدَّدًا وطويلاً وغير يهودى ، ونظرت إلى "هرمان" و"ماشا"، وأشرقت عيناها، وفجأة ظهر الحاخام، وقال بصوت عالٍ عميق: ها هما! ومد كلتا يديه، واحدة لـ"هرمان" والأخرى "لماشا" وهو يقبلها فى الوقت نفسه، وصاح:

إنّها جميلة حقًا! لقد اعتقل أجمل امرأة فى أمريكا، انظرى إليها يا إيلين!

أعطيانى معطفيكما، الجو بارد، أليس كذلك؟ خفت ألا تقدرا على الحضور، لقد حدثنى زوجى عنكما كثيرًا، أنا سعيدة أنكما .....

ووضع الحاخام ذراعيه حول "ماشا" و "هرمان" وقادهما إلى غرفة الجلوس، وشق طريقه خلال الحضور، وهو يقدمهما إليهم،

ومن خلال الغشاوة الرقيقة رأى "هرمان" رجالاً حليقين نظيفين، وقد استقرت أعلى شعورهم الكثيفة قلانس صغيرة جدًا، كذلك رأى رجالاً بدون قلانس، فضلاً عن رجال بلحى صغيرة أو موفورة، وكان ثمة تنوع كبير فى ألوان شعور النساء، كما كان ثمة تنوع كبير أيضًا فى درجات ألوان الفساتين، وسمع "هرمان" الإنجليزية والعبرية والألمانية، بل الفرنسية أيضًا، وكان ثمة شذا عطور وروائح مشروبات كحولية وكبد مُقطع واقترب كبير الخدم من الضيفين الجديدين وسألهما عما يشربان، وقاد الحاخام "ماشا" إلى البار تاركًا "هرمان" خلفه، وهو يطوق خصرها كما لو كانا يرقصان، وود " هرمان" لو جلس فى مكان ما، بيد أنه لم يجد كرسيًا خاليًا، وقدمت له الخادمة صينية عليها سمك متنوع وقطع لحم بارد وبيض وبسكويت، وحاول أن يشُكَّ نصف بيضة بعود أسنان، ولكنه انزلق منه، وكان الناس يتكلمون بصوت مرتفع إلى حد أن ضَمّت الضوضاء أذنية، وعلا صوت امرأة بالضحك، ولم يكن "هرمان" قد ذهب إلى حفلة قط، فتوقع أن يجلس الضيوف ويُقدَّم إليهم العشاء، على أنه لم يكن ثمة غرفة تتسع لجلوس الضيوف أو عشاء، وتحدث أحدهم إليه بالإنجليزية، فلم يستطع أن يفهم ما قاله وسط كل هذا الضجيج المزعج، فى أى بقعة على الأرض ماشا، وخُيِّل إليه أن الجمع الغفير قد ابتلعها، وتوقف عند لوحة زيتية وأخذ يتفحصها دون سبب بعينه، وسار داخل غرفة بها العديد من الكراسى الوثيرة ذات المرفقين والأرائك، وكانت الحيطان مغطاة بالكتب من الأرض إلى السقف، وجلس بعض الرجال والنسوة متحلقين وهم يمسكون بالمشروبات فى أيديهم، وكان ثمة كرسى شاغر يقوم فى ركن، فغاص "هرمان" فيه، وكان الجمع يناقش أستاذًا جامعيًا تلقى منحة

قدرها خمسة آلاف دولار ليؤلف كتابًا، وهم يسخرون منه ومن كتابته، وسمع "هرمان" أسماء جامعات ومؤسسات وعلماء وباحثين ومنح ومطبوعات عن اليهوديات والاشتراكية والتاريخ وعلم النفس، وفكر "هرمان": "ما صنف هؤلاء النساء؟، هل هن ذوات اطلاع واسع؟"، وخجل من رثاثة ملبسه وتخوَّف أن يجروه إلى حديثهم، "أنا لا أنتمى إلى هنا، يجب أن أبقى تلموديًا"، وزوّى كرسيه رغم ابتعاد عن الجمع بمسافة، ولكى يقوم بعمل شىء ما تناول من خزانة الكتب نسخة من "محاورات أفلاطون"، وفتحها كيفما اتفق، وقرأ هذه الكلمات: "وقد يكون أبعد عن التصديق أن المهتمين بالفلسفة اهتمامًا صادقًا هم حقًا من يتأملون كيف يموتون وكيف يكونون موتى "، وقلّب بضع صفحات إلى الوراء إلى أن أتى إلى "الدفاع" ووقعت عيناه على هذه الكلمات: " لأنى أرى أنه ضد طبائع الأشياء أن يقتل امرؤ من هو أفضل منه"، أهذا حقيقى؟ وهل ضد طبائع الأشياء أن يقتل النازيون ملايين اليهود؟ وجاء خادم إلى الباب، وأعلن عن شىء لم يفقهه "هرمان "، فنهض الجميع، وتركوا الغرفة، وبقى "هرمان" وحده، وتخيل أن النازيين فى نيويورك، وأن شخصًا ما - ربما يكون الحاخام - قد سَدَّ عليه منافذ المكتبة، وأن الطعام يُقدَّم إليه من خلال فتحة فى الحائط، وظهر شخص عند مدخل الغرفة بدا مألوفًا لديه، وكان ضئيل الجسم يرتدى سترة عشاء وتعبر عيناه الضاحكتان عن تُعَّرف وتهكم، إذْ قال باليبدية: مَنْ أرى؟ حقيقى أن الدنيا كما يقولون صغيرة، فنهض "هرمان" واقفًا، فقال الآخر:

ألم تعرفنى؟

أنا مضطرب جدًا هنا، إذْ إن ....

بشليش! ناتاث بشليس، لقد جئت إلى شقتك منذ أسابيع قليلة...

أسابيع قليلة ...

- أجل، طبعًا.

لماذا تجلس هنا مع نفسك؟ هل جئت إلى هنا لتقرأ الكتب؟ لم أكن أعلم أنك تعرف الحاخام لامبرت، ولكن من ذا الذى لا يعرفه؟ لماذا لا تحصل على شىء تأكله؟ إنهم يقدمون الطعام فى الغرفة على طريقة الكافيتيريا بأن تأخذه بنفسك من البوفيه، أين زوجتك؟

إنها فى مكان ما، تاهت منى.

وفور أن نطق "هرمان" بهذه الكلمات أدرك أن "بشيلس" يتحدث عن"يادفيجا" لا "ماشا"، وأن الكارثة التى كان يخشاها على وشك أن تحل به، وتناوله "بشيلس" من ذراعه، وقال:

تعال دعنا نبحث عنهما معًا، لم تستطع زوجتى أن تأتى الليلة؛ لأن لديها أنفلونزا، ثمة نساء يمرضن كلما اضطررت إلى الذهاب إلى مكان ما.

وقاد "بشيلس" "هرمان" إلى غرفة الجلوس، وكان أفراد الحشد واقفين ومعهم الأطباق فى أيديهم، وهم يأكلون ويتآنسون بالحديث، وجلس بعضهم على عتبات النوافذ، وعلى المشعاع، وأينما وجدوا موضعًا، فجذب "بشيلس""هرمان" نحو غرفة الطعام، حيث تحلقت مجموعة كبيرة من الناس حول مائدة طويلة مغطاة بالطعام، ولمح "هرمان" "ماشا" وكانت مع رجل قصير القامة يمسك بها من ذراعها، وكان من الواضح أنه يقول لها شيئًا بعث السرور إلى نفسها؛ لأنها كانت تضحك بصوت عالٍ وتصفق بيديها، فلما رأت

"هـرمان" تملصت من قبضة الرجل، وشقت طريقها إلى جانبه هو، والرجل يتبعها وقد تورد وجهها، وتألقت عيناها فرحًا، وصاحت: "هـا هـو ذا زوجى الـذى تـاه منـى طويـلاً!"، وطـوقت عنق "هـرمـان" وقبلته، وكأنه عائد من رحلة طويلة توًا، وقد فاحت منها رائحة الكحول، وقالت وهى تشير إلى زوجها ثم إلى الرجل الذى كانت تتحدث إليه: هذا زوجى، هذا ياشا كونيك.

وكان "ياشا كوتيك" يرتدى بذلة سهرة أوربية ذات ثنيات صدر بالية، وخط عريض من الساتان يحلى كلا جانبى البنطلون، وكان شعره الأسود مفروقًا ويلتمع بدهن عطرى ـ وذا أنف معقوف وذقن به انفراجه، وكانت هيئته الشابة تتعارض على نحو غريب مع جبينه المغضن وفمه الذى يكشف طاقم أسنان كلما ابتسم، وكان ثمة شىء ما فى نظرته وابتسامة وسلوكه ينطوى على السخرية والمكر، ووقف وذراعه مثنية وكأنه فى انتظار أن يصحب "ماشا" بعيدًا من جديد، وزَمَّ شفتيه، وأوجد مزيدًا من التجاعيد فى وجهه، وتساءل وهو يرفع أحد حاجبيه على نحو تهريجى:

إذن، هذا زوجك.

هرمان، ياشاكوتيك الذى أخبرتك عنه، كنا معًا فى المعسكر، ولم أكن أعرف أنه فى نيويورك.

وقال "باشاكوتيك" لـ"هرمان":

أخبرنى شخص أنها ذهبت إلى فلسطين، وظننت أنها فى مكان ما قُرب حائط المبكى أو عند قبر راجيل، ونظرت من حولى فإذا هى واقفة تحتسى الويسكى فى غرفة جلوس الحاخام لامبرت، ها هى ذى أمريكا من أجلك ياكولومبس المجنون، ها! ومحاكيًا مسدسًا

بالإبهام والسبابة أدى حركة إطلاق نار، واتسم كل ما صدر منه بخفة بهلوانية، وندت عن وجهه حركة مستمرة، إذ يكشر ويقلد ساخرًا فى آن معًا، ويرفع إحدى عينيه فى دهشة مصطنعة وينزل الأخرى وكأنها تبكى، ويملأ منخريه بالهواء، وقد سمع الكثير عنه من "ماشا"، ويُقال إنه كان يُلقى النكات فى أثناء حفره لقبره، وكان يسلى النازيين لدرجة أنهم أخلوا سبيله، وأفاده تهريجه مع البلاشفة أيضًا، وكان قادرًا على التغلب على أخطار لا حصر لها بسلوكه الهزلى الغريب، وسخريته الهازئة بالموت، وكانت "ماشا" تتفاخر أمام " هرمان" بأن "ياشا" قد وقع فى حبها، ولكنها قاومته.

قال "كويتك" لـ "هرمان":

هذا يعنى أنك الزوج وأنها الزوجة، كيف اصطدتها؟ لقد بحثت أنا عنها خلال نصف العالم وتزوجتها أنت كذا، من أعطاك الحق أن تتزوجها؟ ولتسامحنى إنه استعمار مائة بالمائة....

فقالت "ماشا" :

مازلت مهرجًا، يُخيِّل إلىَّ سمعت أنك كنت فى الأرجنتين.

كنت فى الأرجنتين، ولم لا أكون هناك ؟ البركة فى الطائرة، فأنت تجلسين وتأتين على كأس شراب الشَّنَبص، فتكونين فى جنوب أمريكا قبل أن تأخذى فى الغطيط والحلم بكليوباترة، هنا يستحم الناس فى جزيرة كُونى فى شهر شباط، وهناك ترتعشين فى شقة بدون حرارة فى شهر شباط، ويا للمذاق الشهى لوجبة ألبان شباط والجو فارسى البرد خارج المنزل، وفى عيد الحانوكة تذوبين من الحر، ويذهب الجميع للتصييف على شاطئ مار دى لابلاتا، ولكن فور أن تغطسى فى نادى القمار وتخسرى البيزوات القليلة التى معك يعود الجو حارًا من جديد.

وأردف "ياشا كوتيك" سائلاً "ماشا" وهو يؤكد على سؤاله برفع كتفيه على نحو مبالغ فيه:

ما الذى جعلك تتزوجينه ؟ ماذا رأيت فيه ؟ ما الذى يملكه هو ولا أملكه أنا ؟ أود أن أعرف.

فردت "ماشا":

هو شخص جاد، أما أنت فمُزعج.

فقال "ياشا كوتيك" مخاطبًا "هرمان" ومشيرًا إلى "ماشا":

أو تدرى ماذا عندك هنا، إنها ليست امرأة فحسب، إنها جمرة مثيرة للفتن ولا أستطيع أن أقرر ما إذا كانت من السماء أم من الجحيم، إن خفة دمها أبقتنا جميعًا أحياء، كان بوسعها أن تقنع ستالين نفسه أن يقوم بزيارة للمعسكر.

وتحول "ياشا" إلى "ماشا" يسألها :

ماذا حدث لموشيه فيفر؟ ظننتك فررت معه...

معه؟ عم تثرثر؟ هل أنت سكران؟ أم أنك تريد الوقيعة بينى وبين زوجى؟ أنا لا أعرف شيئًا عن موشيه فيفر، ولا أريد أن أعرف، قد يظن شخص من طريقة كلامك إنى وهو عشيقان، إن لديه زوجة والكل يعرف ذلك، إذا كان كلامها حيًا فهما معًا بالتأكيد.

طيب، أنا لم أقل شيئًا، يجب ألا تغار يا سيد، ما اسمك؟ بوردر؟ ليكن بوردر، لم يكن أحد منا آدميًا خلال الحرب، لقد صنع النازيون صابونًا ومرقًا شرعيًا منا، وكنا سمادًا للثورة عند البلاشفة، فماذا تأمل من سماد؟ لو كان الأمر بيدى لمحوت هذه السنوات من التقويم.

فغمغمت "ماشا":

لقد سكر مثل لوط.

ـ٣ـ

كان "بشيلس" يقف على بعد خطوة إلى الوراء من الثلاثة من أول حديثهم إلى آخره، ورفع حاجبيه فى دهشة، وهو ينتظر بصبر لاعب الورق الذى معه ورقة رابحة مُدَّخَرة، وتجمدت ابتسامة على فمه الخالى من الشفتين، وقد نسى "هرمان" ـ وهو فى ذعره ـ أمره، فاستدار إليه آنذاك، وقال:

ماشا، هذا السيد بِشيلس.

فقالت "ماشا":

بشيلس؟ يُخيَّل إلىّ أنى قابلت واحدًا بهذا الاسم فيما مضى، من روسيا أو بولندا، لا أذكر الآن.

أنا جئت من أسرة بسيطة، ولنا على الأرجح جد لأمى اسمه بيش أوبيشل، قابلت السيد بوردر فى جزيرة كُونى، فى بروكلين، لست أدرى .... وألقى "بشيلس" الكلمات الأخيرة دون تبصر مصحوبة بضحكة متقطعة، ونظرت "ماشا" إلى "هرمان" متسائلة، وحك "باشا كوتيك" رأسه بظفر خِنصره، وقال:

جزيرة كُونى؟ مثلت هناك مرة أو حاولت أن، ماذا تُسمى؟ أوه، نعم، برايتون، وامتلأ المسرح بكامله بالعجائز، من أين لهم بهذا العدد الكبير من النسوة فى أمريكا، هُن لسن صُمًا فقط، بل نسين اليدية أيضًا، كيف لك أن تكون ممثلاً كوميديًا لجمهور لا يسمعك ولا يفهمك لو أراد، وظل المدير ـ أو أيًا ما يُسمى نفسه ـ يكثر من

الكلام عن النجاح، فليعرض مسرحيته الناجحة فى دار المسنين، وكما رأيتمونى، فقد عملت فى عالم الاستعراض اليدى طوال أربعين عامًا، إذْ بدأت العمل حين كنت فى الحادية عشرة، وعندما لم يتركونى أعمل فى وارسو، ذهبت إلى لودز وقيلنا وإيشيشوك، كما عملت أيضًا فى الحى اليهودى، والجمهور البائع أفضل من الجمهور الأصم، وعندما وصلت إلى نيويورك أَجْرت لى نقابة الممثلين اختبار صلاحية، وطلب منى خبراء النقابة أن أمثل دورًا من "كينى ليمل" وهم يلعبون الورق فى أثناء مشاهدتى، فلم أنجح، لا فى الإلقاء أو الأداء، وباختصار، قابلت رجلاً يدير مطعمًا رومانيًا فى قبو، وهو يسميه ملهى ليليًا يذهب إليه سائقو عربات النقل اليهود مع رفيقاتهم غير اليهوديات، وكل واحد من الرجال فوق السبعين، ولديهم زوجات وأحفادهم أساتذة جامعات، أما النساء فيرتدين معاطف فراء منْك باهظة الثمن، وكان على "ياشاكوتيك" أن يسليهم، كانت ميزتى الخاصة أنى أتكلم الإنجليزية الرديئة وأنى ألقى كلمات ييدية، هذا ما نلته لقاء رفضى لغرف الغاز، ورفضى أن أغضى أو أن أتقبل الذل والهوان، أو أن أموت من أجل الرفيق ستالين فى كازاخستان، ومن سوء حظى أن اشتد التهاب المفاصل لدىّ فى أمريكا، ماذا تعمل يا سيد بشيلس؟ وهل أنت رجل أعمال؟

ما الفرق؟ فأنا لم أقلل من قدرك شيئًا.

تقلل!

فقال "هرمان" السيد بشيلس يتعامل فى العقارات.

فسأله "ياشاكوتيك":

ربما عندك منزل لى؟ سأعطيك ضمانًا أنى لن آكل طوبًا.

فقاطعت "ماشا" الكلام قائلة:

لماذا وقوفنا هنا ؟ لنأت بشىء نأكله، أنت لم تتغير على الإطلاق، ومازلت فى غير مكانك الصحيح.

لقد صرت جميلة جدًا.

فسأل "بشيلس" "ماشا":

كم مضى على زواجكما أنتما الاثنان؟

فعبست "ماشا" قائلة:

مدة من الطول تكفى لبدء التفكير فى الطلاق.

أين تسكنين؟ فى جزيرة كونى أيضًا؟

فتساءلت "ماشا" بارتياب قائلة:

لماذا كل هذا الكلام عن جزيرة كُونى؟ ماذا حدث فى جزيرة كُونى؟

فقال "هرمان" لنفسه : طيب، ها قد وقعت الكارثة.

وأدهشه أن توقعه للكارثة كان أسوأ كثيرًا مما هو حادث الآن، ولم يُغمَ عليه، وأغمض عينًا وذبذب أنفه، واقترب "بشيلس" خطوة من "ماشا" وقال:

أنا لا أقول شيئًا من عندى، فقد كنت يا سيدة، بماذا أدعوك؟ فى منزل السيد برودر كُونى، فى أى شارع يقع المنزل؟ بين مرميد ونبتون؟ واظن أن المرأة التى اعتنقت اليهودية زوجته، وتبين أخيرًا أن له زوجة صغيرة جميلة هنا، وأقول لك إن هؤلاء الوافدين الجدد يعرفون كيف يحيون، ومعنا نحن سكان أمريكا عليك حينما تتزوج

أن تتبع أسلوبهم أردت أو لم ترد، ولك أن تطلق وتدفع النفقة، وإذا لم تدفع، فستذهب إلى السجن، وماذا حدث للمرأة الصغيرة الجميلة الأخرى، تامارا؟ تامارا برودر؟ لقد كتبت اسمها أيضًا فى مفكرتى.

فسألت "ماشا" "هرمان":

من تامارا هذه ؟ إن زوجتك الميتة اسمها تامارا؟ أليس كذلك؟

فرد "هرمان" : زوجتى الميتة فى أمريكا.

وارتعشت ركبتاه، وأحسن بالوجع فى معدته، وسأل نفسه: هل سيغمى عليه؟

وقالت "ماشا" وقد صار وجهها غاضبًا:

هل بُعِثت زوجتك من بين الموتى؟

يبدو ذلك.

هل هى التى ذهبت إلى بيت عمها فى إست برودواى لتراها؟

نعم.

لقد قلت لى إنها عجوز وقبيحة.

فقال "ياشا كوتيك" وهو يضحك، وهو يخرج طرف لسانه، ويقلّب عينًا فى اتجاه بعد آخر على نحو متواصل:

هذا ما يقوله الرجال لكل الزوجات.

وضرب "بشيلس" ذقنه، والتفت إلى "هرمان" قائلاً:

لست متأكدًا الآن من الذى اختلط عليه الأمر، أنا أم الآخرون، لقد زرت السيدة سكرير فى جزيرة كونى، وحدثتنى عن امرأة فى

طابق علوى اعتنقت اليهودية، وأنك زوجها، وقالت إنك مؤلف أو حاخام أو ما شابه ذلك، وقالت أيضًا إنك تبيع الكتب، وأنا عندى ضعف تجاه المسائل الأدبية سواء أكانت ييدية أم عبرية أم تركية، وأثنت عليك ثناءً حيًا، وقالت عنك الكثير، ولما كان عندى مكتبة وأجمع أشياء متنوعة، فقد فكرت أن أشترى منك شيئًا، والآن من هى تامارا؟

فقال "هرمان":

لا أدرى يا سيد بشيلس ماذا تريد؟ ولماذا تتدخل فى شأن غيرك من الناس لماذا لا تستدعى الشرطة إذا كنت تظن أن ثمة شيئًا خاطئ.

وظهرت حلقات نارية أمام عينيه، وتذكر أنها ظاهرة خَبرها منذ طفولته، وأن الحلقات المترصدة خلف عينيه تتأهب للظهور فى أوقات الشدة أو الإجهاد البدنى والنفسى، وانزوت حلقة إلى جنب ثم عاودت الطفو، وتساءل "هرمان" هل من الممكن أن يغمى على المرء ويبقى واقفًا؟

فقال "بشيلس":

أى شرطة ؟ ما الذى تتحدث عنه؟ أنا لست كما يقولون فارس الرب، ومن ناحيتى فإن لك أن تتملك طائفة من الحريم بأكملها، فأنت لا تساكننى أو تنازعنى العيش، ظننت أنى قادر على مساعدتك؛ لأنك برغم كل شىء لاجئ، ولأنه شىء لا يستهان به أن تصبح غير يهودية بولندية من اليهود، أخبرونى أنك تسافر متنقلاً لبيع موسوعة، وقد حدث بعد أيام قليلة من رؤيتى لك أُتيحت لى فرصة زيارة امرأة فى مستشفى كانت تُجرى عملية جراحية بسبب

متاعب نسائية، وهى ابنة صديق قديم، ودخلت فرأيت تامارا التى تخصك، إذْ كانتا فى غرفة واحدة، وقد أُستخرجت رصاصة من وركها، نيويورك مدينة شاسعة جدًا، عالم بأكمله، ولكنها قرية صغيرة أيضًا، وأخبرتنى تامارا أنها زوجتك ربما كانت تتكلم وهى فى حالة هذيان.

وفتح "هرمان" فمه ليرد، بيد أن الحاخام انضم إليهم فى تلك اللحظة، وقد توهج وجهه بفعل الشراب الذى تعطاه، وصاح:

لقد بحثت عنهم فى كل ناحية، وها هم هنا، أو يعرف بعضكم بعضًا؟ إن صديقى ناتان بشيلس يعرف الجميع والجميع يعرفونه، ماشا أنت أجمل امرأة فى الحفلة، لم أكن أعرف قط أنه توجد امرأة فاتنة جدًا متبقية فى أوربا، وها هو ياشا كوتيك أيضًا!.

فقال "ياشا كوتيك":

أنا أعرف ماشا قبل أن تعرفها أنت.

طيب، فقد أخفاها صديقى هرمان عنى.

فأضاف "بشيلس" وهو يغمز:

إنه يخفى أكثر من واحدة.

أتظن ذلك ؟ لا بد أنك تعرفه جيدًا، إنه يلعب معى دور الحمل البرىء، كنت قد بدأت أظن أنه خَصِىٌّ و.... فقاطعه "بشيلس":

أتمنى لو كنت هذا الخَصِى .

فضحك الحاخام، وقال:

لا تستطيع أن تختبئ من بشيلس، إذْ عنده جواسيسه فى كل مكان، ما الذى تعرفه؟ أطلعنى عليه.

أنا لا أفشى أسرار الآخرين.

هلم لنأكل، تعالوا إلى غرفة الطعام، سنقف فى الصف مع كل الآخرين.

فقال "هرمان" مقاطعًا:

لا تؤاخذنى أيها الحاخام، سأعود حالاً.

إلى أين ستجرى؟

وسار "هرمان" بعيدًا بسرعة، فأسرعت "ماشا" وراءه، وكان عليهما أن يشقا طريقهما خلال الحشد، وقال "هرمان" مُصرًا :

لا تتبعينى، سأعود من فورى.

وأمسكت "ماشا" كم " هرمان" قائلة:

من بشيلس هذا؟ من هى تامارا؟

أرجوك، دعينى أذهب.

أعطنى إجابة صريحة محددة.

يجب أن أتقيّأ.

ونزع نفسه منها، وجرى بحثًا عن حمام، فاصطدم بالناس، فدفعوه إلى الخلف، وزعقت فى وجهه امرأة؛ لأنه داس على قدميها، وخرج إلى مقدم الشقة، فرأى من خلال الهواء الممتلئ بالدخان عددًا من الأبواب، على أنه لم يستطع أن يقرر أى باب منها يؤدى إلى الحمام، وبدأ رأسه يدور، واهتزت الأرض تحته كالسفينة، وانفتح باب، وخرج شخص من الحمام، فأسرع "هرمان" ليدخل، فاحتك برجل آخر خارجًا منه، فشتمه الآخر، وجرى هو إلى

المرحاض، وتدفق القىء من فمه، وكان ثمة رنين فى أذنيه ودق كالشواكيش فى صدغيه، وتصاعدت الأحماض من معدته على نحو تشنجى، ونجم عنها مذاق مر وروائح كريهة كان قد نسيها، وفى كل مرة ظن فيها أنه أفرغ معدته، وبدأ فى مسح فمه بالورق استحوذ التقبض عليه مرة أخرى، وتأوه، وحاول التقيؤ مرة أخرى، وهو ينحنى أكثر فأكثر، وتقيأ للمرة الأخيرة، واعتدل واقفًا، وهو يحس أنه قد استفرغ تمامًا، وخيط شخص ما على الباب وحاول فتحه، وقد لوث هو قرميد الأرضية، ورشرش على الحيطان، فاضطر إلى تنظيفهما، ونظر فى المرآة التى عكست وجهه الشاحب، وتناول فوطة يد من على المشجب، ومسح طيات ياقة سترته، وحاول أن يفتح النافذة لتتسرب الرائحة إلى الخارج، بيد أنه لم تكن لديه القوة لرفعها، وبذل جهدًا أخيرًا، فانفتحت، وتدلى الثلج المُتصلد والدَّلات الثلجية من إطار النافذة، واستنشق "هرمان" الهواء بعمق، فجدد الهواء المنعش قواه، وسمع من جديد أحدهم يدق على الباب، ومقبض الباب يتحرك، ففتح هو الباب، ورأى "ماشا" فقال لها:

هل تحاولين كسر الباب؟

هل أستدعى طبيبًا ؟

طبيب، لا علينا الخروج من هنا.

أنت متسخ بالكامل.

وتناولت "ماشا" منديلاً من كيس نقودها، ومسحت عن "هرمان" الوسخ، وسألته:

كم عدد زوجاتك؟ ثلاث؟

عشر.

أخجلك الله إذْ أخجلتنى.

فقال "هرمان":

أنا ذاهب إلى المنزل.

انطلق إلى فلاحتك لا إلىّ، فكل شىء بيننا قد انتهى.

مُنّته مُنّته.

وعادت "ماشا" إلى غرفة الجلوس، ودخل "هرمان" للبحث عن معطفه وقبعته وجرموقه، ولكنه لم يدر أين يبحث عنهم، وقد اختفت زوجة الحاخام التى أخذتهم منه، ولم يكن ثمة أثر للخادمة، فأخذ يتجول فى الردهة وسط الحشد، وسأل رجلاً عن موضع المعاطف، فهز الرجل كتفيه فحسب، ودخل "هرمان" المكتبة، وألقى بنفسه على كرسى مريح ذى مرفقين، وكان شخص ما قد ترك نصف كأس ويسكى وجزءًا من شطيرة على طرف المنضدة، فأكل "هرمان" الخبز والجبن ذا الرائحة، واحتسى بقايا الويسكى، ودارت به الغرفة وكأنه فى دوَّامة، وتأرجحت أمام عينيه شبكة من البقع والخطوط والألوان الوهاجة التى كان يراها عندما يضغط بأطراف أصابعه على جفونه أحيانًا، وخُيِّل إليه أن كل شىء يومض ويهتز وتتغير هيئته، وأن أناسًا يلصقون رءوسهم بالباب، وإن لم يرهم على وجه التحقيق، فقد كانت وجوههم ترفرف هنا وهناك على نحو مبهم، وتحدث شخص إليه، بيد أن أذنيه بدتا وكأنهما مملوءتان بالماء، وهو يترجرح فى بحر تكتنفه العواصف، لكم هو غريب ألا يوجد شىء من النظام فى هذا التشوش، ومع أن كل الأشياء التى رآها كانت هندسية الشكل، فقد كانت مشوهة والألوان تتغير باستمرار، ومَيَّز "ماشا" حين دخلت، وقد جاءت إليه بشراب فى

يدها، وقالت: أنت مازلت هنا؟ وسمع كلماتها وكأنها عن بعد، وتعجب من التغير الذى طرأ على حاسة السمع عنده فضلاً عن إحساسه باللامبالاه إزاء نفسه، وجذبت "ماشا" كرسيًا وجلست عليه وركبته تلامس ركبتيها تقريبًا، وقالت:

من تامارا هذه؟

زوجتى بقيد الحياة، وهى فى أمريكا.

لقد انتهت علاقتنا، ولكنى أرى أنك مدين لى بأن تكون صادقًا معى للمرة الأخيرة.

إنها الحقيقة.

من هو بشيلس؟

لا أعرف.

لقد قدم لى الحاخام لامبرت عملاً - مشرفة فى دار نقاهة، والأجر خمسة وسبعون دولارًا فى الأسبوع.

ماذا ستفعلين مع أمك؟

سيكون لها مكان هناك أيضًا.

وأدرك "هرمان" تمامًا كل ما يعنيه هذا، على أن هذا لم يعد مُهمًا، وبدا له أنه يمر بتجربة "تفكك الأطراف" وهو الوصف الحسيدى لتحقق حالة إنكار النفس، فقال لنفسه: " ليتنى أكون دائمًا على هذا النهج"، وانتظرت "ماشا"، ثم قالت:

لقد أردت كل هذا أن يحدث، وخططت له بهذه الطريقة. سأحبس نفسى مع المرضى وكبار السن، وبما أنه لا يوجد دير

راهبات لليهوديات، فسيكون هذا ديرى ـ إلى أن تموت أمى ـ وبعد ذلك سأفرغ من هذه الملهاة بأكملها هل أقول لك شيئًا؟، إنها ليست غلطتك أن وُلِدت مدعيًا كاذبًا.

وانصرفت "ماشا"، فأسند "هرمان" رأسه إلى ظهر الكرسى، وكانت رغبته الوحيدة أن يتمدد فى مكان ما، وسمع كلامًا وضحكًا ووقع أقدام وأصوات احتكاك أطباق وآنية زجاجية، ثم قل التشوش فى ذهنه تدريجيًا، وتوقف دوران الغرفة، واستقر الكرسى على أرض ثابتة من جديد، واستجمع ذهنه تماسكه من جديد، ولم يتبق سوى الوهن فى ركبتيه وطعم المرارة الذى تخلف فى فمه، بل إنه أحس أيضًا بعضة جوع خفيفة، وفكر فى "بشيلس" و"ياشا كوتيك"، وكان من الواضح أنه إذا خرج سالمًا من هذه المحنة، فلن يعمل أبدًا لصالح الحاخام لامبرت من جديد، وفى خضم كل هذا الاضطراب كان ثمة خطة تدبرها القوى التى تسيطر على الشئون الإنسانية، فقد كان الحاخام يحاول بوضوح أن يبعد " ماشا " عنه، فهو لم يكن ليدفع أبدًا خمسة وسبعين دولارًا فى الأسبوع لامرأة بلا تدريب أو خبرة لهذا العمل، أو ليهتم ـ إلى ذلك ـ بأمها بتكلفة قدرها خمسة وسبعون دولارًا أخرى فى الأسبوع إن لم تزد، وتذكر "هرمان" فجأة ما قاله "ياشاكوتيك" عن "موشيه فيفر"، لقد حطمت الحفلة نهائيًا بضعة أوهام من "ماشا" كان يتشبث بها، وانتظر وقتًا طويلاً، على أن "ماشا" لم تعد، وتخيل: "من يدرى؟ ربما ذهبت لاستدعاء رجال الشرطة"، وتخيل أيضًا أنهم قد وصلوا، وقبضوا عليه وأرسلوه إلى جزيرة إيلس، ثم قاموا بترحيله إلى بولندا، ووقف السيد "بشيلس" أمام "هرمان" ونظر إليه، وهو يميل برأسه إلى جنب، وقال ساخرًا:

هأنت ذا هنا !، إنهم يبحثون عنك.

- مـن؟

الحـاخـام وزوجته، إن مـحـبـوبتك مـاشـا امـرأة جـذابـة وفـاتـنـة، أين تجدهن، بدون قصد الإسـاءة، أنت فى نظرى لا شىء.

فلم يرد "هـرمـان".

كيف فعلت هذا؟ أود أن أعرف كيف؟.

يا سيد بشيلس، أنت لست محتاجًا إلى أن تحسدنى.

لم لا؟ فى بروكلين اعتنقت امرأة غير يهودية الديانة اليهودية من أجلك، وعندك هنا امرأة جميلة كالصورة، وتامارا لا يُستهان بها أيضًا، لقد أخبرت الحاخام لامبرت عن المرأة غير اليهودية التى اعتنقت الديانة اليهودية بسببك، ولم أكن أقصد أى أذى أو ضرر، وهو الآن مشوش تمامًا، وقد أخبرنى أنك تؤلف كتابًا من أجله، مَنْ ياشا كوتيك هذا؟

أنا لا أعرفه مطلقًا.

وأنا لا أعرفه أيضًا.

يبدو أنه على ود تام مع زوجتك، إنه عَالَم مجنون، أليس كذلك؟ الذى يعيش أكثر يرى أكثر، ومع ذلك كان يجب عليك أن تكون حذرًا بعض الشىء هنا فى أمريكا، فقد لايقع شىء على مدى سنوات، ثم تتوالى المتاعب الجسيمة فجأة، مرة كان يوجد مُبتز على صلة بأكابر الناس: حكام ولايات، وأعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى، وفجأة بدأ يثير المتاعب فى وجهه، وهو ينتظر فى السجن الآن، وسيعيدونه إلى إيطاليا التى جاء منها عما قريب، وأنا لا أجرى مقارنات لا سمح الله، ولكن عند العم سام القانون هو القانون، ونصيحتى إليك ألا تبقيهن على الأقل فى ولاية واحدة، وتامارا

امرأة عانت المتاعب، حاولتُ أن أرتب لها زيجة، لكنها أخبرتنى أنها متزوجة منك، وطبعًا هذا سر ولن أخبر أحدًا به.

' لم أكن أعلم أنها بقيد الحياة.

ولكنها قالت إنها أرسلت إعلانًا للرابطة أو المؤسسة ليطبع فى الصحف هنا، أنت على الأرجح لا تقرأ الصحف.

فقال "هرمان":

لعلك تعرف أين أجد معطفى؟ أود أن أنصرف، ولكنى لا أجده.

أهكذا الأمر؟ يمكنك أن تجد كل هؤلاء النسوة، ولا تجد معطفك؟ أراهن أنك ممثل، لا تقلق، فلن يسرق أحد معطفك، أتصور أن المتعلقات فى غرفة النوم، إذْ لا يملك أحد فى نيويورك خزانات كافية لتعليق كل المعاطف عند إقامة حفلة، لِمَ العجلة؟ أنت بالتأكيد لن تنصرف مع زوجتك، سمعت أن حاخامنا قد عرض عليها عملاً طيبًا منذ وقت قريب، هل تدخن؟

أحيانًا.

وأبرز السيد "بشيلس" علبه سجاير ذهبية وقداحة مصنوعة من الذهب أيضًا، وقال:

إليك سيجارة، إنها تهدئ الأعصاب.

وكانت السجاير مستوردة وأقصر من السجاير الأمريكية وذات رءُوس مذهبة، وقال "بشيلس":

مرة أخرى لماذا تقلق على المستقبل؟ لا أحد يعلم ما الذى سوف يجىء به الغد، كل من لا يأخذ ما يقدر عليه اليوم فلن يناله أبدًا، ما الذى حدث لكل الثروات فى أوربا؟ كومة من الرماد.

وأخذ "بشيلس" نفسًا من السيجارة، وأطلق حلقات من الدخان، وفى غضون دقيقة صار وجهه شائخًا ومكتئبًا كما لو كان يعكس حزنًا داخليًا لا سبيل إلى تخفيفه أو التعزى منه، وقال وهو يشير ناحية الباب:

أفضل أن أرى ما يحدث فى الخارج هناك.

ـ ٤ ـ

وبقى "هرمان" جالسًا وحده ورأسه محن، وكان قد رأى نسخة من التوراة على الرف بالقرب من كرسيه فمال نحوها وتناولها، وقلّب صفحاتها، فوجد المزامير: "ارحمنى يارب، لأنى فى ضيق، وخَسَفَتْ عينى من الغَمِّ ونفسى وبطنى؛ لأن حياتى قد فنيت بالحزن وسنينى بالتنهد، وضَعُفَتْ بشقاوتى قوتى، وبَلِيَت عظامى، وعند كل أعدائى صرت عارًا، وعند جيرانى بالكُلِّية، ورعُبًا لمعارفى"، قرأ "هرمان" كلمات المزمور الحادى والثلاثين، لكم تناسب هذه العبارات كل الظروف والأعمار والأمزجة وحالات النفس فى حين يفقد الأدب الدنيوى صلته الوثيقة بالموضوع مع مرور الوقت مهما كانت كتابته جيدة، وترنحت "ماشا" وهى تحمل طبقًا وكأس ويسكى، فقد كان من الواضح أنها سكرات، وكان وجهها شاحبًا، وعيناها تشعان سخرية، ووضعت الطبق على ذراع كرسى "هرمان" فى وضع غير مستقر، وسألته : ماذا تفعل ؟ أتقرأ التوراة؟ أنت منافق مقمل.

ماشا، اجلسى.

كيف عرفت أنى أريد الجلوس؟ لعل ما أريده فى الحقيقة الاستلقاء فى الفراش، وإذا ما غيرت رأيى فسأجلس على حجرك مباشرة.

كلا يا ماشا، ليس هنا.

لم لا، أعلم أنه حاخام، ولكن شقته ليست معبدًا، بل إن المعبد لم يكن يوقف أحدًا خلال الحرب، فقد كانوا يسوقون النسوة اليهوديات إلى داخل المعبد و.....

النازيون فعلوا ذلك .

ومن النازيون؟ رجال أيضًا، إنهم يريدون الشيء الذى تريده أنت وياشا كوتيك، بل الحاخام أيضًا، وربما تفعل أنت بالضبط ما فعلوه، إنهم ينامون مع أعداد غفيرة من النسوة النازيات فى ألمانيا، ويشترونهن مقابل علبة سجاير أمريكية أو قطعة من الشيكولاتة، كان ينبغى لك أن ترى كيف أن بنات الجنس المتفوق يذهبن إلى الفراش مع شبان الحى اليهودى وكيف يعانقنهن ويقبلنهن، بل إنهن يتزوجن بعضهم، فلماذا كثرة اللغط حول كلمة نازى؟ كلنا نازيون، الجنس البشرى بكامله نازا وأنت لست نازيًا فقط، بل أنت جبان يخاف من ظله أيضًا.

وحاولت "ماشا" أن تضحك، على أنها صارت جادة من جديد بعد قليل، وقالت:

لقد شربت أكثر من اللازم، أفرغت زجاجة ويسكى فى جوفى، انطلق وكل إذا لم تكن تريد أن تسقط ميتًا من الجوع.

وهوت "ماشا" إلى كرسى، وأخرجت علبه سجاير من حقيبتها، بيد أنها لم تجد ثقابًا، فقالت:

لماذا تنظر إلىَّ على هذا النحو؟ أنا لن أنام مع الحاخام.

ماذا يجرى بينك وبين ياشا كوتيك؟

قملى ينام مع قمله، خبرنى من تامارا هذه؟ خبرنى على نحو قاطع.

زوجتى حية، حاولت أن أقول لك هذا.

أهذه هى الحقيقة أم أنك ما زلت تضلنى.

إنها الحقيقة.

ولكنهم أطلقوا الرصاص عليها.

إنها بقيد الحياة.

والأطفال أيضًا؟

كلا، الأطفال لا.

طيب، ثمة جحيم لا طاقة لماشا به، هل تعلم فتاتك غير اليهودية بشأنها؟

لقد زارتنا.

سِيَّان عندى، ظننت أنى حين أجىء إلى أمريكا، سأتخلص من كل الوسخ، ولكن يخيل إلىّ أنى هبطت إلى ما هو أشد وسخًا من العالم كله، قد تكون هذه آخر مرة أتحدث فيها إليك، وأود أن أخبرك أنك أسوأ غشاش عرفته فى حياتى، وصدقنى لقد عرفت كثيرًا من الجرذان، أين زوجتك الناهضة فى القبر؟ أود أن أقابلها كى ألقى عليها نظرة على الأقل.

إنها تسكن فى غرفة مفروشة.

أعطنى عنوانها ورقم تليفونها.

لماذا؟ طيب، سأعطيه لك، لكن ليس معى مفكرة العناوين الخاصة بى.

إذا سمعت أنى مت فلا تأت إلى جنازتى.

ـ ٥ ـ

عندما صار "هرمان" خارج المبنى، وأدرك مدى قسوة البرد بالخارج بدأ شىء ما بداخله يضحك الضحك الذى يصاحب أحيانًا البؤس التام، وهبت من نهر هدسن ريح قارصة، صافرة عاوية، ونفذ البرد فى جسم "هرمان" خلال ثوان قليلة. كانت الساعة الواحدة صباحًا، ولم تكن لديه القوة الكافية للقيام برحلة طويلة إلى جزيرة كُونى، وتشبث بالباب خائفًا أن يتحرك، وليت معه ما يكفى من النقود للمبيت فى فندق، إذْ إن ما معه فى جيبه أقل من ثلاثة دولارات، وليست هنالك غرفة يمكن الحصول عليها فى أى مكان مقابل ثلاثة دولارات عدا شارع المتشردين، أيعود ويقترض بعض النقود من الحاخام؟ وكان ثمة ضيوف فوق معهم سيارات، وهم ولا ريب سيأخذون "ماشا" إلى المنزل، وغمغم: " كلا، إنى أفضل الموت"، وشرع فى التوجه إلى شارع المتشردين، حيث الريح أهدأ، والصقيع قارس، وهو أكثر التماعًا وإشراقًا مما فى شارع وست إند، وتوقف سقوط الثلج، على أن ندفة أخذت ترف هابطة من السماء أو سقف بين حين وآخر، ولمح كافيتيريا، فأسرع يعبر الشارع، وكادت تدهسه سيارة، فهز رأسه ولوح بيده على سبيل الاعتذار، ودخل الكافيتيريا مضطرب الخطو ولاهثًا ومتيبسًا من البرد، فها هنا فى الضوء والدفء يُقدم طعام الإفطار الآن، وكان ثمة أصوات احتكاك أطباق وأناس يقرءون الصحف الصباحية ويأكلون الخبز الفرنسى المحمص مع شراب الفاكهة وعصيدة الشوفان مع القشدة، وطعامًا من الحبوب مع اللبن، وكعك الوَفْل مع السجق، وجعله مجرد رائحة الطعام يحس بالإغماء، ووجد مائدة لصق الحائط، وعلق قبعته ومعطفه، وأدرك أنه لم يستحصل على فاتورة، فعاد إلى أمينة

الصندوق ليوضح لها، فقالت هذه له: نعم رأيتك وأنت تدخل، أنت تبدو متجمدًا مائة بالمائة.

وطلب "هرمان" عصيدة شيوفان وبيضًا ورغيفًا وقهوة عند نضد الطعام، وتكلفت الوجبة كلها خمسة وخمسين سنتًا، وعندما حمل الصينية عائدًا إلى منضدته ارتعشت ساقاه، وهما تحملانه بالكاد تحت وطأة ثقله، وما إن بدأ يأكل حتى عادت إليه حيويته، وأثمله شذا القهوة، وكانت لديه رغبة واحدة فقط: أن تظل الكافيتيريا مفتوحة طوال الليل، وأقبل بورتوريكى إلى المنضدة لرفع الأطباق، فسأله " هرمان " عن موعد إغلاق الكافيتيريا، فقال الرجل: الساعة الثانية.

سيكون بالخارج فى البرد الثلجى من جديد فى أقل من ساعة، وهو مضطر إلى اتخاذ خطة والوصول إلى قرار ما، وكان ثمة كشك تليفون أمامه، فربما لا تزال "تامارا" صاحية، فهى الوحيدة فقط التى ليست فى حرب معه الآن، فذهب إلى الكشك وأدخل قطعة نقود، وأدار رقم "تامارا" فردت امرأة على التليفون، وذهبت لاستدعائها، وفى أقل من دقيقة سمع صوتها، فقال:

أتمنى ألا أكون قد أيقظتك، أنا هرمان.

نعم، يا هرمان.

هل كنت نائمة؟

كلا، كنت أقرأ الصحيفة.

تامارا، أنا فى كافيتريا فى برودواى، إنهم يغلقون فى الساعة الثانية، لا مكان عندى أذهب إليه.

فترددت لحظة، وقالت:

أين زوجتاك؟

إنهما لا تردان عليّ.

ماذا تصنع فى برودواى فى هذه الساعة؟

كنت فى حفلة فى شقة الحاخام.

فهمت، هل تود أن تأتى إلى هنا؟ الجو شديد البرودة، لقد ربطت كُمّى سترة على ساقىّ، الريح تصفر عبر المنزل، كما لو كان لا يوجد بالنوافذ لوح زجاج واحد، لماذا تتشاجر زوجتاك معك؟ لماذا لاتأتى إلى هنا مباشرة إذا ما غيرت رأيك؟ فكرت أن أكلمك بالتليفون غدًا، إذْ يوجد شىء يجب أن أكلمك بخصوصه، المشكلة الوحيدة أنهم يغلقون الباب الخارجى، قد تدق الجرس لمدة ساعتين ولا يأتى البواب ليفتح لك، متى ستكون هنا؟ سأنزل وأفتح لك بنفسى.

تامارا، أنا خجل أن ضايقتك على هذا النحو، المسألة فقط أنى لا أجد مكانًا أنام فيه، وما معى نقود أدفعها لفندق.

الآن حين تحبل تشن حملة عليك؟

إنها متعبة من كل النواحى، لماذا أخبرت بشيلس عنا وإن كنتُ أنا لا ألومك؟

فتنهدت "تامارا" قائلة:

لقد جاء إلى المستشفى، وإنهال علىّ بألف سؤال، مازلت لا أفهم كيف وصل إلى هناك، لقد جلس بجانب سريرى، واستجوبنى

كالمدعى العام، وحاول أن يرتب لى زيجة أيضًا، وكان ذلك بعد العملية بوقت قصير، ترى ما صنف هؤلاء الناس؟

فقال "هرمان":

أنا نفسى وقعت فى هذه "اللخبطة" إلى حد أن كل شىء ميئوس منه، أفضِّل أن أعود إلى جزيرة كُونى.

فى هذه الساعة، سيستغرق ذلك منك طول الليل، كلا، تعال إلى مطرحى يا هرمان، أنا لا أستطيع النوم، أنا صاحية طول الليل على أي حال.

وأوشكت "تامارا" أن تقول شيئًا آخر، بيد أن عامل التليفون قاطعها للمطالبة بوضع قطعة نقد أخرى، على أن "هرمان" لم يكن معه، فأخبر " تامارا" أنه سينهى المكالمة بأسرع ما يمكن، ووضع السماعة، وغادر الكافيتيريا، وسار إلى محطة القطار النفقى فى شارع "التاسع والسبعون"، وامتد شارع برودواى أمامه خاليًا، حيث توهجت أنواره ساطعة، وقد أوجدت على نحو ما جو عيد شتوى غامض شبيه بمواطن الجن، وهبط "هرمان" الدرج إلى المحطة، ووقف ينتظر قطارًا محليًا مما يتوقف عن كل المحطات، وكان الشخص الآخر الوحيد الواقف على الرصيف ـ زنجيًا، ولم يكن يرتدى معطفًا رغم الجو البارد إلى حد بعيد، وانتظر " هرمان " ربع الساعة، ولم يظهر مع ذلك قطار، أو شخص آخر، وتوهجت المصابيح على نحو مبهر، وبدأ ينتثر من خلال فتحة مُقَضَّبة فى السقف ثلج ناعم، وندم فى تلك اللحظة على مكالمة "تامارا"، فقد كان من الحكمة أكثر أن يذهب إلى جزيرة كُونى؛ لأنه ربما نَعِم على الأقل بساعات قليلة من النوم الهانئ، هذا إذا تركته "يادفيجا" ينام

فى سلام، وقد فطن إلى أن "تامارا" لكى تسمع جرس الباب عليها أن ترتدى ملابسها وتنتظر فى المدخل البارد أسفل المبنى، وبدأت قضبان السكة الحديد تهتز والقطار يهدر، وكانت ثمة قلة من الرجال جالسين فى العربة: سكير يغمغم ويصدر تعبيرات ساخرة بوجهه، ورجل معه مكنسة وصندوق أضواء إشارة مما يستعمله عمال السكة الحديد، وكادح يحمل صندوقًا معدنيًا لحمل الطعام وقالب أحذية، وقد أحاطت بأحذية هؤلاء الرجال بريكات ماء موحلة، وكانت أنوفهم حمراء وملتمعة من البرد وأظافرهم غير مقصوصة وقذرة، وخيم على الجو قلق غريب، قلق أولئك الذين يحولون الليل إلى نهار، وتخيل "هرمان" أن الحيطان والمصابيح وألواح زجاج النوافذ والأبواب والإعلانات قد تعبت من البرد والضوضاء والضوء المبُهر، واستمر القطار يطلق صفارة الإنذار ويعوى، لكأنما فقد سائق القطار السيطرة عليه، أو جاوز إشارة حمراء، ثم فطن إلى خطئه، ومن ميدان التيمز قطع "هرمان" مسافة طويلة إلى القطار المكوكىّ الذى يذهب إلى المحطة المركزية الرئيسية، وكان عليه أن ينتظر وقتًا طويلاً لركوب القطار المحلى إلى شارع ثمانية عشر، وخُيِّل إليه أن الناس الآخرين المنتظرين فى أوضاع مشابهة لوضعه رجال منفصلون عن عائلاتهم، وهائمون على وجوههم لا يتقبلهم المجتمع أو يرفضهم، وتعبر وجوههم عن الإخفاق والندم والشعور بالذنب، ولم يكن ثمة أحد من هؤلاء الرجال حليق الذقن أو يرتدى ملابس لائقة، وراقبهم "هرمان" إلا أنهم تجاهلوه وتجاهل بعضهم بعضًا، ونزل عند شارع ثمانية عشر، وقطع صف البيوت المؤدية إلى منزل " تامارا "، وكانت مبانى المكاتب والشركات غير مضاءة ومتروكة، وكان من الصعب تصديق أن

حشودًا من الناس كانت تؤدى عملها فيها منذ ساعات قليلة، وتوهجت السماء أعلى أسطح المبانى داكنة، بلا نجوم، وصعد الدرجات القليلة المؤدية إلى الباب الزجاجى لمنزل "تامارا" فرأى "تامارا" فى الضوء الشحيح المنبعث من مصباح كهربائى وحيد، وهى تنتظره، وقد ارتدت معطفًا يُظهِر من أسفل حاشية رداء النوم، وبدا وجهها رماديًا من قلة النوم، وشعرها غير مُسرح، وفتحت الباب فى صمت، وصعدا الدرج بتثاقل، إذْ لم يكن المصعد الكهربائى فى وقت التشغيل، وسألها "هرمان":

كم من الوقت انتظرت؟

ما الفرق؟ اعتدت على الانتظار.

وبدا له غير معقول أن هذه زوجته، "تامارا" عينها التى التقاها أول مرة منذ خمسة وعشرين عامًا تقريبًا فى محاضرة تتعلق بموضوع مطروح للمناقشة: "هل يمكن أن تحل فلسطين المشكلة اليهودية؟ "، وفى الدور الثالث توقفت "تامارا " قليلاً، وقالت:

أوه، ساقاى.

وأحس "هرمان" رَبّلتى ساقيه مشدودتان أيضًا، والتقطت "تامارا" نفسها وسألته آنذاك:

ألم تحجز فى مستشفى بعد؟

يادفيجا ؟ تتولى الجارات الأمر بالكامل.

ـ ولكنه طفلك قبل كل شىء .

فأراد أن يقول:

وماذا إذن؟

ولكنه بقى صامتًا.

ـ ٦ ـ

نام "هرمان" ساعة، واستيقظ، ولم يكن قد خلع ملابسه، فقد استلقى على الفراش بسترته وبنطلونه وقميصه وجوربه، وسحبت كمى سترة على ساقيه وألقت معطفها الغرائى الرث ومعطفه على البطانية.

وقالت : شكرًا لله، فلم ينته زمن معاناتى؛ لأنى فى قلبه تمامًا، هذه هى تقريبًا الطريقة التى كنا نكابد بها فى جامبول، ولن تصدق أنى أجد فيها بعض الراحة والعزاء، وإنى لا أريد أن أنسى ما عانيناه، وأن أتصور أنى أخون كل اليهود فى أوربا عندما يكون الجو فى الغرفة دافئًا، إن عمى يعتقد أنه يجب على اليهود أن يطيعوا الإله شيفا(*) الخالد، وأن على الناس كلهم أن يجلسوا على كراسى وطيئة ويقرءوا من سفر أيوب.

بدون إيمان، لا يمكن للمرء أن يقيم حدادًا على أحد.

هذا فى حد ذاته سبب كاف للحداد.

لقد قلت فى التليفون إنك عزمت على مخاطبتى، فعن أى شىء؟

فقالت "تامارا" بانتباه شديد:

أوه لا أدرى كيف أبدأ، ليس من طبعى أن أكذب باستمرار على نحو ما اعتدت أنت، لقد واجهنى عمى وعمتى بشأننا، إذا كنت قد أعترف بالحقيقة لشخص نكرة مثل بشيلس، فكيف أخفى الحقائق

(*) شيفا: إله الدمار والانبعاث، فى الفكر الدينى الهندوسى.

عما تبقى لى من أقارب فى الدنيا؟ أنا لم أقصد أن أشكو لهما منك يا هرمان، إنه شىء مخجل لى أنا أيضًا، ولكنى شعرت بأنه يجب علىّ أن أخبرهما، وقد ظننت أنهما سيموتان من الصدمة حين أخبرتهما أنك متزوج من غير يهودية، بيد أن عمى تنهد فحسب، وقال: "إذا أجريت عملية لشخص ما، فإن ثمة آلاما تعقبها"، ومن ذا يعرف خلاف ذلك أفضل منى؟ فإن المعاناة تبدأ فقط فى الصباح التالى للعملية، طبعًا، كانا يريدان أن تتم الطلاق وكان فى ذهنه عشر زيجات لى لا واحدة: علماء ومثقفون ويهود ممتازون، وكلهم لاجئون فقدوا زوجاتهم فى أوربا، ومن أنا لأقول هذا؟ إن لدىّ من الرغبة فى الزواج قَدْر ما لديك من الرغبة فى الرقص على سطح منزل، وقد أصر عمى وعمتى كلاهما على أنك إما أن تطلق يادفيجا وتعود إلىّ أو أن تطلقنى أنا، وهما على حق من وجهة نظريهما، وأمى - طيّب الله ذكراها - حكت لى مرة عن موتى لا يعرفون أنهم ماتوا وهم يأكلون ويشربون، بل يتزوجون أيضًا؛ ولذا فما دمنا كنا نعيش معًا فيما مضى، وكان لدينا معًا أطفال، ونحن الآن نطوف عالم التوهم والضلال، فلِمَ نحتاج - إذن - إلى الطلاق؟

تامارا، إنهم يستطيعون أن يضعوا جثة فى السجن أيضًا.

لا أحد سيحبسك، لماذا أنت خائف هكذا من السجن؟ ربما تكون فيه أحسن حالاً مما أنت عليه الآن..

لا أريد أن يُرحلونى، لا أريد أن أدفن فى بولندا.

من الذى سيُبلغ عنك؟ عشيقتك ؟

ربما بشيلس.

لماذا يبلغ عنك؟ وما الدليل الذى لديه؟ أنت لم تتزوج أى واحدة فى أمريكا.

لقد كتبت لماشا عقد زواج يهودى.

وماذا صنعت هى به ؟ نصيحتى لك أن تعود إلى يادفيجا وتعيش فى سلام معها.

أهذا ما أردتِ إخبارى به ؟ أنا لا أستطيع العمل من أجل الحاخام بعد الآن ؟ هذا خارج موضوعنا الآن، أنا مدين بالإيجار، أنا أجد بالكاد ما يكفى لإنفاقه فى الغد.

هرمان، أريد أن أقول شيئًا، ولكن لا تغضب منى.

ما هو ؟

هرمان، الناس أمثالك غير قادرين على اتخاذ القرارات لأنفسهم، صحيح أنى لست بارعة جدًا فى اتخاذ القرارات لنفسى أيضًا، ولكن يسهل أكثر أحيانًا التعامل مع مشاكل الآخرين أكثر مما يتعامل المرء مع مشاكله الشخصية، وهنا فى أمريكا يتخذ بعض الناس ما يطلق عليه مدير أعمال، فدعنى أكن مدير أعمالك، أسلم لى نفسك تمامًا، وتظاهر بأنك فى معسكر اعتقال، وأنك يجب أن تفعل كل ما أطلبه منك، سأقول لك ما تفعله فتفعله سأجد لك عملاً، فى حالتك أنت لست فى وضع تساعد فيه نفسك.

لماذا يجب أن تفعلى هذا؟ وكيف؟

هذا ليس من شأنك، سأفعل شيئًا، البدء غدًا، سأتولى رعاية كل حاجاتك، ويجب أن تكون مستعدًا للقيام بكل ما أطلبه منك، لو طلبت منك أن تخرج وتحفر خنادق أو مصارف فيجب أن تفعل.

ماذا لو وضعونى فى السجن؟

إذن، سأرسل لك لفافتًا وعلبًا فى السجن .

فى الحقيقة يا تامارا، هذه مجرد وسيلة لإعطائى دولاراتك القليلة.

كلا، يا هرمان، لن تأخذ شيئًا منى، البدء غدًا، سأتولى كل شئونك، أعلم أن وافدة جديدة، على أنى اعتدت العيش فى أماكن غريبة، وأرى أنى الأمور قد صارت تبهظك، وأنك على وشك أن تسقط تحت حملها.

وصمت "هرمان"، ثم قال:

هل أنت ملاك؟

ربما، فمن ذا يعرف حقيقة الملائكة؟

لقد قلت إنه من الجنون أن أكلمك بالتليفون فى وقت متأخر بالليل هكذا، على أن شيئًا ما جعلنى أفعل ذلك، نعم، سأضع نفسى تحت تصرفك، فلم تبق لدىّ قوة ....

اخلع ملابسك، فقد أتلفت بذلتك.

فخرج "هرمان" من الفراش، وخلع سترته وبنطلونه ورابطة عنقه، وأبقى فقط على ملابسه الداخلية والجورب، وفى الظلام وضع ملابسه على كرسى، وفى أثناء خلع ملابسه، سمع بخار الماء يهس فى المِشعاع، ودخل الفراش من جديد، واقتربت منه "تامارا" ووضعت يدها على ضلوعه، فأغفى، وكان يفتح عينًا بين الفينة والفينة، ثم انقشعت الظلمة، وسمع ضوضاء ووقع أقدام وفتح وغلق أبوابًا فى الداخل، ولا بد أن مستأجرى الغرف عاملون يستيقظون مبكرًا للذهاب إلى عملهم، وأنه لكى يسكن المرء إحدى هذه الغرف اليائسة، فعليه أن يكسب نقودًا، وبعد مضى بعض الوقت نام،

وعندما استيقظ كانت "تامارا" قد ارتدت ملابسها، وأخبرته أنها استحمت فى حمام الردهة، ونظرت إليه بتقدير واكتسى وجهها بتعبير حاسم، وقالت:

هل تذكر اتفاقنا؟ اذهب لتغسل وجهك، إليك فوطة.

فوضع معطفه على كتفيه، وخرج إلى المدخل، وطوال الصباح انتظر الناس دخول الناس الحمام، أما الآن فبابه مفتوح، ووجد "هرمان " قطعة صابون تركها شخص ما خلفه، فغسل بها يديه ووجهه عند الحوض، وكان الماء فاترًا، وتساءل: "من أين جاءت طيبة تامارا؟ "، إذْ تذكر أنها كانت عنيدة وغيورًا، وهى الآن الوحيدة المستعدة لمعاونته رغم أنه استبدل أخريات بها، فما معنى هذا؟ وعاد إلى غرفته، وارتدى ملابسه، وطلبت منه "تامارا" أن ينزل إلى الطابق التالى أسفل ويدق الجرس لاستدعاء المصعد هناك، فلم تُرِد أن يعرف الناس فى المنزل أن رجلاً قضى الليلة معهما، كذلك طلبت منه أن ينتظرها خارج المبنى، وفى الخارج أعشى ضوء الصباح عينيه للحظة، وازدحم شارع التاسع عشر بعربات النقل التى تفرغ اللفات والصناديق الصغيرة والضخمة، وعجت أرصفة الشارع الرابع بالمارة، ونَقَّبَ الحمام الذى بقى حيًا بالليل عن طعام له فى الثلج، وتقافزت العصافير الدورية فى أثرها وصحبت "تامارا" "هرمان" إلى كافيتيريا فى الشارع "الثالث والعشرون"وكانت الروائح المنبعثة منها هى نفسها التى كانت تنبعث من برودواى فى الليلة السابقة، وإن اختلطت هنا برائحة المُطهر المستخدم فى غسل الأرضيات، ولم تسأل "تامارا" "هرمان" عما يريد أن يطلبه، بل أجلسته إلى منضدة وأحضرت له عصير برتقال ورغيفًا وعجة وقهوة، وراقبته لحظة وهو يأكل، ثم ذهبت لتحضر إفطارًا لها،

وأمسك "هرمان" قدح قهوته بكلتا يديه ليدفئ نفسه به لا ليحتسيه، وانحنى رأسه أكثر فأكثر، فقد هدمته النساء، على أنهن أظهرت الرحمة به أيضًا، وعزى نفسه قائلاً: سأفلح فى العيش بدون ماشا، إن تامارا على حق، إننا فى الواقع لم نعد أحياء".

■■■

الفصل التاسع

ـ ١ ـ

انقضى الشتاء، وطفقت "يادفيجا" تتمشى ببطن بارز، وحجزت لها "تامارا" سريرًا فى مستوصف، وجعلت تكلمها بالتليفون كل يوم بالبولندية، وأكثرت جاراتها من التردد إليها، وغرَّد "فوتيس" من الصباح الباكر حتى المساء ووضعت "ماريانا" بيضة صغيرة، وبالرغم من تحذير "يادفيجا" ألا تبذل مجهودًا جسمانيًا أكثر من اللازم، فلم تكف عن التنظيف والفرك بالماء والصابون، وجعل الأرضيات تبرق، بل اشترت أيضًا طلاءً، ودهنت الحيطان بمساعدة جار لها كان يعمل نقاشًا فى أوربا، وفى نيوجرسى احتفلت "ماشا" و"شيفرابؤه"، بأداء صلاة السِّيدرعشية عيد الفصح مع المسنين والعَجزة فى دار النقاهة المملوكة للحاخام، وساعدت "تامارا" "يادفيجا" فى الاستعداد للعيد، وقيل للجيران إن "تامارا" ابنة عم "هرمان"، فصا لديهم شىء جديد يحركون به ألسنتهم، على أنه إذا آثر إنسان أن يتباعد عن الناس، ويجد امرأة تحتمل طباعه وأطواره، فإنهم

يجدون القليل مادة لحديثهم، وتاق كبار السن من المستأجرين إلى الدردشة مع "تامارا" وسؤالها عن معسكرات الاعتقال وعن روسيا والبلاشفة، وكان معظم هؤلاء الناس غير شيوعيين، وكان من بينهم بائع متجول سابق أصر على أن كل ما تنقله الصحف عن روسيا زائف، واتهم "تامارا" بالكذب، وقال إن معسكرات العمل الشاق والموت جوعًا وحملات التطهير ملفقة، وكلما استمع إلى حكايتها علق قائلاً:

مازلت أقول مُبَارك ستالين!

فترد عليه: إذن، لماذا لا تذهب إليه ؟

سيأتون هم إلى هنا.

وكان هذا الرجل يشكو من زوجته، وكانت تحافظ على المطبخ الشرعى بشدة إذْ كانت تجيره على أن يتلو دعاء البركة على النبيذ مساء كل يوم جمعه، وتصر على أن يذهب إلى الكنيس، وقبل عيد الفصح فاحت من المبنى كله روائح كعك المسَّة وحساء البرش اللذين تعدهما النساء أنفسهن، فضلاً عن روائح النبيذ الحلو والفجل الحار والأطعمة الأخرى التى هاجرت من البلد الأم واختلطت بروائح الخليج والمحبط، وصدق "هرمان" نفسه بالكاد أن "تامارا" وجدت له عملاً، إذْ قرر السيد "إبراهيم نيسن ياروسلاف" و"شيفا هاداس" أن يذهبا فى رحلة طويلة إلى إسرائيل، بل ألمح أيضًا إلى أنه قد يستقر فى إسرائيل على نحو دائم، فقد ادخر عدة آلاف من الدولارات، وتلقى مبالغ الضمان الاجتماعى، ويود أن يدفن فى جبل الزيتون فى القدس، لا بين يهود حليقين فى جبانة نيويورك، وكان راغبًا فى بيع مكتبته فى وقت ما، ولكنه رأى أن

بيعها مقابل أسعار زهيدة - عليه أن يتقبلها - إنما يُظهر قلة احترام للكتب التى جمعها بعناية فائقة، بالإضافة إلى قيام الاحتمال دومًا فى عدم الرغبة فى البقاء بإسرائيل، فكلمت "تامارا" عمها أن يترك المكتبة فى عهدتها، وقالت إن "هرمان" سيساعدها فى إدارتها، وإنه مهما يكن من أمره، فهو رجل أمين فى شئون المال، كذلك قالت إنها ستسكن فى شقة عمها وتدفع الإيجار، فأرسل العم فى طلب "هرمان"، وأراه المخزون: كل الكتب القديمة التى لم يرتبها قط، والتى استقرت على الأرض أكوامًا متربة، وكثير منها مُمزق الجلدات ومنزوع الأغلفة، وكانت الديه قائمة جرد فى مكان ما، بيد أنه لم يعثر عليها، وكان يقبل ما يقدم إليه أيًا كان، ولم يساوم قط، فما الذى يحتاج إليه هو و"شيفا هاداس" ؟ كذلك كان المبنى القديم فى إست بوردواى، حيث يسكنان، محدد الإيجار قانونًا، ومع أنه كان يعرف سلوك "هرمان"، ويحث "تامارا" على طلب الطلاق منه، فقد أفلح فى التماس الأعذار له، فلماذا يرتجى المرء عن هؤلاء الشباب صدق النيَّات وهو المصاب بطاعون الشكوك؟ كيف لهؤلاء الذين عاشوا حياتهم فى دمار أن يؤمنوا بالإله ورحمته؟ وهو فى أعماق قلبه لا يحس تعاطفًا مع أولئك اليهود الأرثوذكس الذين يحاولون التظاهر بأن الإبادة الشاملة فى أوربا لم تحدث قط. لقد أفصح السيد "إبراهيم ينسن" عن هذه الأفكار لـ"هرمان" خلال حديثهما الطويل قبل أن يتوجه إلى إسرائيل، وقد أراد أن يستقر فى الأرض المقدسة لينقذ نفسه من الرحلة الشاقة عبر الكهوف السفلية التى لا بد أن يقطعها الميت قبل أن يصل إلى الأرض المقدسة، إذ إن البعث هنالك حين قدوم المسيح، ولم يحرر الرجل العجوز عقدًا مكتوبًا مع "هرمان"، فقد اتفقا شفاهة على أن يحصل الأخير من

عمله على كل ما يحتاجه للعيش، ومنذ أن قبلت "ماشا" العمل فى دار النقاهة، لم يعد "هرمان" يحس بسيطرته على الأمور، أو بالرغبة فى ذلك، وأصبح إيمانه بالقضاء والقدر عمليًا مثلما هو نظرى، وكان مستعدًا لأن تقوده القُوى سواء كانت تُسمى صدفة أو عناية إلهية أو تامارا، وكانت مشكلته الوحيدة هى الهلاوس: فقد يرى وهو فى القطار النفقى "ماشا" فى قطار على قضيب السكة الحديد المقابل، وقد يرث التليفون فى المكتبة فتسمع صوت "ماشا"، بيد أنه تمضى بضع ثوان قبل أن يدرك أن ليست هى، وتأتى معظم المكالمات المتكررة من الأمريكيين الصغار فى السن وهم يسألون عما إذا بوسعهم أن يبيعوا أو يهبوا الكتب التى تركها لهم آباؤهم الذين توفوا، فكيف عرفوا مكتبة السيد "إبراهيم نيسن"، هذا ما لم تكن لدىّ "هرمان" فكرة عنه؛ لأن الرجل العجوز لم يعلن عنها فى أى موضع،كان الأمر كله لغزًا كبيرًا لدى "هرمان": ثقة السيد "إبراهيم ينسن" فيه، استعداد "تامارا" لمساعدته، وإخلاصها لـ"يادفيجا"، ومنذ تلك الليلة قضياها فى جبال كاتسكل لم تعد "تامارا" على صلة جسدية بـ"هرمان" البتة، وصارت علاقتهما أفلاطونية تمامًا، واستيقظ الحس التجارى عند "تامارا"، فصنفت الكتب بمساعدة "هرمان"، وحددت أسعارها، ودفعت بالكتب الممزقة إلى محل تجليد كتب لإصلاحها، وقبل عيد الفصح جهزت نسخًا من الهَجَّادة(*) والقلانس الضيقة من كل صنف ولون، فضلاً عن الشموع وصحون الكعك المسَّة وغيرها من مستلزمات العيد، كذلك حصلت على كمية من شيلان الصلاة والتمائم (التيفلين) وكتب الصلاة المطبوعة

(*) الهَجَّادة: كتاب يحكى قصة خروج اليهود من مصر ، كما تطلق "الهجادة" على مجموعة من القصص والأساطير الواردة فى التلمود بخاصة.

بالعبرية والإنجليزية معًا، فضلاً عن كتب الأولاد المقررة المستعملة فى الدراسة بوصفهم أبناء الشريعة(*)، لقد صارت مهنة بيع الكتب ـ التى طالما كررها كثيرًا "هرمان" لـ "يادفيجا"ـ حقيقة، وذات صباح أخذ "هرمان" "يادفيجا" معه إلى وسط المدينة لترى المكتبة، وأخذتها " تامارا " بعد ذلك إلى المنزل؛ إذْ كانت "يادفيجا" لا تزال تخشى أن تسافر وحدها بالقطار النفقى، وخاصة أنها كانت آنذاك فى شهور الحمل الأخيرة، لكم هو غريب أن يجلس إلى مائدة العيد فى (السِّيْدر) مع "تامارا" و"يادفيجا" يتلو معهما الهجادة، وقد أصرتا على أن يضع على راسه القلنسوة الضيقة (اليرمُلك)، وأن يؤدى مراسم الاحتفال كاملة: تلاوة البركة على النبيذ، والاقتسام، الرمزى للمقدونس والتفاح المُقطع مع البندق والقرفة والبيض والماء المالح، وطرحت "تامارا" الأسئلة الأربعة وكلها بالنسبة إليه وبالنسبة إلى "تامارا" على الأرجح لُعبة، تعبير من الحنين إلى الماضى، ولكن من ناحية أخرى، ما الذى لا يعتبر لُعبة؟ إنه أى ـ "هرمان" ـ لا يجد شيئًا "حقيقيًا" فى أى مكان، بل لا فيما يطلق عليه العلوم الدقيقة الخاصة، ويقوم البقاء على قيد الحياة فى فلسفة "هرمان" على المكر والخداع، ومن الميكروب إلى الإنسان تسود الحياة من جيل إلى جيل وهى تتسلل من أمام قوى التدمير الخفية، تمامًا كما كان يصنع مهربو تزيفكيف فى الحرب العالمية الأولى وهم يحشون أحذيتهم وستراتهم وقمصانهم الفضفاضة بالتبع، ويخفون كل صنوف البضائع المهربة حول أجسامهم، ويتسللون عبر الحدود، ويخرقون

(*) ابن الشريعة: هو الصبى اليهودى الذى يبلغ الثالثة عشرة وهى سن التكليف الدينى والمسئولية الشرعية عند اليهود ويسمى الاحتفال الذى يجرى بهذه المناسبة الـ «بارمْيسفا»

القوانين ويرشون الموظفين الرسميين، هكذا فعل كل جزء صغير من الجِبلة الأولى (البرتوبلازما) أو تَجَمّع منها وهو يشق طريقه خُفية من حُقْب إلي حُقْب، وهكذا فعلت أيضًا البكتيريا الأولى عندما ظهرت على هيئة لزجة على حافة المحيط، وهكذا المآل حين تصير الشمس رمادًا أو جمرة مطفأة ويتجمد كل آخر كائن حى حتى الموت أو يهلك على النحو الذى يمليه ختام الدراما البيولوجية كيفما تكون الطريقة، لقد تقبلت الحيوانات أخطار الوجود والحاجة الملحة إلى الفرار والتخفى والتسلل، أما الإنسان فهو وحده الذى ينشد الحقيقة المؤكدة، ولكنه بدلاً من ذلك نجح فى استكمال سقوطه، ونجح اليهودى دومًا فى شق طريقه خلسه من خلال الجريمة والجنون، فقد سرق فى كنعان ومصر، وتظاهر إبراهيم بأن سارة أخته، وكانت الألفا سنة من النفى بأكملها ـ بدءًا من الإسكندرية وبابل وروما وانتهاء بالأحياء اليهودية الفقيرة فى وارسو ولودز وفالينا ـ فعل تهرب واحد عظيم، وعلمت التوراة والتلمود إستراتيجية واحدة: اهرب من الشر، واختبئ من الخطر، وتجنب المواجهة والمكاشفة وابتعد عن قوى الكون الغاضبة قدر المستطاع كذلك علمته ألا ينظر شزرًا أو بعين الريبة أبدًا إلى فار من القتال تسلل ألى قبة أو عُلية فى أثناء تصارع جيوش بالخارج فى الشوارع؟. لقد مد "هرمان" اليهودى العصرى المبدأ خطوة واحدة: أن لم يعد لديه أدنى إيمان بالتوراة يرتكن إليه، وهو لا يخدع أو يغش وأبيمالك فحسب، بل " سارة" و "هاجر" أيضًا، ولم يبرم ميثاقًا مع الإله، ولا حاجة له إليه، وهو لا يريد أن تتكاثر بذرته كالرمال جنب البحر، وحياته كلها لعبة تسلل: المواعظ التى يكتبها للحاخام لامبرت، والكتب التى يبيعها للحاخامات ولغلمان المعاهد الدينية،

وقبوله اعتناق "يادفيجا" الديانة اليهودية، وأفضال " تامارا"عليه. وقرأ "هرمان" الهجادة وتثاءب، ورفع كأس النبيذ، وصب عشر نقط ليشير إلى الطواعين العشرة التى حلت بالفرعون، وأثنت "تامارا" على زلابية "يادفيجا" ودفعت سمكة - من نهر هدسون أو من بحيرة ما - حياتها ثمنًا، لكى يتذكر "هرمان" و"تامارا"و"يادفيجا" معجزات الخروج من مصر، ووهبت دجاجة رقبتها إحياء لذكرى أضحية عيد الفصح، وفى ألمانيا، بل فى أمريكا أيضًا نظمت الأحزاب الغازية الجديدة، وباسم "لينين" و"ستالين" هذب الشيوعيون المعلمين الكبار فى السن، وباسم "الثورة الثقافية" أبادوا قرى بأكملها فى الصين وكوريا، وفى حانات ميونخ ارتشف القتلة - الذين لعبوا بجماجم الأطفال - البيرة من الكيزان الطويلة، وانشدوا التراتيل فى الكنيسة، وفى موسكو قضوا على كل الكُتّاب اليهود، ومع ذلك أثنى الشيوعيون اليهود - فى نيويورك وباريس ويونس إيريس - على القتلة، ولعنوا قادة الأمس، الحقيقة؟ ليست فى هذا العذاب، وليست على قرص الأرض الجاثم فوق صهير اللافا المتقد، الإله؟ إله من؟ إله اليهود؟، إله الفرعون؟ ورجا "هرمان" و "يادفيجا" كلاهما "تامارا" أن تبقى هذه الليلة، ولكنها أصرت على أن تذهب إلى المنزل، ووعدتهما أن تعود فى الصباح للمساعدة فى التجهز لصلاة السيدر الثانية، وغسلت هى و"يادفيجا" الأطباق، وتمنت لها ولـ"هرمان " عيدًا سعيدًا، وانصرفت. ودخل "هرمان" غرفة النوم، واستلقى على الفراش، ولم يكن يريد التفكير فى "ماشا"، بيد أن أفكاره كانت تعود إليها، ترى ماذا تصنع؟ هل تفكر فيه؟ ورن التليفون؛ وجرى "هرمان" ليتناول السماعة، وهو يأمل أن تكون ماشا، خائفًا أن تغير رأيها، وتلعثم تقريبًا، وصاح مرحبًا

بصوت لاهث "أهلاً"، فلم يأت رد، " أهلاً، أهلاً، أهلاً" إنها حيلة قديمة من ماشا، أن تتصل تليفونيًا ولا تقول كلمة، ربما تود أن تسمع صوته فحسب، فقال:

خلى عنك الحمق، قولى شيئًا.

ومع ذلك لم يكن ثمة رد، فوجد نفسه يقول:

أنت التى تخليت، لا أنا.

فلم يرد أحد، فانتظر لحظة، وقال:

ليس بوسعك أن تجعلينى بائسًا أكثر مما أنا عليه.

ـ ٢ ـ

مرت أسابيع، وكان "هرمان" نائمًا وحلم بـ"ماشا"، ورن التليفون، فطرح عنه البطاطين، ووثب من الفراش، واستمرت "يادفيجا" فى غطيطها، وجرى إلى الردهة فانكدمت ركبته فى الظلام، فرفع السماعة، وهتف مرحبًا: " أهلاً "، فلم يأته رد، فقال:

إذا لم تردى؛ فسأنهى المكالمة.

ـ انتظر.

كان صوت "ماشا"، وقد بدا مختنقًا وهى تبتلع كلامها، ثم صار كلامها أوضح بعد قليل، إذْ قالت: أنا فى جزيرة كُونى.

- ماذا تصنعين فى جزيرة؟ أين أنتِ؟

فى فندق شاطئ مانهاتن، حاولت أن أتصل بك طوال المساء، أين كنت؟ حاولت أكثر من مرة على أنى نمت.

ماذا تصنعين فى فندق شاطئ مانهاتن ؟ هل أنت وحدك؟

أنا بمفردى، لقد عدت إليك.

- أين أمك؟

فى المنزل فى نيوجرسى.

أنا غير فاهم.

لقد رتبت لها أن تبقى هناك، سيحصل لها الحاخام على معاش أو ما شابه، لقد أخبرته بكل شىء، أنى لا أستطيع العيش بدونك، وأن أمى هى العقبة الوحيدة، فحاول أن يقنعنى بألا أفعل هذا، وأن يسوى الخلاف بيننا، ولكن المنطق لا يفيد .

أنت تعلمين أن يادفيجا على وشك أن تلد.

- سيعُنى هو بها أيضًا، إنه رجل عظيم رغم أنه مجنون، إن لديه من المشاعر ما ليس لديك ذرة منها، نعم وددت أن أحبه، بيد أنى لا أستطيع، فأنا أرتعد اشمئزازًا كلما لمسنى سيكلمك، فهو يريد أن ينهى العمل الذى بدأت فيه من أجله، إنه يحبنى، وإذا وافقت على أن أتزوج منه، سيطلق زوجته، ولكنه يتفهم مشاعرى، أنا لا أصدق البتة أن له قلبًا كبيرًا على هذا النحو.

فانتظر "هرمان" لحظة قبل أن يتكلم، ثم قال وفى صوته رجفة:

كان بوسعك أن تخبرينى بكل هذا فى نيوجرسى.

إذا لم تكن تريدنى، فلن أفرض نفسى عليك، وأقسم أنك إذا أعرضت عنى هذه المرة، فلن أنظر فى وجهك مرة أخرى، لقد بلغ كل شىء منتهاه، وأريد أن أعرف نهائيًا نعم أم لا؟

هل انقطعت عن عملك؟

انقطعت عن كل شىء، وحشوت حقيبة سفرى، وعدت إليك.

ماذا سيحدث لشقتك؟ هل ستتخلين عنها أيضًا؟

سنصفى كل شىء، لا أريد البقاء فى نيويورك، أعطانى الحاخام لامبرت كتاب تزكية رائعًا، وأستطيع الحصول على عمل فى أى مكان، لقد كان الناس فى دار النقاهة مهووسين بى، فقد أعدتهم بحق إلى الحياة، عند الحاخام دار نقاهة فى فلوريدا، وإذا أردت العمل عنده هناك فلى ذلك فى الحال مقابل مئة دولار فى الأسبوع، إذا لم تكن تحت فلوريدا فلديه كذلك دار فى كاليفورنيا، وتستطيع أنت أيضًا أن تعمل عنده، إنه فى الحقيقة ملاك من السماء.

لا أستطيع أن أترك هنا الآن، فقد يجيئها المخاض فى أى يوم.

ستكون لديك أعذار أخرى بعد أن تلد، لقد حسمت أمرى، فسأطير إلى كاليفورنيا غدًا، ولن تسمع عنى مرة أخرى أبدًا، أقسم بعظم أبى.

انتظرى دقيقة.

من أجل ماذا؟ من أجل أعذار جديدة؟ سأعطيك ساعة واحدة لتملأ حقيبتك وتأتى إلى هنا، سيُعنى الحاخام لامبرت بفواتير المستشفى المتعلقة بفلاحتك وكل شىء آخر، إنه رئيس مستشفى ولادة، نسيت اسمه، أنا لم أُخفِ شيئًا عنه، لقد صُدم، ولكنه تفهم الأمر، ربما يكون سوقيًا، ولكنه قديس فى الوقت نفسه، أم أنك وجدت محبوبة جديدة؟

ليس عندى مخبوبة جديدة، ولكن عندى مكتبة لبيع الكتب.

ماذا عندك، مكتبة؟

فقص عليها "هرمان" الحكاية باختصار.

هل عدت إلى تامارا؟

بالتأكيد لا، ولكنها ملاك أيضًا.

قدمها إلى الحاخام، فإن ملاكين قد ينجبا إليها جديدًا، أما كلانا فشيطان، ويؤذى أحدنا الآخر فحسب.

لا أستطيع أن أضع حاجاتى فى الحقيقة الآن فى منتصف الليل.

لا تضع شيئًا، فماذا عندك على أى حال؟ لقد أعطانى الحاخام قرضًا أو مُقدَّمًا اعتمادًا على ما أعمل، اترك كل شىء مثل العبد المذكور فى التوراة.

أى عبد؟ هذا يقتلها.

إنها فلاحة قوية، ستجد شخصًا ما، وتكون سعيدة، ويمكن أن تسلم الطفل للتبنى، والحاخام متصل بوكالة كهذه أيضًا، فله يد فى كل شىء، إذا وددت فسيكون عندنا طفل، لكن وقت الكلام انتهى إذا كان إبراهيم قد ضحى بإسحاق، فلك أن تضحى بعيسو، ربما أخذنا طفلها فيما بعد ليعيش معنا، ما ردك؟

ماذا تودين أن أفعل بالضبط؟

البس وتعال هنا، هذه الأشياء تُعَمل كل يوم .

إنى خائف من الإله.

إذا خفت، فابق معها، طاب مساؤك إلى الأبد.

انتظرى يا ماشا، انتظرى.

نعم أم لا.

نعم.

سأعطيك رقم غرفتى.

فوضع "هرمان" السماعة، وأنصت بانتباه. كانت "يادفيجا" لا

تزال تغط فى نومها، وبقى هو بجانب التليفون، ولم يكن يدرك كم هو مشتاق إلى "ماشا" بشدة، ووقف هنالك فى الظلام فى إذعان صامت، إذعان شخص تخلى عن إرادته، ومضى بعض الوقت قبل أن يتصرَّف، وتذكر أن عنده مِشعلاً كهربائيًا فى مكان ما فى الدرج، فوجده، وسلط ضوءه على التليفون كى يجرى مكالمة، فقد كان عليه أن يتحدث إلى " تامارا"، فأدار رقم السيد "إبراهيم نيسن"، فرن التليفون بضع دقائق حتى سمع أخيرًا صوت "تامارا" الناعس، فقال:

سامحينى يا تامارا أنا هرمان.

نعم يا هرمان، ماذا حدث؟

سأترك يادفيجا، أنا مسافر مع ماشا.

فلم تتكلم "تامارا" بعض الوقت، ثم سألته فى النهاية:

هل تعرف ماذا تفعل؟

أعرف وسأتم هذا.

المرأة التى تطلب هذه التضحيات لا تستحقها، لا أظن أنك فقدت السيطرة على نفسك بالكامل هكذا.

هذا واقع الحال.

ماذا عن المكتبة؟

إنها فى حوزتك، الحاخام الذى اعتدت أن أعمل عنده يريد أن يصنع شيئًا من أجل يادفيجا، سأعطيك عنوانه ورقم تليفونه، اتصلى به.

انتظر، سأحضر قلم رصاص وورقة.

وكان الجو هادئًا وهو يمسك السماعة وينتظر، وتوقف غطيط "يادفيجا "، وقال "هرمان" لنفسه: "ترى ما الوقت الآن؟". كان لديه عادة إحساس حاد بالوقت، وكثيرًا ما خمنه بالدقيقة تمامًا، أما الآن فيبدو أنه فقد هذه المقدرة الخاصة، وتوسل إلى الإله نفسه الذى دأب على عصيانه أن يمنع "يادفيجا" من الاستيقاظ، وعادت "تامارا" إلى التليفون، وقالت: ما الرقم؟

فأعطاها "هرمان" اسم الحاخام "لامبرت" ورقم تليفونه.

ألا يمكن أن تنتظر حتى تضع طفلها على الأقل؟

لا يمكننى الانتظار.

هرمان، إن معك مفاتيح المكتبة، فهلا فتحتها فى الصباح! سأكون هناك فى العاشرة صباحًا.

سأكون هناك.

فقالت "تامارا": طيب، لقد رتبت فراشك على الجنب الذى يريحك.

ثم وضعت السماعة.

ووقف "هرمان" فى الظلام ينصت إلى دخيلة نفسه، ثم ذهب لينظر إلى الساعة فى المطبخ، وأدهشه أن يجدها الثانية والربع فقط، وأنه لم ينم أكثر من ساعة، وإن خُيِّل إليه كأنما نام طوال الليل، وبحث عن حقيبة السفر التى سيضع فيها لوازمه وفتح درجًا باحتراس وأخرج قمصانًا قليلة وبعض الملابس الداخلية والبيجامات، وأحس بأن "يادفيجا" صاحية وأنها تتظاهر بالنوم فحسب، من ذا يدرى؟ ألا يمكن أن تكون راغبة فى التخلص منه؟ ألا

يمكن أن تكون قد ملت منه، ربما تنتظر أيضًا لتنفجر غاضبة فى آخر لحظة، وبعد أن كدس ملابسه فى الحقيبة تذكر مخطوط الحاخام، أين هو؟ وسمع "يادفيجا" تنهض من الفراش، وصاحت:

ماذا جرى؟

لا بد أن أذهب إلى مكان ما.

أين ؟ أوه، لاعليك.

ورقدت "يادفيجا" من جديد، وسمع "هرمان" السرير يُصدر صريرًا، وارتدى ملابسه فى الظلام، وعَرِق رغم إحساسه بالبرد، وسقطت الفكة من جيوب بنطلونه، واستمر يصطدم بالأثاث، ورن التليفون، فأسرع للرد عليه. كانت "ماشا" مرة أخرى، قالت: هل ستأتى أم لا؟

نعم، فأنت لم تعطينى اختيارًا.

ـ ٣ ـ

وخشى "هرمان" أن تغير "يادفيجا" رأيها فى أى لحظة وتحاول أن تمنعه بالقوة من المغادرة، ولكنها تمددت على الفراش بهدوء، وكانت صاحية خلال استعداداته بكاملها، لماذا لم تقل شيئًا؟ إنها تتصرف لأول مرة على نحو غير متوقع منذ أن عرفها، وبدا له وكأنها جزء من مؤامرة عليه، وأنها تعرف شيئًا ما غير معلوم لديه، وتحقق مرحلة أساسية من استسلامه للأمر الواقع، وهى لغز يجعله قلقًا متوجسًا، فقد تثب عليه بسكين فى اللحظة الأخيرة، وقبل أن ينصرف دخل غرفة النوم، وقال:

يادفيجا، أنا ذاهب الآن.

فلم ترد.

وأراد أن يغلق الباب بدون صوت، بيد انه أنغلق بشدة ونزل الدرج بهدوء لكيلا يوقظ الجيران، وعبر شارع مرميد، وسار فى شارع سيرف، لكم هى هادئة جزيرة كُونى ومعتمة فى الصباح الباكرا، إذْ كانت محال اللهو والتسلية مغلقة والأنوار مطفأة، وامتد الشارع أمامه خاليًا كطريق ريفى، وهو يسمع تدافع الأمواج فيما وراء الممر الخشبى على الشاطئ، وانبعثت رائحة السمك وروائح كائنات البحر الأخرى، وميّز "هرمان" بضع نجمات فى السماء، ورأى عربة أجرة، فاستوقفها، وكان كل ما معه عشرة دولارات، وفتح نافذة السيارة ليخرج دخان السيجارة، وهب النسيم، بيد أن جبهته ظلت منداة بالعرق، وأخذ نفسًا عميقًا من الهواء، ورغم برودة الهواء الليلية، فقد كان هذا الهواء يؤذن بمجئ يوم دافئ، والتمعت فكرة فى ذهنة آنذاك: أن هذا حتمًا ما يستشعره القاتل حين يهم بقتل إنسان، فغمغم، وهو يعنى "ماشا" "إنها عدوتى! إنها عدوتى! "وتملكه شعور غامض مُوحِش بأن قد خَبر هذا الحَدث فى وقت ما آخر، ولكن متى؟ أتراه قد حلم به؟ واستولى عليه إحساس قوى بالظمأ، أم تراه بالتشوق إلى ماشا؟ وتوقفت سيارة الأجرة عند فندق شاطئ مانهاتن، وكان "هرمان" قلقًا على ألا يكون مع السائق فكة عشرة دولارات، ولكن السائق أحصى له النقود فى صمت، وكان الجو هادئًا فى ردهة الفندق، والموظف غافيًا خلف النُّضّد فى مواجهة صناديق المفاتيح، ومع أن "هرمان" كان متأكدًا أن سيسأله عامل المصعد أين هو ذاهب فى هذه الساعة، فقد أصعده إلى الطابق الذى طلبه بدون كلمة، وسرعان ما عثر "هرمان" على الغرفة، فطرق الباب، ففتحت "ماشا" على الفور، وكانت ترتدى ثوبًا منزليًا

وشبشبًا، وكانت الإضاءة الوحيدة تأتى من مصابيح الشارع، وارتمى كل منهما بين ذراعى الآخر، وتشبث به وتلاحما معًا فى صمت مريع، وأشرقت الشمس ولاحظ "هرمان" ذلك بالكاد، ونزعت "ماشا" نفسها منه، وذهبت لتخفض الستائر، وغلبهما النعاس بعد أن تكلما بالكاد، ونام هو نومًا عميقًا، وصحا وبه رغبة متجددة وخوف متعلق بحلم نسيه حلم كل ما يتذكره منه تشوش، بل إن هذا التذكر المضطرب سرعان ما تلاشى، وفتحت "ماشا" عينيها، وسألت: ما الوقت ؟، ثم نامت ثانية، وأيقظها ليوضح لها أنه يجب عليه أن يكون فى المكتبة، ودخلا الحمام ليغسلا وجهيهما وأيديهما، وبدأت "ماشا" تتكلم، فقالت:

أول شىء يجب أن تعمله أن نذهب إلى شقتى، فما زال عندى بعض الأشياء هناك، ويجب أن أجمعها؛ لأن أمى لن تعود إلى هناك.

هذا يستغرق أيامًا.

كلا، ساعات قليلة، لا يمكن البقاء هنا أطول من هذا.

ومع أنه أشبع رغبته من جسدها تمامًا، فلم يستطع أن يتصور كيف احتمل هذا الافتراق الطويل عنها، وقد صارت فى تلك الأسابيع أكثر امتلاء، وبدت أكثر شبابًا، وسألته: هل ثارت فلاحتك؟

كلا، لم تقل كلمة.

وارتديا ملابسهما بسرعة، ودفعت هى فاتورة الفندق، وسارا إلى محطة القطار النفقى عند خليج شيبهد، وكان الخليج مغمورًا بضوء الشمس وحافلاً بالقوارب التى عاد كثير منها توًا من البحر المفتوح، إذ فرغت من رحلات باكورة الفجر، وقد استقر على ظهورها السمك بعيون كالزجاج وأفواه مجروحة وحراشف ملطخة بالدم،

السمك الذى كان يسبح قبل ساعات قليلة فى الماء، وكان الصيادون ـ وهم رياضيون أثرياء ـ يَزِنُون ويفاخرون بصيدهم، وكان "هرمان" كلما رأى ذَبْح حيوانات أو رأى سمكًا خطرت بباله الفكرة عينها: أن كل البشر نازيون فى سلوكهم تجاه المخلوقات، إذْ يمثل الغرور الذى يتعامل به الإنسان مع الأنواع الأخرى أشد النظريات العنصرية تطرفًا، ويجسد المبدأ القائل بأن الحق للقوة. لقد أخذ "هرمان" على نفسه مرة بعد مرة أن يكون نباتيًا، على أن "يادفيجا" لم تستمع إليه، فقد ماتا جوعًا بما فيه الكفاية فى القرية ثم فى المعسكر، وهما لم يجيئا إلى أمريكا الغنية ليموتا جوعًا من جديد، وقد علمتها الجارات أن الذبح الشعائرى والطعام الشرعى هما أساسا اليهودية، وأنه لتكريم للدجاجة أن تؤخذ إلى الجزار الشعائرى، إذْ يتلو عليها البركة قبل قطع حلقها، وتوقف "هرمان" و"ماشا" عند كافيتيريا لتناول الإفطار، وأوضح لها من جديد أنه لا يستطيع الذهاب معها إلى برونكس مباشرة؛ لأنه يجب عليه أن يلتقى "تامارا" ويعطيها مفاتيح المكتبة، واستمعت إليه "ماشا" بارتياب، وقالت:

ستقنعك بالعدول عما فعلت.

إذن، تعالى معى، سأعطيها المفاتيح ونذهب معًا .

لم تبق عندى طاقة، كانت الأسابيع فى المنزل جحيمًا متصلاً طويلاً، كانت أمى تصر كل يوم على رغبتها فى العودة إلى برونكس رغم أن لديها غرفة مريحة وممرضات وطبيبًا وكل ما يرغب فيه الشخص المريض، وعندهم هناك كنيس يصلى فيه الرجال والنساء، وفى كل مرة يزورها الحاخام يحضر لها هدية، هدية لا يمكن أن

تنال أفضل منها إلا فى السماء على أنها لا تتوقف عن اتهامى بدفعها إلى دار المسنين، وأدرك المسنون الآخرون سريعًا أنه لاتوجد طريقة لجعلها سعيدة، توجد هناك حديقة يجلس فيها كل شخص لقراءة الصحف أو لعب الورق، ولكنها تحبس نفسها فى غرفتها، والمسنون مشفقون عليها، وما قلته لك عن الحاخام هو الحقيقة، فقد عرض علىّ أن يترك زوجته من أجلى، وكل ما فعلت أن وعدته بالتفكير.

ومرة واحدة فى القطار النفقى التزمت "ماشا" الصمت، وجلست وعيناها مغمضتان، وكلما حدثها "هرمان" جفلت وكأنه أيقظها من نومها، وصار وجهها مَضنى، وهو الذى بدا فى الصباح ممتلئًا ونضيرًا، ولاحظ "هرمان" شعرة بيضاء فى رأسها. لقد أوصلت "ماشا" أخيرًا الدراما التى خَبراها معًا إلى الذروة وتبدو الأمور معها دائمًا ملتوية وعاصفة ومسرحية وداوم "هرمان" على النظر إلى ساعة يده، إذْ كان عليه أن يلتقى " تامارا " عند المكتبة فى الساعة العاشرة، على أن عشرين دقيقة انقضت، والقطار لا يزال بعيدًا عن محطته، وتوقف القطار أخيرًا عند شارع القناة، فنهض "هرمان" بسرعة، ووعد "ماشا" أن يكلمها بالتليفون، وأن يأتى إلى برونكس فور استطاعته، وصعد الدرج جريًا، كل درجتين دفعة واحدة، واندفع نحو المكتبة، ولكن "تامارا" لم تكن هناك، ولا بد أنها ذهبت إلى المنزل، وفتح الباب، ودخل ليكلم "تامارا" بالتليفون ويخبرها بوصوله، وأدار الرقم، فلم يتلق ردًا، وظن أن "ماشا" قد وصلت إلى المنزل فى هذا الوقت، فاتصل بها تليفونيًا، بيد أن التليفون رن مرات كثيرة، فلم يرد أحد هناك أيضًا، واتصل بها مرة أخرى، وكان على وشك أن يضع السماعة حين سمع صوت "ماشا"

وهى تصرخ وتبكى، ولم يستطع فى البداية أن يميز ما تقوله، ثم سمعها تولول قائلة:

لقد سُرِقت! أخذوا أشياءَنا كلها! ولم يتركوا شيئًا إلا الحيطان العارية..

متى حدث ذلك؟

ما يدرينى، أوه، ياربى، لماذا لم أُحَرق مثل كل اليهود الآخرين؟ وانفجرت فى بكاء هيسترى.

هل استدعيت الشرطة؟

ماذا يمكن أن يفعل رجال الشرطة؟ إنهم أنفسهم لصوص.

ووضعت "ماشا" السماعة، وخُيِّل إلى "هرمان" أنه ما زال يسمع بكاءَها.

ـ ٤ ـ

تُرى أين تامارا؟ لماذا لم تنتظر؟ وطلب "هرمان" رقمها من جديد، وفتح كتابًا ليهدئ من قلقه، وكان كتاب "قداسة لاوى"، وقرأ: "ذلك أن كل الملائكة والحيوانات ترتعد إزاء يوم الدينونة، ويرتعد أيضًا كل طرف فى الآدميين يوم الحساب "، وانفتح الباب، ودخلت "تامارا" المكتبة، وكانت ترتدى فستانًا بدا بالقياس إليها أطول وأوسع من اللازم، وقد بدت شاحبة ومهزولة، وتكلمت بصوت عالٍ خشن، وهى تمنع نفسها من الصراخ بصعوبة: أين كنت؟ انتظرت من العاشرة إلى العاشرة والنصف، كان عندنا زبون، أراد أن يشترى مجموعة المشنا، ولكنى لم أستطع فتح الباب، اتصلت بك تليفونيًا من شقة يادفيجا، فلم يرد أحد، ربما قتلت يادفيجا نفسها.

تامارا، إنى لم أعد طوع إرادتى.

طيب، أنت تحفر قبرك بيدك، ماشا أسوأ منك، إنى لأقول لماشا ليس لك أن تنزعى رجلاً عن امرأة فى شهور حملها الأخيرة، وعليكِ أن تكونى فاجرة، وأنانية لتفعلى ذلك.

إنها لا تملك السيطرة على أفعالها إلى حد أكبر مثلما لا أملك السيطرة على أفعالى إلى حد أبعد.

أنت تتكلم دومًا عن "حرية الاختيار" قرأت الكتاب الذى كتبته الحاخام، وخُيِّل إلىَّ أن كل عبارة مثل الأولى عن "حرية الاختيار".

لقد أعطيته "حرية اختيار" قدر ما طلب.

كفاك، إنك تجعل نفسك تبدو أسوأ مما أنت عليه، يمكن أن تسوق امرأة رجلاً إلى الجنون، عندما كنا نفر من النازيين سرق رجل بارز فى حزب صهيون العمالى زوجة أعز أصدقائه، وقد أجبرنا بعد ذلك على النوم فى غرفة واحدة، وكنا حوالى ثلاثين شخصًا، وكان عند تلك المرأة من الوقاحة ما جعلها تتمدد مع عشيقها على بعد خطوتين من زوجها، وقد مات ثلاثتهم جميعًا الآن، أين اعتزمت أن تذهب؟ لقد أنعم الله عليك بطفل بعد كل هذا الدمار، ألا يكفى هذا؟

تامارا، هذا الكلام لا نفع منه، فإنى لا أستطيع العيش بدون ماشا، ولا أملك الجراءة لقتل نفسى.

لست مضطرًا إلى قتل نفسك، سنربى الطفل، والحاخام سيحقق شيئًا، وأنا لن أكون غير فعالة تمامًا، وإذا عشت، فسأكون أمًا ثانية له، ليس معك نقود على الأرجح؟

لن أتلقى بنسًا آخر منك.

لاتتعجل، إذا كانت قد انتظرت هذا الوقت الطويل، فلتنتظر عشر دقائق أخرى، ماذا ستفعل؟

لم نقرر بعد، لقد عرض عليها الحاخام عملاً فى ميامى أو كاليفورنيا، وسأعثر أنا أيضًا على عمل، وسأرسل نقودًا للطفل.

هذه ليست المشكلة، بوسعى أن أنتقل للسكنى مع يادفيجا، ولكن المسافة أبعد من اللازم عن المكتبة، ربما أحضرها إلى هنا للعيش معى، عمى وزوجته يكتبان رسائل حماسية للغاية، وأشك فى أنهما سوف يعودان، وقد زار فعلاً كل القبور المقدسة، إذا كان لايزال للأم راحيل مكانة عند الإله، فقد تتشفع لهما عنده بالتأكيد، أين تسكن ماشا؟

لقد أخبرتك فى إست برونكس، لقد سُرِقت منذ قريب، أخذوا كل شىء.

نيويورك مملوءة باللصوص، ولكنى لست قلقة على المكتبة، منذ أيام قليلة حين كنت أغلق المكتبة سألنى جارى الذى عنده دكان غَزْل عما إذا كنت خائفة من اللصوص، فقلت له إنى أخاف فحسب أن يقتحم مؤلف بيدى ما المكتبة بالليل، ويضع فيها كتبًا أكثر.

تامارا، يجب أن أذهب، دعينى أقبلك، تامارا، إنها النهاية بالنسبة إلىّ؟.

وأمسك "هرمان" حقيبة السفر، وأسرع خارجًا من المكتبة، وفى هذا الوقت من النهار كان القطار النفقى خاليًا تقريبًا، ونزل فى محطته، وتوجه إلى الشارع الجانبى الذى تسكن فيه "ماشا"، وكان مفتاح الشقة لا يزال معه، ففتح الباب، فرآها واقفة فى منتصف الغرفة، وبدا أنها قد هدأت، وكل الخزانات مفتوحة والأدراج مجرورة، وبدت الشقة وكأنها فى غَمْرة الإخلاء مع وجود الأمتعة المحزومة، ومازال الأثاث فقط فى انتظار نقله، ولاحظ "هرمان" أن

اللصوص قد فكوا المصابيح الكهربائية أيضًا، وأغلقت "ماشا" الباب خلفه لكيلا يدخل الجيران، ودخلت غرفته وجلست على السرير، وقد سرق اللصوص المخدة والملاءة معًا، وأشعلت هى سيجارة، فسألها "هرمان":

بماذا أخبرت أمك؟

بالحقيقة.

ماذا قالت؟

العبارات المألوفة: هذا من دواعى أسفى، ستتركيننى، وباقى هذا الكلام، إذا سافرت، فستتخلين عنى، الحاضر فقط مهم عندى، هذه السرقة ليست شيئًا عاديًا، إنها تحذير لنا: أن يجب ألا نبقى هنا أطول من ذلك، التوارة تقول: "عريان خرجت من رحم أمى، وعريان أعود إلى هناك"، لماذا "هناك"، فنحن لا نعود إلى أرحام أمهاتنا.

الأرض هى الأم.

نعم، ولكن فلنحى إلى أن نعود إليها، يجب أن نقرر الآن فورًا إلى أين نذهب ـ كاليفورنيا أم فلوريدا، يمكن أن نذهب بالقطار أو الأوتوبيس، الأوتوبيس أرخص، ولكنه يستغرق أسبوعًا للذهاب إلى كاليفورنيا، وتصل إلى هناك ميتًا أكثر من أن تصل حيًا، أرى أنه يجب أن نذهب إلى ميامى، سأكون قادرة على أن أبدأ فى العمل بدار النقاهة فورًا، إنه موسم ركود، وكل شىء بنصف الثمن، والجو حار، ولكن أمى تقول: فى جهنم سيكون أشد حرًا.

متى يغادر الأتوبيس؟

سأجرى مكالمة وأتحقق، فلم يسرقوا التليفون، تركوا حقيبة سفر قديمة أيضًا، وهذا كله ما نحتاجه، تجولنا عبر أوربا بهذه الطريقة، بل لم يكن عندنا حقيبة سفر، وإنما صُرة فقط، لاتبتئس هكذا! ستجد عملاً فى فلوريدا، بوسعك أن تُعَلِّم، إذا لم تكن تريد الكتابة عِند الحاخام، إذْ يحتاج كبار السن إلى شخص يساعدهم على دراسة الأسفار الخمسة أو بعض الشروح، إنى متأكدة أنك تستطيع أن تكسب أربعين دولارًا فى الأسبوع على الأقل، مع المئة التى سأتقضاها نعيش ملوكًا.

طيب إذن، الأمر محسوم.

لن آخذ كل هذا السَّقط على أى حال ن لعلها نعمة فى ثوب نقمة أن سُرِقنا!

وصارت عينا "ماشا" مفعمتين بالابتهاج والضحك، وأضاءت الشمس فوق رأسها، وأكسبت شعرها لونًا رماديًا، وازدانت الشجرة خارج البيت من جديد بأوراق صقيلة لامعة، وهى التى ظلت مسربلة بالثلج طوال الشتاء، فنظر إليها "هرمان" باستغراب وتعجب، فقد كان واثقًا فى كل شتاء بأن الشجرة التى تقوم وسط زبالة وعُلب صفيح تذوى وتموت فى النهاية، وتقصف الريح بعض غصونها، وتتبول الكلاب الضالة على جذعها، الجذع الذى بدا آخذاً فى النحول ويزداد لحاؤه عُجزًا وتشوهًا بمرور الوقت، ويحفر أولاد الجيران عليه الحروف الأولى من أسمائهم تحتويها قلوبهم، بل بذاءاتهم أيضًا، ولكن حين يأتى الصيف تكتسى الشجرة ـ مع ذلك بالورق الأخضر، وتصدح الطيور على نمائها الكثيف، وبهذا تؤدى مهمتها دون أن تقلق أبدًا من أن يُنهى وجودها منشار أو بلطة،

ولاعقب سيجارة مما تلقيه "ماشا" عادة من النافذة على لحائها، وسأل "هرمان"ماشا":

هل يملك الحاخام دار نقاهة فى المكسيك؟

لماذا المكسيك؟ انتظر هنا، سأعود حالاً، فقبل أن أترك هنا اعطيت بعض الملابس للتنظيف الجاف، وأخذت بعض ملابسك للمغسلة الصينية، وما زال عندى بضعة دولارات فى المصرف أود أن أسحبها قبل أن أسافر سيستغرق هذا حوالى نصف ساعة.

وانصرفت "ماشا"، وسمع "هرمان" غلقها للباب، وبدأ البحث عن كتبه، والتقط قاموسًا سيحتاجه إذا كان عليه أن يستمر فى العمل عند الحاخام، ووجد كل صنوف الدفاتر مستقرة فى الدرج، بل وجد أيضًا قلم حبر قديمًا تغاضى عنه اللصوص، وفتح "هرمان" حقيبة السفر وحشاها بالكتب، ولم يستطع غلقها، وكانت لديه رغبة فى مكالمة "يادفيجا" بالتليفون، وأدرك أنها رغبة غير مفهومة، فتمدد على السرير، ونام وحلم، وحينما صحا من نومه لم تكن "ماشا" قد عادت بعد، وغابت الشمس وأظلمت الغرفة، وفجأة سمع ضوضاء خارج باب الشقة وخطى أقدام وصيحات، وبدا وكأن شيئًا ثقيلاً يُجرّ صعودًا، فنهض واقفًا، وفتح باب الشقة، فألفى رجلاً وامرأة، كانت "شيفرابؤه" فيما بينهما، نصف محمولة ونصف مُنَقادة، ووجها يعلوه المرض والتبدل، وصاح الرجل:

لقد أغمى عليها فى سيارتى الأجرة، هل أنت ابنها؟

وسألت المرأة : أين ماشا؟

فتعرف عليها "هرمان" بوصفها جارة، وأجاب:

ليست فى البيت.

استدع طبيبًا.

فجرى "هرمان" هابطًا الدرجات القليلة التى تفصله عن "شيفرابؤه"، فحدقت هى إليه بنظرة حادة حين حاول أن يساعدها، فسألها:

هل استدعى طبيبًا؟

فهزت "شيفرابؤه" رأسها، وتراجع إلى داخل الشقة، فناوله سائق عربة الأجرة كيس نقودها وحقيبة صغيرة لم يرها من قبل، ودفع للسائق الأجرة من نقوده الخاصة، وقاد ثلاثتهم "شيفرابؤه" إلى غرفة النوم السابحة فى الظلال، وضغط زر النور، على أن اللصوص كانوا قد نزعوا مصباح هذه الغرفة أيضًا، وتساءل السائق عن سبب عدم إضاءة أحد النور، وخرجت المرأة لتحضر مصباحًا كهربيًا من شقتها، وأخذت "شيفرابؤه" تنشج قائلة: ما سبب هذه الظلمة هنا؟، أين ماشا؟ واويلتاه على حياتى البائسة!

وأسند "هرمان" "شيفرابؤه" من ذراعها وكتفها، وفى هذه الأثناء عادت المرأة وثبتت المصباح، ونظرت "شيفرابؤه" إلى سريرها، وسألت بنبرة فيها شىء من التعافى تقريبًا: أين أغطية وفرش السرير؟

فقالت الجارة: سأحضر لها مخدة وملاءة .

وأردفت: اجعلها تستلق على السرير كما هو على حاله الآن.

فقاد "هرمان" "شيفرابؤه" إلى السرير، وأحس بجسمها ينتفض، وتشبثت به وهو يرفعها، ثم وهو يُنزلها على الحشية، وتأوهت، وازداد وجهها ذبولاً وتغضنًا، ودخلت المرأة بمخدة وملاءة قائلة:

يجب أن نستدعى سيارة إسعاف فى الحال.

وكان ثمة وقع أقدام على الدرج من جديد، ودخلت "ماشا" وهى تحمل فى يد ملابس على مشاجب، وصُرة الغسيل فى اليد الأخرى، وقبل أن تدخل الغرفة، قال "هرمان" من خلال الباب المفتوح: أمك هنا.

وجمدت "ماشا" فى مكانها، وقالت:

عادت جريًا، أليس كذلك؟

إنها مريضة.

وناولت "ماشا" "هرمان" الملابس والصُرة، فوضعهما على منضدة المطبخ، وسمع "ماشا" وهى تصيح فى أمها غاضبة، وأدرك أنه يجب أن يتصل تليفونيًا بطبيب، ولكنه لم يكن يعرف واحدًا ليكلمه، وخرجت المرأة من الغرفة وهى تبسط يدها بحركة متسائلة، وذهب "هرمان" إلى غرفته، وسمع المرأة وهى تشكو لشخص ما فى التليفون:

رجل شرطة؟ أين أجد شرطيًا ؟ المرأة قد تموت فى أثناء هذا الوقت.

وصرخت "ماشا" : طبيب، طبيب، إنها تموت، إنها تقتل نفسها لتغيظنى فقط، الكلبة.

وأطلقت "ماشا" ولولة شبيهة بتلك التى سمعها "هرمان" فى التليفون قبل ساعات قليلة حين أخبرته بالسرقة، وبدا الصوت خلاف صوتها المعهود: بدا كصوت الهرة، وبدائيًا، وصار وجهها متقبضًا وملتويًا، وراحت تشد شعرها وتدق الأرض بقدميها، ووثبت على "هرمان" كأنما تهاجمه، وألصقت الجارة السماعة بصدرها وهى مصعوقة، وصرخت "ماشا":

هذا ما تريدونه، أعداءً! أعداء دمويون!

وشهقت، وانثنت وكأنها على وشك أن تسقط، وألقت الجارة السماعة من يدها وقبضت على كتفي "ماشا"، وهزتها، كمن تخلص طفلاً من غُصة أصابته، وعلا صوت "ماشا" بالصراخ:

- قتلة.

■■■

الفصل العاشر

وصل الطبيب، وهو الذى زار "ماشا" حين ظنت أنها حامل، وأعطى "شيفرابؤه" حقنة مسكنة للألم، ثم جاءت سيارة إسعاف لنقلها إلى المستشفى ورافقتها "ماشا"، وبعد دقائق ضبط شرطى على الباب، فأخبره "هرمان" أن "شيفرابؤه" قد نُقلت إلى المستشفى، بيد أنه قال إن مجيئه متعلق بالسرقة، وسأل "هرمان" عن اسمه وعنوانه، وعن علاقته بالعائلة؛ فتلعثم الأخير، وامتقع لونه، فرمقه الشرطى بارتياب، وسأله عن تاريخ قدومه إلى أمريكا وعما إذا كان مُواطنًا، وكتب شيئًا ما فى دفتر وانصرف، واستردت الجارة المخدة والملاءة، وتوقع "هرمان" أن تتصل به "ماشا" تليفونيًا من المستشفى، ولكن مرت ساعتان والتليفون صامت، وأقبل المساء بدون نور عدا غرفة النوم، ففك المصباح الكهربى من غرفة النوم ليأخذه إلى غرفته، على أنه ارتطم بعضد الباب، وسمع شُعيرة المصباح تخشخش، وثبته جنب السرير، ولكنه لم يعد يضىء، فتوجه إلى المطبخ للبحث عن أعواد ثقاب وشموع، فلم يجد شيئًا منها، فوقف

عند النافذة يتطلع إلى الليل، حيث تقف الآن سوداء فى مواجهة العتمة الشجرة التى كانت كل ورقة فيها تعكس ضوء الشمس منذ ساعات قليلة، وتلألأت نجمة وحيدة فى سماء مُشعة مائلة إلى الحمرة، وسارت قطة عبر الفناء بخطى حذرة، وزحفت فى الحيز الواقع بين الحديد الخردة والنفاية، وترددت على البعد صيحات وضوضاء حركة المرور وأحس "هرمان" بانقباض وحزن أشد مما أحسه من قبل، وأنه لن يستطيع البقاء بمفرده طوال الليل فى هذا المنزل المظلم المُخَرَّب، وأن لو ماتت "شيفرابؤه"، فقد تجىء روحها تَسكُنه، ولذا قرر الخروج من المنزل والحصول على مصابيح الكهربية، فضلاً عن أنه لم يأكل شيئًا منذ طعام الإفطار، وغادر الشقة، ولحظة أن انغلق الباب أدرك أنه نسى مفتاحه، وفتش فى جيوبه، وهو يعلم أنه لن يجده، وأنه لا بد وضعه على المائدة، وبدأ التليفون يرن داخل الشقة، فدفع الباب، بيد أنه كان مغلقًا بإحكام، ولم يتوقف الرنين، ودفع الباب بكل قوته، فلم يتزحزح، وأستمر التليفون فى الرنين، "إنها ماشا! ماشا! "، ولم يتذكر "هرمان" المستشفى التى نقلوا إليها "شيفرابؤه"، وتوقف التليفون عن الرنين، على أنه ظل واقفًا عند الباب، وتساءل هل يحاول أن يكسره؟ وكان واثقًا بأن التليفون سيرن مرة أخرى، وفور وصوله إلى باب الشارع استأنف التليفون الرنين من جديد، واستمر دقائق عديدة فتخيل هو صوت "ماشا" الغاضب بشدة فى الرنين المتواصل المُلِحّ، وأنه يرى وجهها، متقبضًا ملتويًا من شدة الألم، ولم يكن ثمة فائدة من العودة؛ فسار باتجاه شارع ترمونت العريض المشجر ووصل إلى الكافيتيريا التى تعمل بها "ماشا" أمينة صندوق، وقرر أن يتناول فنجان قهوة، ثم يعود وينتظر على الدرج ريثما تعود هى، وتوجه إلى

النَّضد، ومس جيب صدريته، فأحس بمفتاح، ولكنه كان مفتاح شقته فى بروكلين، وبدلاً من أن يطلب القهوة فكر فى أن يتصل تليفونيًا بـ "تامارا"، على أن كل أكشاك التليفون كانت مشغولة، وحاول أن يصبر، ومرت بذهنه خاطرة، "حتى الخلود لا يستمر إلى الأبد، وإذا لم يكن للكون بداية، فإن خلودًا واحدًا إذن قد انقضى الآن"، وابتسم "هرمان" لنفسه، فقد عاد إلى تناقضات الفيلسوف "زينون"، وأنهى أحد المتحدثين الثلاثة مكالمته، فشغل " هرمان" مكانه بسرعة فى الكشك، وأدار رقم "تامارا"، بيد أن أحدًا لم يرد، فأسترد قطعة العملة ـ الدايم، وأدار بدون تفكير رقم شقته فى بروكلين، فقد أراد أن يسمع صوتًا مألوفا لديه، حتى إن كان مناوئًا له، على أن "يادفيجا" لم تكن هى أيضًا فى المنزل، وترك هو التليفون يرن عشر رنات، وجلس إلى منضدة خالية، وقرر أن ينتظر نصف ساعة، ثم يكلم شقة "ماشا"، وأخرج قطعة ورق من جيبه، وحاول أن يحسب المدة التى يمكن له هو وماشا أن يعيشا بالنقود التى معهما، وكان جهدًا عبثيًا؛ لأنه لم يكن يعرف ثمن تذاكر الأتوبيس، فأخذ يرسم و"يشخبط" بطريقة غير واعية، وينظر إلى ساعته كل بضع دقائق، كم يحصل على مقابل لها إذا كان عليه أن يبيعها ؟ لا أكثر من دولار، وجلس هنالك وهو يحاول أن يقدِّر الأمور، لقد توهم فى مخزن التبن أن تغيرًا أساسيًا سيحدث فى العالم، ولكن شيئًا لم يتغير الأساليب ذاتها، العبارات نفسها، الوعود الزائفة عينها، هى هى، والأساتذة مستمرون فى تأليف الكتب عن معتقدات القاتل، وعلم اجتماع التعذيب، وفلسفة الاغتصاب والمخترعون يبتكرون أسلحة فتاكة جديدة، والكلام فى الثقافة والعدل أكثر إثارة للاشمئزاز من الكلام عن الهمجية والظلم، وغمغم "هرمان": أنا

غارق فى فضلات ذبيحة، وأنا نفسى فضلات ذبيحة، لا مخرج، أن أعلم؟ وماذا هناك كى أعلمه؟، ومن أكون أنا كى أُعلم؟ وأحس بالغثيان مثلما أحس فى أمسية حفل الحاخام، وبعد عشرين دقيقة أدار رقم "ماشا" فردت، وعرف من صوتها أن "شيفرابؤه" قد ماتت، فقد كان خاليًا من النغمة وعلى العكس تمامًا من الطابع الدرامى المبالغ فيه الذى تروى به أمور الحياة العادية إلى أبعد الحدود، ومع أنه لم يسألها من قبل عن أمها، فقد سألها: كيف حال أمك؟

فقالت: لم يعد لى أم.

فصمت كلاهما.

وسألت "ماشا" بعد لحظة:

أين أنت؟ ظننتك ستنتظرنى.

يا إلهى، متى حدث هذا؟

ماتت قبل أن تصل إلى المستشفى، كانت آخر كلماتها: "أين هرمان"؟ "أين أنت"؟، عد حالاً.

فاندفع "هرمان" خارجًا من الكافيتيريا، وقد نسى أن يدفع الحساب لأمينة الصندوق، فصاحت فى أثره، فرماه لها

ـ ٢ ـ

توقع "هرمان" أن يجد الجيران مع "ماشا"، على أن لم يكن ثمة أحد، وكانت الشقة مظلمة مثلما تركها، فوقفا متقاربين معًا فى صمت، ثم قال:

نزلت لشراء مصابيح كهربية، وحَرَمْتُ نفسى من دخول الشقة، إذْ نسيت المفتاح بالداخل، هل لديك شمعة فى مكان ما؟

لِمَ؟، نحن لانحتاجها.

وقادها إلى غرفته، وكانت مضاءة أكثر قليلاً هناك، وجلس هو على كرسى، وجلست هى على حافة الفراش، وسألها:

هل يعرف أحد الآن؟

لا أحد يعرف، ولا أحد يهتم.

هل أدعو الحاخام؟

فلم ترد "ماشا"، وظن أنها لم تسمعه، وهى فى حزنها، على أنها قالت فجأة:

هرمان، إنى لم أعد أحتمل، هذه الأشياء تستلزم مراسم وتتطلب نقودًا أيضًا.

أين الحاخام؟ أمازال فى المنزل؟

لقد تركته هناك، كان من المفروض أن يسافر إلى مكان ما، لا أتذكر المكان .

سأحاول الوصول إليه فى المنزل، هل عندك ثقاب؟

أين حقيبتى؟

إذا كنت قد أحضرتُها إلى المنزل، فسأجدها.

ونهض "هرمان" للبحث عن الحقيبة، واضطر إلى أن يتحسس طريقه كالأعمى، وجَسَّ سطح المائدة والكراسى فى المطبخ، وأراد أن يدخل غرفة النوم، ولكنه خاف، "تُرى هل تركت ماشا الحقيبة فى المستشفى"؟ وعاد إلى "ماشا".

لم أجدها.

كانت لدىّ هنا، أخرجت منها مفتاح الباب.

ونهضت "ماشا" واقفة، وتخبط كلاهما فى العتمة هنا وهناك، وسقط كرسى فالتقطته "ماشا"، وتحسس "هرمان" طريقه إلى الحمام، وعلى غير العادة أدار المفتاح الكهربى، فأضاء النور، فرأى حقيبة "ماشا" على سَبَت الغسيل فقد غفل اللصوص عن المصباح الكهربى الذى يعلو خزانة حفظ الأدوية، فالتقط الحقيبة، وتعجب من ثقلها، ونادى على "ماشا" أن وجدها، وأن النور يعمل فى المطبخ، وألقى نظرة على ساعة يده، فألفاها متوقفة، إذْ نسى أن يملأها، وجاءت "ماشا" إلى المطبخ، وقد تغير وجهها، وتشعّث شعرها، وضيّقت عينيها وهى تنظر إليه، فناولها "هرمان" الحقيبة، وهو لا يستطيع أن ينظر إليها مباشرة، وأدار وجهه كاليهودى الورع الذى يتعين عليه ألا ينظر إلى إمرأة، وقال :

يجب أن أضع هذا المصباح قُرب التليفون.

لِمَ؟ طيب ...

وفك "هرمان" المصباح بعناية، وحمله لصق جسمه، وكان ممتنًا لـ "ماشا" أن لم توبخه أو تبكى أو تنفجر غاضبة، ووضع المصباح فى تثبيتة الأرضية، واستشعر لحظة من الرضا حين أضاء، واتصل بالحاخام تليفونيًا، فردت امرأة قائلة:

الحاخام لامبرت ذهب إلى كاليفورنيا.

هل عندك فكرة متى يعود؟

لا أقل من أسبوع.

وأدرك "هرمان" ما ينطوى عليه ذلك، فلو أنه كان هنا لاهتم بالمراسم ولتولَّى نفقات الجنازة على الأرجح، وتردد "هرمان" ثم

سألها عن المكان الذى قد يكون وصل إليه، فقالت المرأة بطريقة رسمية:

لا أستطيع أن أخبرك به.

وأطفأ "هرمان" النور، وهو لا يدرى سببًا لما صنعه، وعاد إلى غرفته، وكانت "ماشا" جالسة وحقيبتها على ركبتيها، وقال:

- الحاخام توجه إلى أمريكا.

طيب ....

وسأل "هرمان" "ماشا" ونفسه معًا من أين نبدأ؟

فقد ذكرت "ماشا" مرة أنها لا تنتمى هى أو أمها إلى جمعية أوكنيس يدير شئون دفن الأعضاء، ومن ثم وجب سداد مقابل كل شىء: الجنازة، مقطعة أرض المقبرة، وعلى "هرمان" أن يقابل الموظفين الرسميين وطلب المساعدات وتأخير الدفع وإعطاء الضمانات، ولكن مَنْ ذا الذى يعرفه؟، وتحولت أفكاره إلى الحيوانات، فهى تحيا بدون تعقيدات ولا تثقل على أحد حين يموت، وقال : "ماشا:"، أنا لا أود أن أحيا.

لقد وعدتنى مرة أن نموت معًا، فلنفعل ذلك الآن، معى حبوب لكلينا.

فقال وهو لا يدرك إن كان يعنى ما يقوله حقًا:

أجل، فلنتناولها.

إنى أحتفظ بها فى حقيبتى، كل ما نحتاجه كوب ماء.

هذا ما نملكه.

وضاق حلقه، وهو يتفوه بالكلمات فى صعوبة، واستعصى على فهمه الطريقة التى وقع بها الأمر هكذا، وأوصلت كل شىء إلى الذروة، وسمع الضوضاء الناجمة من احتكاك وصلصلة المفاتيح وقطع النقود وأحمر الشفاه عند تفتيش "ماشا" لحقيبتها، وفكر: "إنى أدرك دومًا أنها ملاك موتى"، وسمع نفسه يقول: قبل أن أموت أود أن أعرف الحقيقة.

بشأن ماذا؟

بشأن ما إذا كنت مُخلصة لى منذ أن كنا معًا.

هل كنت مُخلصًا لى؟ إذا أخبرتنى بالحقيقة، فسأخبرك بها أنا أيضًا.

سأقول الحقيقة.

أنتظر، أود الحصول على سيجارة.

وتناولت "ماشا" سيجارة من علبتها، وفعلت كل شىء ببطء، وسمعها وهى تدير طرف السيجارة بين إبهامها وسبابتها، وأشعلت عود ثقاب وعلى وهج لهبه رمقته متسائلة، وشهقت، ثم زفرت ونفخت فى اللهب، فتوهج رأس عود الثقاب للحظة، وأنار ظفرها، وقالت:

طيب، فلنسمع.

واضطر "هرمان" إلى بذل الجهد كى يتكلم وهو يقول:

مع تامارا فقط، هذا كل ما فى الأمر.

متى؟

كانت فى فندق بجبال تسكاك.

أنت لم تذهب قط إلى تسكاك.

فقال "هرمان":

أخبرتك أنى ذاهب إلى أتلانتيك سيتى مع الحاخام لامبرت لحضور مؤتمر، والآن جاء دورك.

فضحكت "ماشا" ضحكة قصيرة، وقالت:

ما فعلته أنت مع زوجتك فعلته أنا مع زوجى.

إذن هذا معناه أنه قد قال الحقيقة؟

فى تلك المرة نعم، فقد ذهبت إليه لأطلب منه الطلاق، فأصر، أخبرنى أن هذه هى الطريقة الوحيدة للحصول عليه.

لقد أقسمت أيمانًا مغلظة أنه يكذب.

لقد أقسمُتَ كذبًا.

وجلسا كل منهما صامتًا مع خواطره، وقال "هرمان":

لا داعى للموت الآن.

ماذا تريد أن تصنع ؟ أن تتركنى؟

فلم يرد، وجلس هنالك، وذهنه خال، ثم قال :

ماشا، يجب أن نذهب الليلة.

النازيون يسمحون أيضًا لليهود بدفن ميتهم.

■■■

خاتمة

فى الليلة السابقة على شهر شباط وضعت "يادفيجا" ابنة، وكان الحاخام قد اقترح تسمية المولود "ماشا" إن كان بنتًا، وتولى أمر كل شىء: دفن "شيفرابؤه" ودفن "ماشا"، ونفقات المستشفى لـ "يادفيجا"، واشترى عربة طفل وبطاطين وكسوة ولوازم مولود، بل ولُعَبًا أيضًا، وقرر السيد "إبراهيم نيسن" و"شيفا هاداس" البقاء فى إسرائيل فتولت "تامارا" أمر شقة عمها، ودكان بيع الكتب على نحو دائم، ولم تُرِد أن تحيا "يادفيجا" أن تعيش وحيدة، فرتبت لها وللطفلة أن تنتقلا للسكنى معها، وكانت تعمل طوال اليوم فى الدكان، أما "يادفيجا" فتولت شئون المنزل، وقد تركت "ماشا" رسالة قصيرة كالمعتاد: أن لا أحد مسئولاً عن موتها، وطلبت أن تُدفن بجانب أمها، وبمعاونة الحاخام فى كاليفورنيا دفنتا جنبًا إلى جنب فى جبانة المعوزين، ومر يومان دون أن يعرف أحد ما حدث، وطبقًا للقصة المنشورة فى صحيفة ييدية فإن "ماشا" ظهرت فى حلم لـ "ياشاكوتيك" الممثل وأخبرته بموتها، فاتصل تليفونيًا بـ "ليون

تورتشينى" فى صباح اليوم التالى، وكان لا يزال معه مفتاح شقتها، فذهب إلى هناك وعثر على جثمانها، وكان هو الذى اتصل بالحاخام فى كاليفورنيا، وهى قصة فندتها جارة لـ "ماشا" فى خطاب كتبته للصحيفة فى وقت لاحق وأكدت فيه أنها كالمت المستشفى تليفونيًا، فعلمت أن "شيفرابؤه" قد ماتت، ولم يطالب أحد بجثمانها، فاستدعت حارس المبنى، وفتح الشقة، ووجدا "ماشا" ميتة، وصار الحاخام زائرًا مألوفًا لـ "تامارا" و "ماشا" الصغيرة، وكثيرًا ما أوقف سيارته أمام دكان "تامارا" ودخله ليتصفح الكتب، وكان يرسل الزبائن وأناسًا يعطونها الكتب مجانًا أو يتقاضون مقابلاً زهيدًا لها، وطلب شاهدًا مشتركًا للأم وابنتها من صانع نُصُب تذكارية فى شارع القناة، وكان دكانه يقع على بعد مسافة بناية واحدة من دكان "تامارا" وأدرجت "تامارا" اسم "هرمان" مرات عديدة فى أعمدة الأشخاص المفقودين التى تُنشَر فى الصحف اليدية، ولكن دون نتيجة، فاعتقدت "تامارا" أن "هرمان" قتل نفسه أو اختبأ فى مكان ما هو نسخة مُعدلة لمخزن التبن البولندى. وذات يوم أخبر الحاخام "تامارا" أن الحاخامات مجتمعون قد خففوا القيود بسبب المحرقة لكى تتزوج الزوجات المتروكات مرة ثانية، فردت:

ربما ارتبط فى الآخرة بـ "هرمان".

■■■

المترجم

سمير أبوالفتوح

- نشرت أعماله القصيرة المؤلفة فى جريدة المساء وفى عدد من المجلات العربية : (أكتوبر) و(الفيصل) و (نادى القصة).
- نشرت ترجماته للعديد من القصص فى المجلات العربية: (الكويت) و (العربى) و (شؤون أدبية) و (الثقافة الأجنبية). و (الكلمة المعاصرة) و (أدب ونقد).

من ترجماته:

- سقوط المطر (مجموعة قصصية) ـ سلسلة الألف كتاب بالهيئة المصرية العامة للكتاب، وأعيد نشرها بمكتبة الأسرة مرتين.
- سوشا (رواية) لإسحق باشيفيس سنجر ـ سلسلة الجوائز بالهيئة المصرية العامة للكتاب.
- كازانوفا (رواية) لأندروفر ميللر ـ «سلسلة الجوائز) بالهيئة المصرية العامة للكتاب.

- العبد (رواية) لإسحق باشيفيس سنجر - «سلسلة الجوائز» بالهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حميان الإبله (رواية قصيرة) لإسحق باشيفيس سنجر مجلة أدب ونقد.
- علماء ومخترعون (كتاب للأطفال) كتاب العربي الصغير.

قيد النشر:

- الضيعة (رواية) لإسحق باشيفيس سنجر.
- فرديناند ماجلانى (كتاب للأطفال).
- حين دعا إلى إحياء مكتبة الاسكندرية القديمة - «جريدة الأهرام» فى ٩ أغسطس ١٩٨٤ - لاقت دعوته استجابة سريعة منم السيد محمد عبد الحميد رضوان وزير الدولة للثقافة حينذاك «الأهرام» فى ١٥ أغسطس ١٩٨٤ - وكذا أساتذة جامعة الإسكندرية إذ أختاروا مكتب الأستاذ أحمد بهاء الدين مقرًا لأول اجتماع لجنة تحضيرية لبحث موضوع إعادة بناء المكتبة.

الأهرام ٢٧ / ٦ / ١٩٨٥.

صدر من هذه السلسلة

1 ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

2 ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

3 ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

4 ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

5 ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

6 ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

7 ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

8 ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

9 ـ «العاشقات».. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

10 ـ «نوّة الكرم».. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

11– «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالڤينو».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

12– «القلعة البيضاء».. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

13 – «أين تذهب طيور المحيط».. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

14 ـ «قرية ظالمة».. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

15 ـ «الرجل البطىء».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.

16 ـ «طحالب».. للكاتبة الجنوب إفريقية «ماري واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

17 ـ «شوشا».. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

18 – «شارع ميجل».. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

19 ـ «الحياة الجديدة».. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

20 ـ «عشر مسـرحيات مختـارة».. للكاتب الإنجـليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

21 ـ «الآخر مثـلى».. للكـاتب البرتـغالى «جوزيه سـاراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

22 ـ «المستبعدون».. للكـاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية.. جائزة نوبل.

23 ـ «الأنثى كنوع».. للكـتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

24 ـ «ثلاثة أيام عند أمى».. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

25 ـ «إسطـنبول.. الذكريـات والمدينة».. للـكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

26 ـ «الـطـوف الحـجـرى».. لـلـكـاتب الـبـرتـغـالى «جـوزيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

27 ـ «نـار وريـبة».. لـلكـاتبـة الألمانـية «بـريچـيتّه كـروناور».. مختارات..جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

28 ـ «الذكـريـات الصـغـيـرة».. للـكـاتب الـبـرتـغـالى «جوزيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

29 ـ «إليزابيث كُسّتلّو».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

30 ـ «السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود».. للكاتبة الألمانـية «بـريجـيته كـروناور» .. قـصـص.. جائـزة چورج بوشنر الكبرى.

31 ـ «حين تقطعت الأوصال».. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

32 – «مارتش».. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس».. رواية.. جائزة البوليتزر.

33 – «اغتنم الفرصة».. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

34 – «البصيرة».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

35 – «بريك لين».. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

36 – «بريد بغداد».. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

37 – «عن الجمال».. للكاتبة البريطانية «زادى سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.

38 – «العار».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

39 – «قبلات سينمائية».. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

40 ـ «هكذا كانت الوحدة».. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

41 ـ «الشلالات».. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

42 ـ «العشب يغنى».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

43 ـ «العالم».. للكاتب الإسباني «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

44 ـ «ميراث الخسارة».. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. رواية.. جائزة البوكر.

45 ـ «الطفل الخامس».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

46 ـ «بن يجوب العالم».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

47 ـ «ثورة الأرض».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

48 ـ «ملك أفغانستان لم يزوجنا».. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

49 ـ «الكهف».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

50 ـ «يوميات عام سيئ».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

51 ـ «كازانوفا».. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

52 ـ «انقطاعات الموت».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

53 ـ «العم الصغير».. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب المنفى.

54 ـ «اللعب مع النمر».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

55 ـ «فى أرضٍ على الحدود».. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

56 ـ «الإرهابية الطيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

57 ـ «المسرحيات الكبرى» جـ1.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

58 ـ «المسرحيات الكبرى» جـ 2.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

59 ـ «نصف شمس صفراء».. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى .. رواية..جائزة الأورنج.

60 ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

61 ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

62 ـ «الحوت».. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

63 ـ «رقة الذئاب».. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

64 ـ «رحلة العم مآ».. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

65 ـ «مسيرة الفيل».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

66 ـ «كرسى النسر».. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

67 ـ «داى».. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

68 ـ «الحب المدمر».. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

69 ـ «أين نذهب يابابا»؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

70 ـ «نداء دينيتى».. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

71 ـ «صخب الميراث».. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

72 ـ «المؤتمر الأخير».. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

73 ـ «كتاب الرسم والخط».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

74 ـ «كلُّ رجل».. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

75 ـ «نُريد أن نتحدث عن كيڤين».. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورنج.

76 ـ «ألم فذ».. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

77 ـ «أناقة القنفذ».. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

78 ـ «حزن مدرسى».. للكاتب الفرنسى «دانيل بناك» رواية.. جائزة روندو.

79 ـ «غـدًا».. للكـاتب الألمانى «فالـتر، كـاباخر».. روايـة.. جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

80 ـ «الكلمة المكسورة».. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

81 ـ «أن نُصبح أغرابًا».. للـكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.

82 ـ «المرأة المسكونة».. للكاتـبة النيكاراجويـة «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة كاسا دى لاس أمير كاس.

83 ـ «بيتر كامينـتسند».. للكاتب الألمانى «هِرْمْن هيسّه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

84 ـ «بيت الـسيـد بيـسواس».. لـلكـاتب من تـريندادد «ڤ. س . نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

85 ـ «مدريد الأصيلة».. للكاتب الإسبانى «كارلوس أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

86 ـ «لاڤيـنيا».. للكـاتبـة الأمريكية «أوروسـولا كـى لى جوين».. رواية.. جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى.

87 ـ «أشجـار متحجـرة».. للكـاتبة المكـسيكيـة «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

88 ـ «سنـوات الهـروب».. للكـاتب الكـولومبى «بـليـنيو أبـوليو ميندوثا».. رواية.. جـائزة بـلازا إي خانيس.

89 ـ «الباحث عـن الذهب».. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

90 ـ «جائزة أو. هنرى».. مجموعة من المؤلفين.. قصص قصيرة.. القصص الفائزة بجائزة أو. هنرى لـ عام 2007.

91 ـ «الحيوان المُحتضر».. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة بن /نابوكوف.

92 ـ «أنشودة ألاباما».. للكاتب الفرنسى «جيل لوروا».. رواية.. جائزة الجونكور.

93 ـ «إنجيل الابن».. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. رواية.. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

94 ـ «الوصمة البشرية».. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

95 ـ «ليتنى لم أقابل نفسى اليوم».. للروائية الألمانية «هيرتا موللر».. رواية.. جائزة نوبل.

96 ـ «حكاية أوزوالد جـ1».. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الأول. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

97 ـ «حكاية أوزوالد جـ2».. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الثانى. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

98 ـ «وبنى لها معبدًا».. للكاتب الألمانى «سيجفريد أوبرماير.. رواية.. جائزة شيلزهايم.

99 ـ «جنون المتاهة».. للكاتب الإنجليزى «آدم فولذر».. رواية..جائزة صنداى تايمز لكاتب شاب.

100 ـ «الملك ينحنى ليقتل».. للكاتبة الألمانية «هيرتا موللر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

101 ـ «العبد».. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية.. جائزة نوبل.

102 ـ «الفراشة والدبابة».. للكاتب الأمريكى «إرنست همنجواى».. قصص.. جائزة نوبل.

103 ـ «التجمع».. للكاتبة الأيرلندية «آن إنرايت».. رواية.. جائزة البوكر.

104 ـ «موندو».. للكاتب الفرنسى «ج.م.ج لوكليزيو» قصص.. جائزة نوبل .

105 ـ «الكون فى راحة اليد».. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلى».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.

106 ـ «جزيرة صغيرة».. للكاتبة الإنجليزية «أندريا ليفى».. رواية.. جائزة الأورنج .

107 ـ «حياتى».. للكاتبة الأمريكية «إيزادورا دونكان».. سيرة ذاتية.. جائزة الكتاب القومى .

108 ـ «تيو».. للكاتبة النيوزيلندية «باتريشيا جريس».. رواية.. جائزة ميدالية ديوتيز للرواية.. وجائزة مونتانا للرواية.

109 ـ «الجولة وحوادث مؤثرة أخرى».. للكاتب الفرنسى «ج. م. ج لوكليزيو».. قصص.. جائزة نوبل.

110 ـ«ذهول ورعدة».. للكاتبة الفرنسية «إميلى نوتومب».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

111 ـ «أوليف كيتريدج».. للكاتبة الأمريكية «إليزابيث ستراويت».. رواية.. جائزة البوليتزر.

112 ـ «زهرة الكركديه الأرجوانية».. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى».. رواية.. جائزة الكومنولث لأفضل كتاب أول.

113 ـ «ثمةُ ما أقولُ لكُم».. للكاتب البريطانى من أصول باكستانية «حنيف قريشى».. رواية.. جائزة بن بنتر للأدب.

114 ـ «قلبٌ ناصعُ البياض».. للكاتب الإسبانى «خابير مارياس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب (تشيلى).

115 ـ «كتاب الزنوج».. للكاتب الكندى «لورانس هيل».. رواية.. جائزة الكومنولث للكتاب.

116 ـ «ملك كاهل».. للكاتب الفرنسى «تيرنو مونيمبو».. رواية.. جائزة رينودو.

117 ـ «البينيلوبية».. للكاتبة الكندية «مارجريت أتوود».. رواية.. وسام الفنون والآداب الفرنسى 1994.

118 ـ «ڤوس».. للكاتب الأسترالى «باتريك وايت».. رواية.. جائزة نوبل.

119 ـ «هناك حيث النمور فى أوطانها» جـ1.. للكاتب الفرنسى «جان ـ مارى بلاس دو روبليس».. رواية.. جائزة ميديسيس.

120 ـ «هناك حيث النمور فى أوطانها» جـ2.. للكاتب الفرنسى «جان ـ مارى بلاس دو روبليس».. رواية .. جائزة ميديسيس.

121 ـ «الناقوس الزجاجى».. للكاتبة الأمريكية «سيلڤيا بلاث».. رواية.. جائزة البوليتزر.

122 ـ «لاحواء ولا آدم» .. للكاتبة الفرنسية «إميلى نوتومب».. رواية.. جائزة دى فلور.

123 ـ «ذكريات ترانى».. للكاتب السويدى «توماس ترانسترومر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

124 ـ «التصحيحات».. للكاتب الأمريكى «چوناثان فرانزن» رواية.. جائزة الكتاب الوطنية الأمريكية.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ زجاج مكسور.. آلان مابانكو.. الجائزة الدولية الفرنكفونية 2005.

٢ـ رُبَّ جملة بعشرة آلاف جملة.. ليو تجن يون.. جائزة ماو دون للأدب الصينى 2011.

٣ـ حب الغربان.. بيتر فافرتسينيك.. جائزة إنجبورج باخمان 2010.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



الرواية

يواصل "سنجر" في روايته "أعداء.. قصة حب" غرامه بوضع شخوصه في مآزق متتالية واضعًا ملامحها الإنسانية تحت مجهرٍ مكبرٍ، ثم يتأملها وهي تتعامل مع مصائب الحياة والأسئلة الوجودية الكبرى.

تعتمد قصة الحب هنا، على أضلاع مثلث قصص الحب التقليدي، الحبيب والمحبوب والعشيق، على المحبة والتضحية التي تُكافأ بالخيانة. فبطل الرواية "هرمان برودر" متزوج من "يادفيجا" التي أنقذت حياته، وتركت بلدها بولندا من أجله ورضيت أن تستقر معه في نيو يورك، حيث أخلصت له وتفانت على راحته مع أنها لا تعرف لغة غير البولندية.

لكن "هرمان" يتورط في علاقة غرامية بـ "ماشا"، ويظل يتساءل: ماذا يفعل إزاء "يادفيجا" التي ضحت بالكثير من أجله وما زالت، بينما ما زال هو يحب "ماشا"؟ وما طبيعة هذا الحب الذي يكنه لـ "ماشا"؟ بل يثور التساؤل: هل هو يحبها حقًا؟ وهل ـ وهذا هو الأهم ـ يحب نفسه؟

هذا ما تكشف عنه أحداث رواية "أعداء.. قصة حب"، والتي صنعت منها هوليود فيلمًا سينمائيًا شهيرًا.

الروائي: إسحق باشيفيس سنجر، كاتب بولندي.
الجائزة: جائزة نوبل للآداب عام 1978.


الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥
جنيهًا


ISBN# 9789779100029
6 221149 039117

تصميم الغلاف: د. هند سمير